دكتور مُحمّد الجوّادى

مُذكّرات الهُواة والمحترفين

فن كتابة التجربة الذاتيّة

دار الشروق

مُذكِّرات الهُواةِ والمحترفين
فــن كتابة التجربة الذاتيـة

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الغلاف : الفنان حلمى التونى
الخطوط : محمود إبراهيم

الإهداء

إلى أستاذى الحبيب

الأستاذ الدكتور محمد شريف مختار

أستاذ القلب بكلية طب القاهرة

منه تعلمت كيف تضاء شمعة وراء شمعة

مُقَـدّمَـة

هذا كتاب يتحدث عن فن من الفنون ، وعن أدب من الآداب وربما يحسب بعض الذين يحسنون الظن بى وبكتابتى أنه يتحدث أيضاً عن علم من العلوم . . وليس هذا الفن ولا هذا الأدب ولا هذا العلم بالشىء الغريب على أبصار القراء وأيديهم وأذواقهم ، فهم يقرءون فى كل زمان ومكان كتب التراجم الذاتية المحببة إلى نفوسهم وعقولهم ورفوف مكتباتهم ثم إلى ألسنتهم حين يتجاذبون الحديث فيذكرون لبعضهم البعض نصوصا مما فيها . . ومع أنهم يحبون هذا النوع من الكتب حبا جما فإن هذا الكتاب الذى نقرأ مقدمته الآن لن يكون قادراً على أن يستحوذ على قدر مماثل من الحب ، ذلك أن الطبيعة الإنسانية تحب أن تستمتع بالفن ولكنها قد لا تحقق نفس القدر من الاستمتاع إذا ما حدثتها عن الطريقة التى كانت وراء ظهور فن ما على هذا النحو ، كذلك فإن النفس الإنسانية لا ترتفع أبداً بالنقد مهما ارتفع مستواه إلى مستوى الفن نفسه . ولهذا فإن هذا الكتاب ومؤلفه لا يسعيان إلى أكثر من تقديم رؤية ما حول هذا الفن وهذا الادب للقراء مستعينين على ذلك بقراءة بعض التجارب الذاتية ذاتها حيث اجتهد مؤلفوها فى أن يسجلوا لنا مشكورين تجاربهم الذاتية على صورة أو أخرى .



ولهذا فإن هذا الكتاب يبدأ بباب أول كأنه مقدمة دراسة لا هى طويلة ولا هى قصيرة عن فن كتابة التجربة الذاتية ثم سرعان ما يدرس نماذج محددة ومتنوعة لهذه الكتابة . . ويود المؤلف منذ بداية الفقرة الثانية من مقدمة هذا الكتاب أن يذكر أنه يلجأ إلى تعبير التجارب بديلا عن التراجم ليكون أكثر دقة وأكثر اتساعا وشمولا فى الوقت ذاته ، ذلك أن بعض الكتب التى قد تصنف تحت باب التراجم قد لا تشمل تجربة الحياة كلها وإنما تقتصر على فترة معينة منها ، وعندئذ فإن التجربة الذاتية تكون هى موضوع هذه الكتب ، ومع هذا تبقى هذه

الكتابة ضمن نفس الإطار العام لأنها لا تختلف عن كتابة الترجمة الذاتية إلا فى المدى الزمنى الذى استغرقته من حياة صاحبها ، ذلك أن كتابة تجربة ذاتية محددة تستدعى على نحو طبيعى جداً الرجوع إلى الجذور والإرهاصات المبكرة من حياة المرء نفسه ، وهكذا لا تظهر هذه اللوحة منفصلة ولا مستقلة عن الحياة التى سبقتها ، ولعل القارئ يلاحظ هذا بكل وضوح حين يقرأ على سبيل المثال كتاب الدكتور ميلاد حنا "ذكريات سبتمبرية" الذى يروى به تجربة اعتقاله فى ستمبر ١٩٨١ فإذا به يقدم على نحو أو آخر ملامح من بدايات حياته، ومن مراحلها المختلفة ، بل لعل هذا يكون أكثر وضوحا حين نقرأ ما كتبه الدكتور حامد طاهر تحت عنوان تجربتى مع الشعر فنجد أنه كتب قصة حياته من حيث لم يكن يدرى فى البداية .

وعلى اليد الأخرى نجد الدكتور جمال ماضى أبو العزايم وقد وضع هيكل كتابه بطريقة متكاملة إلا أنه مال بكتابته تحت هذه العناوين إلى أن يكتب تاريخ الطب النفسى فى مستشفيات وزارة الصحة المصرية لاتاريخ حياته هو ، لأنه قسم فصول الكتاب بالتقسيم المتوازى مع هذا الطب النفسى لا مع حياة الإنسان من حيث هى شباب وكهولة وتقدم فى السن .



أكأنى حين وصلت إلى الفقرة السابقة أريد أن أقول إن ترك الإنسان ذاته على طبيعتها ليتدفق منها تيار الوعى هو الكفيل بتقديم تجربة ذاتية ؟ نعم أنا أحب أن أسارع إلى إجابة هذا السؤال بالإيجاب متخذا هذين المثالين حامد طاهر وجمال ماضى أبو العزايم . . فهذا هو حامد طاهر يكتب مقدمة لديوان شعره يراها ضرورية ليقص قصته مع الشعر فإذا به يكتب قصة حياته لأن حياته لم تكن بمعزل عن الشعر الذى لم يكن – والحالة هذه – إلا تعبيراً عن حياته ، وقد انطلق حامد طاهر وهو يكتب تجربته مع الشعر فإذا به يبدأ من حيث ولد ، ومن حيث أثرت فيه المؤثرات المختلفة من بيئة وتعليم وثقافة ومعرفة بالناس . . . . . الخ) . . وقد كان أبو العزايم هو الآخر حريا أن يفعل مثل هذا ، ولكنه وضع لنفسه قبل البدء عدة عناوين محددة تتعلق بالجوانب المختلفة للعلاج النفسى ومشكلاته ، فاذا به يبدأ فى كل فصل من فصول كتابه بداية جديدة تستند إلى الخبرة العلمية لا إلى الخبرة الذاتية (اللهم إلا فى مقدمات بعض الفصول) وإذا به كما قدمنا يكتب تاريخ الطب النفسى فى مؤسسة معينة فى نصف قرن بدلاً من أن يكتب تجربته وممارساته لهذا الطب . . ومع هذا فإننا نقرأ كثيراً جداً من ملامح حياته فى كل هذه المراحل من خلال هذه الفصول ، ولكننا نقرؤها لأننا نبحث عنها لا لأنها تفرض نفسها علينا ، وليس لنا أن نلوم الدكتور أبو العزايم على هذا، بل لعلنا نجد أنفسنا بطريقة أو أخرى أقرب ما نكون إلى الاضطرار لنسجل أننا مع إبداء الإعجاب الشديد لم نكن

كقراء نريد منه هذا التقديم والتـأخير فى الصورة ، وإنما كنا نريد منه شيئاً آخر هو أن يقص علينا حياته وأن تخرج لنا من هذه الحياة قصة تطور الطب النفسى والعلاج النفسى فى مصر طيلة هذه الخمسين عاما . . . . كأنى أريد أن أقول إن الدكتور أبو العزايم حين رسم اللوحة التى قدمها لنا فى صورة كتاب أراد أن يبعد نفسه عن مقدمة الصورة مع أن قواعد فن التصوير التشكيلى لا تسمح له بذلك ، ولهذا فإننا إذا أردنا أن نثنى على تواضعه فلابد أن نسجل فى نفس اللحظة عدم التزامه بقواعد الفن التشكيلى التى تعرف فن التصوير على أنه الإيهام بوجود بعد ثالث . . وللأسف الشديد فإن الدكتور أبو العزايم لم يحاول هذا الإيهام .



سوف نتناول فى هذا الكتاب كما قد أحس القارئ من الفقرات السابقة بالنقد والعرض والتحليل بعض الكتب التى كتبها أصحابها ليقصوا علينا خبرة أو أكثر من خبرات حياتهم وسوف يلاحظ القارئ من الوهلة الأولى أن هذه الكتب قد أخذت أشكالا مختلفة من الكتابة والتصنيف والتبويب فضلاً عن أسلوب التناول والتعبير .

وقد آثر بعضها على سبيل المثال أن يبدأ الكتابة منذ مرحلة معينة ، بينما آثر آخرون أن يبدءوا بما يعونه عن فترة الطفولة أو ما قبلها مما سمعوه من أمهاتهم أو عائلاتهم. كذلك فقد آثر بعض هؤلاء التحدث بضمير المتكلم بينما يؤثر آخرون التحدث بضمير الغائب على حين أن آخرين قد خلطوا ومزجوا بين ضمير الغائب وضمير المتكلم والتحدث عن أنفسهم باللقب أو مسمى آخر كصاحبنا على نحو ما فعل طه حسين حين أطلق على نفسه لقب صاحبنا وسار على هذا طيلة كتابه « الأيام » .

كذلك سوف نجد اللجوء إلى اعتبار الأسماء والشخصيات بمثابة عناوين للأبواب ومداخل لحديث جميل عن الآخر وعن العلاقة بالآخر وعن الذات فى أثناء ذلك ، وقد فعل ذلك فرغلى باشا فى كتابه «عشت حياتى بين هؤلاء» ، أما الدكتور سمير حنا صادق فقد لجأ إلى تكنيك جميل بأن قدم لقطات متباينة على طريقة السينما الجديدة وجمع فيها بين الحديث عن الانطباعات الشخصية وبين الحديث عن الإنجازات العلمية فى ذات الوقت ، وكأنه يتحدث عن المدخلات والمخرجات فى فكره ليقدم لنا رؤيته لبعض لحظات حياته هو من خلال أفكاره .



وليس من شك فى أن بعض هذه الكتب لم يكتب بهدف أن يكون ترجمة شخصية لصاحبه ، ولعل المثل الواضح على هذا هو ما كتبه الدكتور حامد طاهر تحت عنوان تجربتى مع الشعر فإذا به يكتب ـ كما أسلفنا ـ قصة حياته بطريقة رائعة .

كذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر أن بعض هذه الكتب كُتب من منطلق إراحة الضمير من ذكريات وآراء رأى أصحابها أنه لابد لها من أن تثبت على الورق وأن تأخذ مكانها فى مواضع ثابتة من كتب يتاح لها التداول والخلود .

كذلك فإن بعض هذه المذكرات لم تنشر إلا بعد سنوات من كتابتها والنموذج الواضح على ذلك هو مذكرات الدكتور الربيعى الذى كتب فى مقدمتها فى صفحة خاصة أنه كتبها فيما بين الكويت والقاهرة ثم نجد تاريخ نشرها بعد ذلك بسبع سنوات ، وربما كان هذا من مزايا المذكرات المتعقلة .



وفى كل الأحوال فإن الذين كتبوا تجربتهم يستحقون كثيراً من الشكر والامتنان لأنهم أتاحوا لنا بعض أنفسهم، ولأن نفوسهم العالية كانت بهذه الكتابة تعبر عن كثير من الانتماء والولاء والعطاء ، ثم عن قدرة على تحقيق هذا الانتماء والولاء والعطاء، ولعلى استعير هنا عبارتى التى ذكرتها فى مقدمة كتابى « مذكرات الضباط الأحرار » حين قلت : " وإذا كان لنا أن ننتقد ونثنى ، فإننا نثنى على من كتبوا المذكرات وننتقد كل من لم يكتبوا مذكراتهم، ونحن حين نفعل ذلك لا نستحث الأحياء من أصحاب التجربة على أن يكتبوا تجربتهم فحسب، ولكننا نستحث الذين ما تزال بأيديهم مذكرات غيرهم ممن انتقلوا إلى العالم الآخر أن يؤدوا دوراً مهما لوطنهم ولشعبهم بأن يعملوا على نشر مالديهم من مذكرات " .



وإنى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا الذى كتبت فى فصول هذا الكتاب وأن يوفقنى إلى غيره وأن يهدينى سواء السبيل .

محمد الجوادى

الباب الأول

فن كتابة التجربة الذاتيّة

كتابة الترجمة الذاتية حق للمجتمع

من حق المجتمع على أبنائه النابهين أن يكتب هؤلاء النابهون سيرهم الذاتية ، حتى يفيد من هذه السيرة كل من ينبغى له أن يستفيد منها ، وليس إحجام الناس عن القراءة أو ترددهم فى الإفادة مما يكتبه الآخرون بعذر لصاحب التجربة يدفع به إلى أن يتقاعس عن كتابة تجربته ، فنحن نعلم جميعا أن الكتابة تتخطى حدود الأجيال التى يمكن لبصرنا أن يمتد إليها . . هل كان الجاحظ أو المتنبى أو فولتير أو شكسبير يدركون أن أعمالهم ستلقى من الاهتمام بعد قرون من كتابتها مايفوق الاهتمام الذى لقيته فى حياة أصحابها ؟ هل كان هؤلاء وغيرهم يدركون الملامح التى يتشكل عليها وجدان القراء فى نهاية القرن العشرين مثلا ؟ . . هذا هوالسؤال الذى يأتى على رأس أسئلة كثيرة أخرى نعرف إجاباتها بالطبع وبالقطع ، ولكن هذه المعرفة لا تكفى إنما ينبغى أن تكون هذه المعرفة دافعا قويا يشجع أصحاب التجارب الانسانية فى مختلف صورها على أن يكتبوا لإخوانهم فى الإنسانية قصص حياتهم .



هل ترانى أميل إلى ترجيح القول بأن كتابة التجربة الذاتية تمثل واجبا لابد للنابهين من القيام به فردا فردا ، حتى وإن تشابهت بعض هذه التجارب مع بعضها الآخر ؟ أم ترانى أميل إلى ترجيح القول بأن كتابة التجربة الذاتية تمثل حقا لابد لكل صاحب تجربة أن يحصل عليه ، فيكتب انطباعاته الذاتية جدا عن تجربته وله أن يخرج عن الذاتية إلى الموضوعية ، وله أيضا أن يبقى على الذاتية كشعلة وحيدة فى كتابة هذه التجربة التى عاشها هو، والتى يكتبها هو!

أم ترانى أسارع إلى حل يبدو وسطا ولكنه ليس كذلك ، وذلك حين أقول إن كتابة التجربة الذاتية تمثل حقا من ذلك النوع الذى يمثل أداؤه أحد الواجبات الملقاة على عاتق كل إنسان يعيش المجتمع المدنى . . تماما كما يقال عن الانتخاب إنه حق من حقوق المواطنة الملتزمة من ناحية ، وإن أحد واجبات المواطن الصالح فى المجتمع أن يحرص على أداء حقوقه السياسية التى منها الانتخاب والترشيح . . . إلخ .



مكانة الترجمة الذاتية من الحياة الأدبية

هذه الصورة هى أقرب الصور فى اعتقادى إلى مكانة كتابة الترجمة الذاتية (أو التجربة الذاتية حين نريد أن نكون أكثر دقة ، وأكثر اتساعا أيضا) من حياة الأمة العامة . .

- ☐ فهل ياترى تحتل كتابة التراجم مكانة مماثلة فى الحياة الأدبية لأى لغة من اللغات ؟
- ☐ بعباره أخرى هل تمثل التراجم عنصرا ذا قيمة فى تكوين فكرة كاملة عن أدب أمة ما فى مرحلة زمنية من المراحل التى تتقلب على الأمم ؟
- ☐ بعبارة ثالثة هل يمكن أن نقول عن التراث الادبى لشعب ما فى حقبة ما إنه كان ينقصه الإبداع الأدبى فى مجال التراجم ؟
- ☐ بعبارة رابعة هل تمثل التراجم أحد الأشكال الأدبية التقليدية التى ينبغى تقييم حظ كل أدب (ندرسه أو نؤرخه) منها؟
- ☐ بعبارة خامسة وليست أخيرة هل لابد للطبيب الفاحص أوللناقد المتأمل فى حالة أدب ما أن يبحث عن حالة هذا (العضو) أو هذا (المكون) من مكونات الأدب القومى وأن يصدر عليه حكما ما وأن يكون لهذا الحكم دور ما فى تكوين الصورة الشاملة أو الانطباع الكلى الذى نضع به هذا الأدب الذى ندرسه ونتأمله فى مكانته بين الآداب الأخرى ؟

هذه هى الأسئلة أو نماذج الأسئلة التى يمكن لنا أن نتلقى عليها بعض إجابات تحدد لنا المكانة التى يحتلها هذا الفن ضمن الفنون الأخرى المكونة للأدب أولفن الكتابة عند أمة ما فى حقبة ما ، ولست بالقادر على أن أسارع بالزعم بأنى أستطيع أن أجيب إجابات يقينية عن هذه الأسئلة الخمسة أو عن بعضها . . ولست بمستطيع حتى أن أزعم أنه سيكون بإمكانى أن أجيب عن هذه الأسئلة عن قريب أو عن بعيد ، ولكنى مع هذا أستطيع أن أعترف دون أن يكون لاعترافى قيمة غير قيمة الاعتراف

الصادر عن شخص واحد أننى أميل بكل ما أوتيت من قدرة على الميل (وعلى الموضوعية أيضا) إلى أن ننظر إلى التجارب الذاتية على أنها أحد المكونات الكبرى للأدب القومى فى كل حين وآن .



مكانة الترجمة الذاتية من الأدب

ومع هذا فإنى أحب أن أنتقل فى سرعة بالغة إلى قضية أخرى ، ولن أسارع إلى القول بأنها قد تمثل المحك الذى يمكن به فصل كتابة التجارب الذاتية عن الأدب بمفهومه العام ، لكنى سأكتفى بأن أعترف إلى أقصى حد بالأهمية المطلقة لهذه القضية التى تقول إن الأدب لا يكون أدبا إذا تغلبت عليه الذاتية المفرطة وخرجت به عن حدود الإنسانية إلى حدود الفردية ، وعن حدود التامل إلى حدود التقرير ، وعن حدود الديالوج إلى حدود المونولوج . . وهكذا . .

أعترف بأنى موافق تمام الموافقة على هذا المعنى ، وأنى حريص على أن نأخذ بهذا المعيار حتى فى تقييمنا لأدب التراجم ، ولا أستطيع أن أدعى أن فى هذا أية صعوبة ، ذلك أنه حين تخرج الترجمة المكتوبة عن حدود الإنسانية إلى حدود الفردية ، وعن حدود التأمل إلى حدود التقرير فإنها ستخرج من تلقاء نفسها عن حدود الأدب نفسه . . تماما كما يخرج بعض النظم عن حدود الشعر ، وكما يخرج كثير من النثر عن حدود الأدب أو ما نسميه بالنثر الفنى ! .



وإذن فإنى أريد أن أقول إن كتابة التجربة الذاتية هى نوع مما يخضع فى تقييمه لمدى الالتزام بالقواعد الفنية شأن كل جنس أدبى آخر ، وليست التجربة الذاتية فى حد ذاتها مبررا للخروج بنصوصها عن مقومات الأدب تحت دعوى أنها تجربه ذاتية ، ذلك أن كثيرا جدا من ضروب الأدب قد تعبر فى الواقع عن تجارب ذاتية ولا يعطيها هذا أى حق ولا أى عذر فى أن تفرض على النسيج الأدبى أى صورة من الصور الكفيلة بإظهار هذا النسيج فى صورة أخرى مختلفة عن صورة النسيج كما ينبغى أن تكون ! . .

□ هل ترى المتلقى يقبل من الشاعر أو الروائى خروجا على الخط الفكرى للقصيدة أو الرواية تحت دعوى أنه صاحب التجربة التى عبر عنها ؟

□ هل يمكن للروائى أن يضع هامشا فى الرواية يقول فيه إنه مضطر لأن يكتب الحدث

على هذه الصورة مع أنه يعرف أنه لم يكن على هذه الصورة ، ولكن الضرورة الروائية دعته إلى هذا ؟

- ☐ هل يمكن للروائى أن يسلك سلوك السياسيين الذين يقولون إنهم قالوا هذا أمام الجمهور، ولكن كلام الحجرات المغلقة شىء آخر ؟
- ☐ هل يجوز للشاعر أن يقول إنه كتب هذه القصيدة ليعتذر بها بينما هوغير مقتنع بهذا الاعتذار؟
- ☐ لن أجيب فأقول إنه يجوز أو لا يجوز . . ولكننى أعرف أن القراء جميعا يعرفون أنه إذا جاز هذا أو ذاك فسوف نخرج بالنص الأدبى من صورته المثلى ومن مكانته الرفيعة ليكون مجرد نص من نصوص الحياة التى تقابلها نصوص أخرى تصطرع معها وتكون الغلبة فى النهاية لمن يملك القدرة على الإقناع !

☐ ☐ ☐

هل ترانى تجاوزت ما كنت أتحدث فيه من أن التجربة الذاتية التى نقابلها كنص أدبى شىء آخر منفصل تماما عن التجربة التى نعرفها فى الحياة ، أم ترانى قد أوضحت الصورة ببعض الأمثلة البعيدة نوعا ما عن الموضوع الذى نتكلم فيه !

هل أريد أن أقول إننا لا نستطيع أن نعطى لمؤلف التجربة الذاتية الحق فى أن يقول إنه يقصد بهذا النص الذى كتبه فى موضوع ما أو مقام ما معنى معينا غير ما يعنيه النص ذاته !! هل أريد أن أقول إننا إذا اختلفنا كقراء أو كنقاد حول نص ما كتبه نابه ما (أو ذوشأن) فى كتابه الذى خص به تجربته الذاتية فلا يحق لأحدنا من المختلفين أن يخرج عن مبادئ تحليل النصوص ليقول لنا إنه سأل صاحب النص نفسه الذى أجابه بأنه يريد معنى آخر ، وأنه يحتج بهذه الشهادة الموثقة (كأن تكون موقعة مثلا من صاحب النص نفسه) على صحة تأويله هو للنص ؟

الترجمة الذاتية نص أدبى

نعم هذا هو بالضبط ما أريد أن أقوله ، فالتجربة الذاتية تصبح بعد كتابتها ونشرها نصا شأن كل النصوص الأدبية المتداولة ، ولا يصبح من حق كاتب هذا النص أن يفرض علينا رؤيته هولتفسير النص ، فقد كان فى يده وفى إمكانه أن يحمل عباراته بكل مايشاء وأن يقول فيها كل ما يشاء ، وأن يخرج بها من الغموض إلى الوضوح ، أو من الوضوح إلى الغموض ، وكان فى وسعه أن يحمى نفسه حتى من دفاع من يهاجمهم فيلجأ إلى التلميح بديلا عن التصريح ، وإلى الإبهام بديلا عن التحديد ، وإلى

التعميم بديلا عن التخصيص ، وإلى التنكير بديلا عن التعريف . . أما وقد فعل وحدد وخصص وصرح وعرف فإن عليه أن يتحمل تبعات ما ارتأى سواء فى ذلك أكانت رؤيته خطأ أم كانت صوابا ، وسواء كانت ذاتية أم موضوعية، وسواء أحكمها الهوى أم حكمها الإنصاف .



كأنى أريد أن أقول إن الصيغة الأدبية التى تحصل عليها نصوص التراجم الذاتية تستمد معظم مزاياها إن لم يكن كل هذه المزايا من كونها نصا متداولا لا من كونها واقعا حدث فى الواقع أو فى خيال كاتبها .

هل قلت أو فى خيال كاتبها . . نعم قلت وأقول هذا ، هل أفتح بهذا الباب أمام أصحاب التراجم أن يذكروا غير الحقيقه فيما يكتبون أم إننى أريد معنى آخر . . نعم أنا أريد معنى آخر وهوأن عليهم أن يتحملوا تبعات ماكتبوه لنا على أنه حدث حتى لوكان قد حدث فى خيالهم فقط ، فما داموا قد كتبوا أنه حدث بالفعل فنحن نصدقهم أنه حدث ، ولكننا نلزمهم به فيما يتلوذلك من صور ونصوص !

كأن الأمر فى هذا شبيه بأننا لا نملك أن نحاسب المهنى على كل جزئية من جزئيات ممارساته، ولكننا لابد أن نحاسبه إذا لم يتخذ الإجراء المناسب تجاه ما ادعى وجوده . . فإذا قال لنا الطبيب مثلا إنه اكتشف وجود ارتفاع فى ضغط الدم عند هذا المريض، وأن هذا الارتفاع من النوع الذى لابد من علاجه ثم وجدناه لم يصف علاج الضغط لهذا المريض فلابد أن نحاسبه على هذا الخطأ . . ولا يمكن أن يشفع لهذا الطبيب أن يكون المريض غير مصاب بارتفاع فى الضغط !

ومع أننا سنحاسب الطبيب على أنه أهمل فى إعطاء العلاج المناسب للمرض الذى شخصه وأثبت وجوده ، فسوف نحاسبه كذلك على أنه أخطأ فى تشخيص المرض ، وادعى وجود ارتفاع الضغط مع أن المريض لا يعانى منه !

ومع هذا فإن عقابنا له سيختلف فى الحالين ، فإهماله فى إعطاء العلاج لايقبل عذراً لأنه إهمال .

أما خطؤه فى تشخيص الضغط فقد نسمح له فيه بشىء من العذر إذا كانت درجته وخبرته المهنية بسيطتان بحيث يمكن له بسببهما أن يخطئ فى هذا القياس لأن الحالة قد تحتمل الخطأ بحكم نقص الخبرة ، ولكن إذا كان مرجع الخطأ إلى عدم اتباعه القواعد الفنية فى القياس وإهماله لهذه القواعد فإننا لن نقبل منه أى عذر فى هذا الخطأ.

على هذا النحو فإننا لن نستطيع أن نسمح لأى وسيط أن يقول إن الطبيب قد أصاب الصواب لأنه لم يعط الدواء لأن المريض ليس مصابا بالمرض، وإن حسن الحظ هوالذى قاد إلى حماية المريض من دواء لم يكن مطلوبا لحالته . . كذلك فإننا لن نتسامح مع الديماجوجيين البسطاء الذين سوف يهددوننا بصوتهم العالى ويقولون : كأنكم أيها الظلمة كنتم تريدون من الطبيب أن يؤذى المريض بدواء لا لزوم له لمجرد أنه أخطأ فى التشخيص ؟ . . كذلك فإننا لن نتسامح مع الديماجوجيين الأكثر خبثا الذين سيرفعون أصواتهم بأن الطبيب أخطأ فى البداية ولكنه هوالذى اكتشف الخطأ وصححه بأن امتنع عن إعطاء هذا الدواء !! ونسأل هؤلاء الديماجوجيين الخبثاء : وهل اعترف هذا الطبيب بهذا الخطأ . . فيقولون لك فى صفاقة إن هذا هوالخطأ الوحيد الذى وقع من هذا الطبيب وهوخطأ يغتفر لأن الخطوة التالية (وهى الامتناع عن إعطاء الدواء) كانت كفيلة بإزالة آثار هذا الخطأ .

ومن حسن الحظ أن القارئ الواعى وأن الناقد الذكى المتمكن من أدواته لا يخضعان أبدا لهذه الديماجوجيات الفارغة .



إضاءة النص من داخله

هل يسمح لى القارئ الآن أن أساله هل أصبحت الصورة واضحة تماما ؟ أم إنه يريد مزيدا من التوضيح ؟ لست أظن أنه يريد هذا المزيد ، فسوف يجد فى كل ماكتبت من عروض ونقد للسير الذاتية أنى ملتزم أبعد الالتزام بما أسميه قراءة النص من النص نفسه ، وإضاءة النص من داخله ، ولكنى أحب أن أكرر هنا أن التجربة الذاتية (أو الترجمة الذاتية) من حيث هى نص أدبى لاتخرج عن هذا الإطار من الفهم والتحليل والنقد بل ربما هى أكثر الأجناس الأدبية التزاما بهذا المفهوم .



من صعوبات كتابة الترجمة الذاتية

مأزق الذاتيـة

يكاد كثير من القراء والنقاد يعتقدون أن الروائى حين يكتب لا يكتب إلا قصة نفسه هو مع قدر متفاوت من التحوير أو تنمية الأحداث ، وقد يُعنى كثير من دارسى الأدب بتعقب الخط الدرامى المرتبط بشخص الكاتب نفسه فى العمل الأدبى، وقد

يسعى آخرون إلى وضع المقارنات بين ما يعرفونه من تاريخ الكاتب ، وما يطالعونه من نتاج فكره وفنه ، ويعتقد كثير من دارسى الأدب أن نجاح الروائى يعتمد إلى حد بعيد على مقدار صدقه فى التخلى عن تقديم نفسه على أفضل وجه ، ونفضيله الواقع كما حدث ، فإذا انتصر الروائى لنفسه فأبرزها من غير ضعف فسوف يخسر ركناً من أهم الأركان الكفيلة بتحقيق النجاح له كأديب . أما فى كتابة التجربة الذاتية فإن الكاتب يتحدث إلينا مباشرة عن تجربته سواء تحدث بضمير المتكلم أو حتى بضمير الغائب (كما يفضل البعض) ، ولذلك فإن فى وسع الناقد والقارىء أن يواجها الكاتب بما يتوفر لهما من حقائق عن موضوع كتابته على حين أن الناقد والقارىء لا يستطيعان أن يلزما الروائى بالواقع الذى كان لأنه أصبح بمنجى عن هذا الالتزام حين اختار شكل الرواية .



وهذه هى أولى صعوبات كتابة التجربة الذاتية على أولئك الذين يريدون الانطلاق من أسر تجربتهم الواقعية إلى تجربة أخرى . . سواء أكان هؤلاء من الذين تمكنت من قلمهم القدرة على التحليق فى الخيال ، أم كانوا من الذين يريدون الهروب من التجربة التى عاشوها إلى تجربة أخرى على الورق .

بل إن القلم قد يجرى بصاحبه ، وهويكتب التجربة الذاتية فى اتجاه يخرج به عما كان ينتويه حين بدأ الكتابة، فيجنح إلى الشطط الذى يجنى به على صاحبه وعلى تجربته الذاتية .

وحين تعترى كتابة التجربة بعض الأخطاء التاريخية يبدوصاحب التجربة وكأنه يكذب أو على الأقـل يخلط الأمور . . ولهذا تظـل ذاتية التجربة بمثابة صعوبة تمثل سيفاً قائماً فى كل حين على قلم صاحبها الذى قد يواجه موقفا لن يغفر له فيه أحد الخطأ فى واقعة تتصل بشخصه هو.

وقد أفضت فى الحديث عن مدى الحرية التى قد تكون متاحة للكاتب وهو يكتب تجربته الذاتية ثم عن مدى الالتزام الذى سينشأ تجاه النصوص التى قدمها لنا فيها كتب، ولا أظننى أكون مغاليا إذا ما عدت إلى تكرار القول بأن القارىء لن يتسامح مع كاتب التجربة الذاتية إذا هو تناقض مع ماروا‌ه مع أنه قد يتسامح على مضض إذا وجد الكاتب يلجأ إلى حقيقة معروفة ليلويها.



ضرورة التخلى عن إدعاء الحكمة بأثر رجعى

ومن أصعب ما يواجه كاتب التجربة الذاتية تطلعه إلى المستقبل فى ظل ما خبر من تقلبات الماضى ، وهذا هو الخلق الذى نعبر عنه فى بعض الأحيان بقولنا : إدعاء الحكمة بأثر رجعى، وتخيل معى واحداً من أقطاب الحكم السابقين فى دولة ما أتيح له أن يشارك فى التبشير بالاشتراكية ، هل يثق فى « الزمن » إذا كتب مذكراته اليوم ، وهو يرى سقوط الاتحاد السوفيتى . . وهل يستطيع هذا القطب السابق مثلاً مهما أوتى من قدرة على التحوط أن يثق فى أن ما يكتبه اليوم لن يكون عرضة بعد عشر سنوات لنوع ما من أنواع النقد بل والسخرية . . إنه يستطيع الآن أن ينجو من التشيع لقضايا كان التشيع لها شرفاً فى الماضى . . ولكن من يضمن له ألا يكون فى ثنايا سطوره التى يكتبها اليوم وهو مطمئن ما قد يؤخذ عليه فى المستقبل . . لهذا السبب ترى كثيرين من الذين يتوقون إلى كتابة الترجمة الذاتية لأنفسهم أو حتى كتابة إحدى التجارب الذاتية فى حياتهم وهم يحجمون يوماً بعد آخر عن الانطلاق فى هذا السبيل . . ولذات السبب نرى السياسيين المحترفين يأبون على أنفسهم أن يكتبوا مثل هذه التجربة رغم شغفهم بها لأنهم يخشون أن تقيدهم كلماتهم بما يؤثر على تقبل الكيانات السياسية الصاعدة لهم أو بما يؤثر على توافقهم مع الظروف المتغيرة . وقل مثل هذا مع كثير من الفنانين والصحفيين وحتى الأدباء الذين يمارسون حرية التمذهب من آن لآخر .



مـازق العـلاقة بالآخـر

ومن أصعب ما يواجه كاتب التجربة الذاتية علاقته « الخاصة » مع الناس ، وفى وسع كاتب التجربة الذاتية أن يتخلص من الإشارة إلى شخص معين بالاسم فيكتفى بالحروف الأولى من اسمه ، أو بحروف ترمز له فلا يكون معرضاً للوقوع تحت طائلة القانون حين يتناول من يريد بالجرح أو التجريح ، ولكن المؤكد أن الشخص المعنى لن يفوت عليه أنه هوالمعنى بهذا الهجوم، فإذا كان المعنى بالهجوم حريصاً على ألا تعلق بسمعته أية شائبة فإنه سوف يسبب حرجاً واضحاً لصاحب الترجمة أو المذكرات حين يتخذ من نشر المذكرات مدخلاً إلى الهجوم على صاحبها وتصفية ما بينهما من حسابات قديمة . . بل ربما ظن صاحب التجربة أن وفاة الخصم قد تتيح له فرصة الهجوم عليه بحرية واسعة فإذا به يتلقى الحرب والحراب من أنصار هذا الخصم المتوفى بأكثر مما يتلقاه من خصم آخر على وجه الحياة .



التعبير عن المشاعر

ومن أصعب ما يواجه كتاب الترجمة الذاتية والتجربة الذاتية حيرتهم الشديدة والواضحة بين حرصهم على إبراز الشعور الذى خبروه وبين حرصهم الآخر على إبراز الشعور الذى يظنون أنهم كانوا أولى بأن يتبعوه . . هذا الصراع الواضح بين الواقع والمثال لا يخفى على القارىء مهما اجتهد كاتب التجربة الذاتية فى أن يخفيه . . وليس على الكاتب حرج أن يجتهد فى أن يظهر ما يود إظهاره بيد أنه لا ينبغى له أن يشعر بالأسى إذا ما وجد القارىء وهو يكتشف بسهولة ما كان يود إخفاءه ، فليس الأمر بصراع بين القارىء والكاتب وإنما هوحوار ذكى بين خلجات النفوس المتحدثة والنفوس القارئة ، وليس من شك أن كثيراً من الكتابات الذاتية فى بعض ثناياها تبقى مغلقة على الفهم العام متاحة للفهم الخاص إلا أن يثير النقاد الجوانب الخفية فيها أمام القراء حتى ولو بعد حين .

تقبل الجمهور

ومن أصعب ما يواجه كتاب التجربة الذاتية تحقيق الحد الأدنى من التواصل مع القارىء . . فبعض التجارب الذاتية تحظى بتفهم قطاع واسع من القراء على حين أن بعضها الآخر لا يحظى بذات القدر من التفهم ، بل إن عنوان بعضها مثلاً قد يكون دافعاً إلى الابتعاد عن تناولها بالقراءة بل قد تقوم الصفحات الأولى من التجربة المكتوبة بمثل هذا الدور . . ويختلف قبول الناس للتجارب من تجربة إلى أخرى بالطبع ، ومن جماعة إلى جماعة ، ومن زمن إلى زمن . . ولهذا تزداد صعوبة التواصل مع القارىء إلا أن يفطن كاتب التجربة الذاتية إلى جوهر التعامل مع النفس البشرية فيتعمق ما فى تجربته من معنى إنسانى ، قبل أن يستعرض ما فيها من حقائق مادية ، وبقدر ما ينجح كاتب التجربة فى الوصول إلى هذا العمق العميق من النفس البشرية بقدر ما يحقق من نجاح فى الوصول بعمله إلى مرتبة الخلود بين الأعمال الأدبية حتى وإن جاء الخلود متأخراً لسبب أو لآخر .



مسخ التجربة الذاتية

ومن أصعب ما يواجه كتاب التجربة الذاتية ذلك الصراع القاسى وهم يتغلبون على الرغبة الجامحة فى إضافة العناصر الكفيلة بتحقيق الذيوع أو الانتشار لما يكتبونه ، وقد يسود الاعتقاد بأن المبالغات والتهويل والحديث عن الخوارق والمصادفات من

عوامل الجذب أو الذيوع والانتشار وارتفاع نسبة المبيعات وهوأمر صحيح إلى حد ما ، ولكن الذين يجعلون هذا الهدف كل همهم يمتهنون حياتهم إلى أبعد حد ، فهم يحولون التجربة الذاتية إلى مسخ ممسوخ لا يمت لذواتهم بشىء فكأنهم يتاجرون بتجربتهم على نحوما قد يتاجر المتسول بعاهته . . أو آخرون بقيمهم (بدون تحديد) . . ولابد لصاحب التجربة الذاتية أن يعتز بكل ما فيها إذا أراد من الناس أن يعتزوا به وبها .



إفشاء السر للمرة الأولى !

ومن أصعب ما يواجه كتابة التجربة الذاتية ذلك الشعور الذى ينتاب صاحبها وهو يواجه بها أبناءه أو تلاميذه أو مريديه على حين كان يخفى عنهم بعض ثناياها وهم فى مرحلة التكوين . . أو وهو يواجه بها شريكة حياته (أو شريك حياتها) حين يروى شيئاً لم يكن رواه من قبل لسبب أو لآخر ، وعلى عكس ما يتوقع القارىء فإن صاحب التجربة يكون قد عانى أشد المعاناة وهويتطرق إلى هذه النقطة أو تلك، ولكنه فى النهاية آثر ما وجده القارىء مكتوباً بسطور واضحة أو بين السطور بطريقة واضحة .



الحديث عن العقائد

كذلك فإن من أصعب ما يواجه كتابة التجربة الذاتية الحديث عن العقيدة ، فإن فى عقيدتنا جميعاً كبشر جزءاً لا يستهان به يصعب على الإنسان أن يقر به فى سهولة ويسر ، وليس على المتفائل من حرج فيها يتفاءل به مثلاً ، ولكن الإقرار بمثل هذا قد يمثل صعوبة ، دعك من العقائد المركبة كالاعتقاد فى علاقة الخير بالشر وأن الجزاء من جنس العمل وما إلى ذلك مما قد يحكم تصرفاتنا بطريقة غير واعية .



كيف تسهل كتابة التجربة الذاتية ؟

الإفادة من تمايز البشر

ليس من باب التفكير النظرى القول بأن فى وسع الناس جميعاً أن يكونوا مؤلفين إذا ما انتبهوا إلى قصة حيواتهم فكتبوها أو على الأقل إلى تجربة واحدة من تجارب حيواتهم فسجلوها . . فقد شاء العلى القدير أن تكون لكلٍ واحد من خلقه حياته الخاصة جداً

التى لا تشبهها حيوات الآخرين حتى وإن بدا أن السواد الأعظم من البشر يعيشون نفس الحياة .

وأذكر فى هذا المقام أن أحد أساتذة طب القلب الكبار كان يقول لنا إنه لا يمكن أن تتشابه تماماً حالتان من حالات ضيق الصمام الميترالى . . كان يعتقد أن التباين قائم حتى فى ذلك المرض (ضيق الصمام الميترالى) الذى كان أوسع أمراض القلب انتشاراً وتكراراً وكان يعتقد فى وجود هذا التباين إلى الدرجة التى يسهل على طالب البكالوريوس تشخيصه بسهولة شديدة . . ولهذا فإنك تجد بالخبرة الاكلينيكية فروقاً قد تبدو طفيفة وقد لا تبدو على الإطلاق لغيرك من الذين يأخذون المتشابهات على أنها صور متكررة لأصل واحد .

الباعث على الكتابة

على هذا النحو يمكن لنا أن نقفز إلى القول بأن التأمل هوالكفيل ببعث الرغبة فى صاحب التجربة إلى التفكير فى تسجيلها . . ذلك أن صاحب التجربة يتأمل تجربته فيعتقد أن فيها ما يستحق التفكير لأنه مختلف عما صادفه الآخرون من قبله ، ولهذا السبب فإنه يعتقد أو يميل إلى التفكير بأن شيئاً ما يستحق إطلاع الناس عليه . وهنا تأتى مرحلتان أخريان بعد هذا القرار الداخلى : مرحلة التفكير فى شكل التسجيل ومرحلة التسجيل نفسه ، فإذا ما سجل صاحب التجربة خلجات نفسه أو خلجات قلمه أصبح بين نارين بين أن يحتفظ بها فيحفظ على نفسه الهدوء النفسى ويجنبها الحيرة وآراء الناس وانتقاداتهم وغمزهم ولمزهم ، وبين أن يفشيها أو ينشرها فيتمتع مع كل ذلك بسعادة تأتيه من أن يكون محوراً لحديث الناس وثناء بعضهم ونقد بعضهم وهكذا .

وليست العملية على هذا النحو من التبسيط ولا الترتيب ، ولكنها على كل حال تمر بهذه المراحل على سبيل الموالاة أو التراخى وبنفس الترتيب أو من دونه .

وقد يحدث أن يقترح صديق أو زميل على صاحب التجربة أن يسجلها ، وقد يحدث أن يعهد صاحب التجربة إلى واحد ممن لهم القدرة على الكتابة ليتحدث بضميره ، وقد يحدث أن يمسك صاحب التجربة العصا من الوسط فيترك لأحد الكتاب التسجيل عنه بحيث تبدوالصورة وقد نُقلت المسئولية الأدبية إلى الكاتب الذى سجل التجربة واستراح منها صاحبها .



الكتـابة دفاعًا عن النفس

ولكن كل هذا لا يتعارض أبداً مع ما نريد أن نقوله من إن الإحساس بالتفرد أو التميز هو العامل الحاسم الأول فى تقديم التجربة الإنسانية إلى القارئ .

ومع هذا فإن ظروفاً طارئة كثيرة قد تكون بمثابة العامل المباشر وراء كتابة التجربة الذاتية ، ولعل أبرز هذه العوامل ما يستثير رجال الحياة العامة من هجوم ضار يتعرضون له على أيدى الآخرين حين يكتب الآخرون تجربتهم . . عند ذاك يجد الطرف الآخر نفسه مسوقاً بغريزة الدفاع عن النفس ليكتب هوالآخر تجربته ، وقد يعطى لنقاط الاختلاف بينه وبين الطرف الآخر قدراً أهم (أو القدر الأهم) من سياق المذكرات أو التجربة الذاتية .

هل يمكن أن نسمى هذه التجربة الذاتية بتجربة « رد الفعل » وأن نسمى النوع الأول بتجربة « الفعل » . . ربما .



الرضـا النفسـى ؟

على أن هناك نوعاً ثالثاً من أصحاب التجربة لا يندفعون إلى كتابتها اندفاعاً ، وإنما يجدون أنفسهم قد فرغوا من الحياة وفرغت منهم الحياة فإذا هم يؤثرون أن يشغلوا وقتهم بكتابة ما حدث لهم ، وفيما هم يكتبون فإنهم يأخذون أنفسهم بالتجديد فيما يكتبون حتى يصلوا إلى ما يرضيهم أو إلى ما قد يرضيهم . . وأغلب هذه التجارب الذاتية الهادئة لا يحظى بالطبع بتفاعل القراء الذين يريدون أن يقرءوا الإنسان فى صورته الدنيوية التى يعرفونها لا فى صورته الملائكية حتى وإن تمنوا الوصول إليها .



الفـكرة المسيطـرة

تتعدد الدوافع إذن إلى كتابة التجربة الذاتية ولكن يبقى هناك إحساس قوى وواضح بفكرة مسيطرة يهدف الكاتب إلى إبرازها بما يكتب . . وبالطبع فقد يفشل صاحب التجربة فى إبراز الفكرة التى يريد إبرازها مما قد يدفع الناقد الحصيف أن يتصنع له القول ، فيقول كأنى بالكاتب يريد أن يقول . . وهنا تبرز الأهمية القصوى للنقد فى تقديم التجربة الذاتية إلى القارئ ، ولهذا السبب فإنى أعتقد أن على صاحب التجربة الذاتية أن يدفع بها قبل الطبع إلى عدد من القريبين منه ممن لا يتمتعون بقدرات الناقد المحترف فإذا وجد أنهم لم يصلوا إلى ما كان يريد تقديمه للقارئ فلا

حرج عليه أن يلجأ إلى أديب أو ناقد يعيد له النظر فيما كتب فينصحه بأن يقدم ويؤخر، أو يضيف ويحذف ، أو يفصّل القول فى موضع ، ويوجز القول فى موضع آخر . . أو أن يترك له كل ما كتب على ما هوعليه ويضيف مقدمة من عنده يقدم بها كاتب التجربة (أو التجربة نفسها) إلى القارئ .



نقد التجربة الذاتية المكتوبة ووظيفته

للنقد إذن وظيفة هامة فى تلقينا وتقبلنا للأعمال الأدبية التى تندرج تحت عنوان « كتابة التجربة الذاتية » ، وربما تفوق وظيفة النقد فى هذا المجال وظيفته فى تقديم الأعمال الروائية أو الشعرية أو القصصية إلى الجمهور . بيد أن قدراً ما من التعاطف البناء لابد أن يتوفر لدى الناقد للتجربة الذاتية ، إذ كيف يمكن للناقد الحانق على صاحب التجربة أن يتلمس له المعاذير فى الموقف الذى يبدوبعيداً عن الأخلاق ؟ رغم أن صاحب التجربة اعترف به فى شجاعة أدبية . . ولهذا فإن الخصومة بين الناقد والكاتب تكون أوضح ما تكون إذا كان العمل الأدبى تجربة ذاتية يتصيد الناقد فيها ما يشاء بدون عناء ولا تنقيب ومن دون جهدٍ يبذله فى إقناع القارئ بما توصل إليه .

خطـورة الانتقـاء

وفى كثير من الأحيان يجد الناقد نفسه مسوقاً إلى أن يسلك سلوك بعض الصحفيين من أصحاب اليوميات فى نقده للتجربة الذاتية بأن ينتقى منها مباشرة موضعاً أو موضعين ويقدمهما للقارئ . . ويعتقد كثير من الأدباء والنقاد وأساتذة الأدب أن مثل هذا العمل ليس بنقد وإنما هو « عرض صحفى » . . ومهما كان الأمر ومهما كانت الأسماء أو الأوصاف فإن ما يعنينا هنا هوأن هذا العرض نفسه نوع من أنواع الانتقاء . . يدل بطريقة مباشرة جداً على إدراك الصحفى الناقد للفكرة التى فى الكتاب فإذا كان هذا الموضع هو ما شد الصحفى أو الناقد الذى اختار أن يسلك السلوك الصحفى فإن لصاحب التجربة بلاشك الأثر الأول فى خلق هذا التأثير ، بما يعنى ضمنا أنه هو المسئول عن ذلك قبل الناقد .



بيد أن هناك استثناءً هاماً من القاعدة السابقة ، لا يلغيها ولكنه قد يؤكدها ، وهوما يحدث حين يعمد الناقد أو الصحفى ذوالمذهب الفكرى الواضح إلى واقعة واحدة

يأتى ذكرها عرضاً فى الكتاب فيبرزها من دون غيرها حين ينقد التجربة الذاتية أو يعرضها ، ويدير حديثه الناقد للتجربة حولها وكأن الكتاب كله لم يكن إلا هذه الواقعة!! وبالطبع فإن جمهور القراء لا يفوتهم إدراك الحقيقة من وراء هذا العرض أو النقد . . وبالطبع أيضاً فإن صاحب التجربة سواء بوعى أو بغير وعى قد أراد لهذه «الواقعة» أن تبرز إلى الوجود على هذا النحوالذى قُدمت به إلى القراء مضخمة على نحوما قد يفعل المحللون النفسيون ، وليس بخاف على القراء أن عرض صحفى كبير جدًا لمذكرات وزير مهم جدًا بهذا الإسلوب كان السبب فى إقالة هذا الوزير يوم صدور كتاب ترجمته الذاتية .



ولهذا السبب فإن المحنكين من كتاب التجربة الذاتية سواء أتتهم هذه الحنكة من سنهم أو من خبرتهم بالحياة أو بالكتابة الأدبية كثيراً ما يتنازلون عن سرد بعض الوقائع المعروفة للكافة لأن سردها فى موضع معين قد يجلب عليهم من سوء الفهم أضعاف ما يجلب لهم من الاحترام أو التقدير .



معايير النجاح

لا سبيل إذن إلى وضع معايير للنجاح أو لاستهداف النجاح فى كتابة التجربة الذاتية على أى مستوى من المستويات ، وإنما هى كما يقول أهل العلم « حالة خاصة » تتعلق بعوامل ذاتية كثيرة ، وبعوامل موضوعية أقل منها أهمية ، وما لم ندرك أهمية الفرد فى المجتمع فلن تكون لكاتب التجربة الذاتية القدرة على تصور ما لما يكتبه من أهمية ، وعندئذ تصبح التجربة الذاتية نوعاً من التقارير الممسوخة التى يؤشر عليها الرئيس الأعلى بالأحمر إشارات سريعة متعجلة توحى بأنه يؤدى دوره ليس إلا .



الخلود هو الهدف الأسمى لكتابة التجربة الذاتية

فى هذا الصدد لابد لنا أن نقارن بين ما نكتبه من « سيرة ذاتية » [الـ C.V.] كمسوغ من مسوغات التعيين أو طلب الوظيفة وبين التجربة الذاتية التى نكتبها من باب الأدب . . فإذا كنا فى الأولى نطلب قروشاً معدودة فإننا فى الثانية نطلب الخلود . . فى الأولى نبحث عن جوانب التميز التى تؤهلنا لشغل كرسى من الكراسى ، وفى الأخرى نتحدث عن جوانب التميز التى أهلتنا للارتفاع بهذا الكرسى إلى درجة التميز . . فى

الأولى نعد بأن تكون الأنسب أو نبرهن على ذلك وفى الأخرى نبرر ونحلل كيف كنا الأنسب حتى ولومن وجهة نظرنا وحتى لو اعتذرنا فى تواضع واعترفنا فى شجاعة أدبية بأننا كنا مخطئين .



هل لكتابة التجربة الذاتية وظيفة أخلاقية

يبدو هذا السؤال منطقياً جداً إذا ما تناولنا الوظيفة الأخلاقية لأشكال الأدب المختلفة وتبدو الإجابة عليه بالإيجاب هى الأنسب لأسباب كثيرة ليس القارئ فى حاجة إلى إعادة سردها وتكرارها عليه . ولكن السؤال الجدير بالطرح هنا هوهل يمكن للتجارب الشريرة أن تكون ذات فائدة أخلاقية ؟ هل يمكن للقارئ أن يفيد من قراءة تجربة زعيم متهور قاد بلاده وجيرانه إلى الدمار تحت أى دعوى ؟ هل يمكن للقارئ أن يفيد من قراءة تجربة فنان قادته بوهيميته إلى كثير من الأخطاء التى أثرت عليه هو نفسه بالسلب حين انتهك قواعد الطبيعة والمجتمع ؟

قد يعتقد القارئ أن المجتمع الإنسانى قد بلغ من الرشد الآن ما يستطيع أن يميز به بين الجوانب المختلفة للشرور ، وأن يتلمس الحقائق وسط ركام الادعاءات ولكنى مع هذا أبقى على احترامى لآراء الذين يؤجلون الانفتاح على الحقائق المرة إلى سن الرشد مثلاً . . وأستطيع أن أذكر للقارئ بوضوح وشجاعة أن تربيتى الأولى والثانية والثالثة ومهنتى وثقافتى بمعنييهما العريضين تدفعنى إلى التزام الجانب الأخلاقى فى كل ما يتصل بالأدب والفن إلى أبعد الحدود الممكنة ، من دون أن يدفعنى هذا الموقف الشخصى إلى أن أعيب أو أن أنتقد مواقف الآخرين أو أن أقلل من إيمانهم بحرية الإبداع أو حرية الفنان .

ومع هذا فإننى لابد أيضاً أن أعترف للقارئ أننى أفدت من التجارب الشريرة التى قرأتها إفادات عديدة كان من أهمها تأكيد الاعتقاد فى الخير وفى كل القيم النبيلة ، وأود أن أعترف كذلك أننى لم أحس ولو للحظة بالانتشاء من الشر الذى توارد عرضاً فى أى من هذه التجارب التى طالعتها . .



مكانة الذات فى التجربة المكتوبة

تعنى كتابة التجربة الشخصية أساساً بنوع من تمجيد الذات التى انتصرت أو التى حققت النجاح أو التى قاومت المحنة حتى استطاعت التغلب عليها ، وصاحب

التجربة الذاتية يعمد إلى أن يضع تجربته فى موضعها المناسب من وجهة نظره من نسيج الحياة فى مجتمعه أو أمته . . وقد يبالغ صاحب التجربة الذاتية فيخرج بها بدءاً من عنوان عمله الأدبى عن الذاتية إلى العمومية ، ويحدث هذا كثيراً مع السياسيين والقريبين منهم ، فيجعل من الحديث عن الموضوع التاريخى مجالاً منفسحاً للحديث عن النفس التى أدارت المعترك حتى جعلته ينتهى بهذه النتيجة . وعلى الرغم من تنامى الفرصة لبزوغ خلق النرجسية فى مثل هذه الأعمال الأدبية إلا أن القارئ كثيراً ما يأخذ هذه الكتابات بنوع من القبول يفوق قدر التحفظ الذى يظن الناقد أن القارئ سيبديه تجاه هذه الأعمال ، إذ إن القارئ بحكم طبيعته البشرية يقدر أن صاحب التجربة يكتبها ليبرز دوره على حساب الآخرين ، بل وقد يسمح القارئ للكاتب أن يتجاوز الحقيقة فى ظل سعيه الحثيث إلى تقدير الذات .

ولهذا السبب فأنت ترى القراء يتحادثون فى تقييمهم للأعمال الأدبية فى هذا المجال بأقوال من قبيل إن الكاتب قد تجاوز المعقول فى تقديره لدوره ؛ وكأنما هناك حد معقول لإبراز فضل النفس يصبح تجاوزه محل نقد، على حين يظل الالتزام بحدوده مقبولاً عند الناس .

وليس من شك أن قدرة القارئ على اكتشاف « وجه الحقيقة » و« نسبة الحقيقة » فيما يقرأ من خلال التجربة الذاتية ترجع إلى عوامل كثيرة منها « المعاصرة » بلا شك ومنها عامل آخر يأتى قبل المعاصرة ، وأقصد به ما يعبر به الكاتب نفسه غير واع عن الحقيقة التى يحاول تضخيم بعض جوانبها على حساب البعض الآخر .



النسبة والتناسب

ولعل أقرب نموذج يصور لنا هذا المعنى هو الرسوم الكاريكاتيرية التى كثيراً ما تتجاهل النسب الحقيقية لأعضاء جسم الإنسان الذى تصوره . . وعلى الرغم من ذلك فإن أحداً لا يتصور أبداً أن شخصًا ممن تتناوله الرسوم الكاريكاتيرية يتمتع برأس يمثل حجمها سبعين فى المائة من حجم جسمه أو ثلاثة أضعاف هذا الحجم . . وقل مثل هذا بالضبط فى فهم الأدوار التى يعطيها كتاب التجربة الذاتية لأنفسهم عند كتابتهم لتجاربهم . . وهكذا يمكن القول بأن غريزة القارئ وخبرته بطبائع الأشياء كفيلة بأن تقوم للقارئ بدور الناقد .



ومع هذا كله يتبقى لكتاب التجربة الذاتية هامش عريض جداً من اختلاق المواقف واصطناع البطولات والإيحاء بالمثالية من دون أن يكون عند القارئ أو الناقد الأدلة المادية التى يستطيع أن يناقض بها فى التو واللحظة ما يجد من وقائع مسطورة ، ولكن هذا لا يعنى بحال أن ضمير المجتمع قد تقبل هذه الأكاذيب ، فإن طبيعة التاريخ الطبيعى للحياة والأحياء تأبى أن يثبت الزيف مهما كان خادعاً .

قيمــة الصــدق

ولهذا فإن النصيحة الغالية التى لابد أن يتلقاها كل كتاب التجزبة الذاتية من الحياة قبل أن يتلقوها من الحكماء أو النقاد هى التزام الصدق إذا ما أرادوا لأعمالهم الخلود والحياة المتجددة .

أما ما يتنازع النفس البشرية من الخجل تجاه مراحل معينة من الحياة مرت بها أو أمام مواقف محددة اضطرت إليها فى يوم من الأيام فإن المجال واسع أمام تخطى هذه المراحل أو المواقف إذا لم تكن عند صاحب التجربة الذاتية الرؤية القادرة على وضع كل خطوة فى موضعها الصحيح من المشوار الطويل .

ولا شك أن الانتصار على الضعف البشرى يمثل درجة رفيعة من التسامى البشرى فى تكوين الشخصية الجديرة بالاحترام ، ولكن الجانب الآخر للقضية يتمثل فى أن الذوق العام قد لا يكون قد وصل إلى الدرجة الرفيعة المقابلة من المقدرة على فهم التسامى ، عندئذ يصبح كاتب التجربة الذاتية فى حاجة إلى درجة مضاعفة من الشجاعة لينتصر على نفسه أولاً ثم ليأخذ بيد المجتمع فى الانتصار على رؤاه السابقة ، ومع هذا فإنه يظل عرضة للفشل والإخفاق فى الحالين ، ولكن نجاحه فى النهاية سوف يكون مدوياً وربما يكون بمثابة الركن الضخم فى بناء مجده الأدبى .

المفتــاح الأول

ويقودنا التأمل فى حياة الأدباء والمفكرين المعاصرين والسابقين عليهم إلى أن كتابة التجربة الذاتية مثلت دوماً حلقة من حلقات التقدير والتقييم الخالد لمجمل إنتاجهم الأدبى ، بل ربما أصبحت بمثابة المفتاح الأول إلى قراءة أعمالهم الأخرى فى سهولة ويسر .



ومع هذا فإننى فى كل ما كتبت فى هذا الكتاب أتمثل فى المقام الأول ذلك الكاتب الذى هو بين الهاوى وبين المحترف الذى ينزع إلى كتابة تجربة مرت به على نحو أو

آخر . ولكن هذا لا يمنع من تناول القضايا على النحو العام الذى تتوارد به عند فهم هذا الجانب أو ذاك من الموضوع المطروح .



تجربة الحياة مع الآخرين

وحين يكتب المرء تجربته الذاتية فى الحياة مع شخص آخر عزيز عليه كالزوج أو الأب فإنه يكون معرضاً للموقف الذى يتصارع الإيثار فيه مع حب الذات صراع حقائق مع حقائق ، أو صراع وجهات نظر مع وجهات نظر أخرى ، ويصبح صاحب التجربة أكثر استنارة بالجانب الأولى بالسلوك وهو جانب الإيثار حين يجد أن تمجيد الطرف الآخر هو أبلغ تعبير عن الحب أو عن التسامى البشرى بطريقة غير مباشرة ، ويجد صاحب التجربة نفسه وقد اكتسب الاحترام والتقدير بقدر ما بذل من جهد فى الانتصار على ذاته النازعة إلى البزوغ من خلال الحديث عن طرف آخر .

بيد أن السياسى أو الرجل العام على سبيل العمومية لا يستطيع على الإطلاق أن يتخلق بهذا الخلق على الدوام فى معالجته لقضايا خاضها زعيمه ، وحين يكون من الثابت تاريخياً أنه هو الذى دفع بزعيمه إلى الموقف الخاطئ فإننا نجده فى كتابة التجربة الذاتية لا يستنكف أن يدمغ زعيمه بالخطأ وينسب إلى نفسه صواباً لم يفكر هو فيه ، ولا سمع به ، وإنما اتضح قبل وقت قليل من كتابة التجربة الذاتية . . فكأنه يحتكر لنفسه « الصواب التاريخى » مع أنه غير مطالب بهذا لإثبات عظمته ، ولكنه للأسف الشديد خلق سيىء يأبى إلا أن يفرض نفسه على صاحبه حتى نكون كقراء سعداء الحظ باكتشاف صاحب التجربة الذاتية على حقيقته ولا يخفى على القارئ العربى أننا ما زلنا مبتلين بنموذج مكبر من هذا النوع لم ينقطع أبدًا عن استثمار علاقته بزعيمه .



الوقت الأنسب لكتابة الترجمة الذاتية

ومما لا شك فيه أن الفرصة لاستجلاء الحقيقة تتضاعف أمام أصحاب التجارب الذاتية بحيث يصبح الوقت عاملاً مساعداً على وصولهم إلى درجة أعلى من الكمال كلما تأخروا فى التعبير كتابة عن التجربة التى عاشوها . . ومع هذا فإن هذه القاعدة ليست مطلقة إذ إنها تتأثر بما يمكن لنا أن نسميه بظاهرة انتهاء الجيل حين يكتب زعيم تجربته بعد خمسين عاماً من وقوع أحداثها فإذا القراء المتاحون لقراءتها والانفعال بها أناس لم يمروا معه بالتجربة ذاتها على أى مستوى من المستويات ، ويحدث هذا أيضًا

حين يتأخر نشر التجربة الذاتية لفترة طويلة ولعلى أذكر القراء بما لم تلقه مذكراته الخديوى عباس حلمى الثانى ومذكرات فخرى عبد النور من الاهتمام اللائق نظرًا لتأخر نشرها وقتا طويلاً .



ومع هذا فقد تصبح الساحة خالية تماماً وأبدًا أمام الكتاب المعُجزين الذين يتجاوزون حاجز الزمان فيما يكتبون من تجربة تتناول أعماق الشعور الإنسانى وخفايا النفس البشرية ، ولكن هؤلاء يظلون ندرة نادرة لا ينبغى أن يقاس عليها أو أن نطالب كل من يكتب تجربة أن يحذو حذوهم تماماً .

الصراع بين الحرية والدقة فى كتابة التجربة الذاتية

وبقدر ما تتجلى قدرة كاتب التجربة الذاتية على التعبير الحر بقدر ما تتضاءل قدرته على التعبير الدقيق ، وكاتب التجربة الناجح هوالذى يستطيع أن يوازن بين الجانبين من الالتزام الدقيق، والحرية المثمرة بحيث تكون التجربة المقدمة للناس قابلة للقبول بقدر ما هى قابلة للقراءة ، وقابلة للتصديق بقدر ما هى قابلة للتوثيق .

ولا ينبغى لنا أن نغفل عن الإشارة إلى ضرورة اتباع منهج واضح فى سرد التجربة بحيث لا تصبح التجربة المكتوبة مجرد أصداء متناثرة لانطباعات عابرة لصاحب التجربة أو لكى تصبح التجربة المكتوبة كلا متكاملاً متناسق الأجزاء والتكوينات عن وعى بحيث لا تكون أقرب إلى الانطباعات المتباعدة التى قد تكون فكرة عن تجربة ولكنها لا تكون صورة كاملة لتجربة .

كأنى أريد أن أقول إن كاتب التجربة مطالب بأن يقدم لقارئه عملاً متكاملاً من الفكرة والتناول الجاد للفكرة كلها بحيث يكون مسئولاً أمام نفسه عن التجربة التى يقدمها .



وليس هناك خط فاصل بين التجربة الذاتية المعترف بها وبين أخرى لا ترقى إلى درجة الاعتراف ، ولكن أصول الكتابة الأدبية تقتضى الناقد ـ بحكم الصنعة كما يقولون ـ أن ينتقد الكتابات التى لا يتضح عند صاحبها تقديره لذاتية العمل الذى يكتبه .

إن « الذاتية » التى فى التجربة تحول بينها وبين أن تسمح لنفسها بالتهويمات التى قد نتقبلها فى المعانى غير المحددة حين نتناولها فى أشكال أدبية محددة أو غير محددة .

وليس أخطر على التجربة الذاتية من الاعتقاد بأنه يجوز لكاتبها أن يتجاوز حدود الالتزام بالتحديد الواضح جرياً وراء الخيال اللامتناهى .



الصدق الفنى والصدق التاريخى مرة أخرى

وينبغى لنا أن نكون واعين تماما للفرق بين الصدق الفنى والصدق التاريخى فعلى حين أنه قد يمكن لنا أن نتجاوز عن عدم التزام كاتب التجربة بالصدق التاريخى فى بعض الأحيان نظراً لرغبته فى التخلص من موقف ما لا يراه جديراً به اليوم ، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاوز للمؤلف أو عنه حين نراه يضرب بالجو العام للأحداث عرض الحائط ، رافعاً فى وجهنا الاعتذار أو التعلل بأنه يخلق جواً كالجو الذى يخلقه الروائيون فليس هذا من حقه على الإطلاق، وهو يتناول تجربة ذاتية من المفروض أنها واضحة الحدود والمعالم .

إن الخيط الدقيق الذى يفصل « التجربة الذاتية » عن « الرواية التى تروى قصة تجربة ذاتية » يكمن أساساً فى هذا الالتزام الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة ، فعلى حين يمكن للأديب أن يروى ما حدث له على أنه حدث منذ مائة عام فإن ذلك لا يجوز لكاتب التجربة الذاتية الذى قدم عمله الأدبى لنا على أنه يحكى شيئاً معيناً فى زمن معين وظروف معينة . وعلى حين أن فى وسع الروائى أن يخرج بالمكان الذى شهد وقائع القصة الأصلية التى هى نواة روايته إلى مكان آخر ، فإن هذا الحق ليس متاحا لكاتب التجربة الذاتية . . وعلى حين أن فى وسع الروائى أن يخلق شخصيات تلعب أدواراً تمثل الصراع المطلوب فإن هذا الحق ليس متاحاً على الإطلاق لكاتب التجربة الذاتية . . . وهكذا .



تكاد التجربة الذاتية أن تكون شعرًا

وعلى النقيض من هذا فإن كتابة التجربة الذاتية تكاد تقترب من الشعر فى أنها تتولد نتيجة الانفعال وتتأثر بالعاطفة إلى حد بعيد ، وحين يضخ كاتب التجربة الذاتية شعوره كله بحماس وتدفق فى التجربة التى يقدمها لنا فإنه يكاد يكتب الشعر، وفى بعض التجارب المنشورة فى أدبنا العربى نرى العاطفة تتصاعد إلى الحد الذى يخرج صاحب التجربة عن إطار النثر إلى الشعر فى أثناء السرد فلا تحس أنه يستشهد أو يروى أبياتاً قالها فى أثناء ذلك الحدث الذى يتناوله حتى وإن كان يفعل ذلك ، وإنما تحس أن النسيج متكامل ومتصل بألوانه المختلفة .

ويذكرنا هذا بأن بعض القصائد الطوال فى أدبنا العربى على مدى تاريخه كانت تعبر بطريقة مباشرة عن تجربة ذاتية مباشرة حفلت بالحديث الصريح عن أسماء المشاركين فيها بل ربما تقودنا الدراسة الجادة إلى أن التجارب الذاتية فى الأدب العربى بدأت متخذة شكل الشعر ثم وصلت إلى الصورة التى نطالعها اليوم .



دور الخيال فى كتابة التجربة الشخصية

ما هو بالتحديد دور الخيال فى كتابة التجربة الشخصية ؟ هل دوره أن يبعث الحياة فى الوقائع التى حدثت فى الماضى فتبدو و كأنها حدثت الآن؟ وأن يصور لنا البيئة والظروف التى شهدت ما يرويه صاحب التجربة تصويراً يجعلنا نعيشها تماماً لنتفهم ما يرمى إليه صاحب التجربة من تصوير حى لتجربته وسلوكه تجاهها ؟ أم إن دور الخيال يتعدى هذا الشأن لينمى لنا هذا الإحساس فى الاتجاه الذى يريده؟ أم إن الخيال الحقيقى يقتضى صاحب التجربة أن يبتعد بها عن الحقيقة التى عاشها إلى الإحساس الذى تخيله مرتبطاً بما حدث له أى أن يعيش لنا أحلام اليقظة التى عاشها أو التى يهيأ له الآن أنه كان ينبغى عليه أن يعيشها فى تلك اللحظة كأحلام يقظة كفيلة بتحقيق السعادة له .

كل هذه وجهات نظر لم يعبر عنها أصحابها صراحة لأنهم لم ينظروا لكتاباتهم ولكن الكتابات التى طالعناها هى التى عبرت عن هذه المعانى والاتجاهات فى توظيف الخيال فى كتابة التجربة الذاتية .

وليس هذا مجالاً لاستعراض مناهج كتاب الترجمة الذاتية فيما كتبوه ولكننا لانستطيع أن ننكر أننا ملتزمون بسبيل رسم الإطار العام لتجربة من سجلوا تجربتهم ، ونحن نتأمل موقفهم من الخيال وتوظيفه فى الحديث عن الحقيقة .



توظيف الخيـال

ومن الظلم لكتاب الترجمة الذاتية أن نحرمهم من استغلال الخيال حسبما يشاءون، ولكن الخيال نفسه لا يحتمل أن يوظف بخيال أكبر منه ، فلابد من الاقتصاد فى توظيفه إلى الحد الذى يجعله جزءاً مكملاً للحقيقة لا شيئاً آخر منفصلاً عنها .

وقد يحدث أن روائياً يلجأ إلى حياته ليسجلها ولكنه ينسى فى ثنايا روايته أنه يكتب رواية فإذا هو يترك الرواية ليعود إلى الواقع فى صورة أسماء حية لنجوم المجتمع الذى

يعيشونه الآن ويعيشه معهم الناس ، ثم يدفع بالرواية إلى المطبعة وإلى الجمهور على هذا النحو بدون مراجعة ، عند ذاك نجد الرواية وقد انتابها الميل الشديد إلى أن تكون تجربة ذاتية لا رواية لتجربة ذاتية ، ويبدو أن بعض الذين يكتبون تجاربهم الذاتية يجدون أنفسهم مدفوعين فى الاتجاه المماثل إلى أن يخرجوا من الحياة إلى هامشها وأن يعبروا عن أمنياتهم فيما مضى بدلاً من أن يعبروا عن واقعهم فيما مضى .

ولكن صاحب التجربة الذاتية الناجح هوالذى يستطيع أن يضع الأمنية فى محلها الصحيح من الواقع فيرتفع بقدر نفسه حتى لوكان الإحباط قد أصابها ، إذ ما هو العيب فى أن يسعى الإنسان لإدراك النجاح بكل ما أوتى من قوة وعزم وتصميم ولكن الرياح لا تأتى بما يشتهى السُّفِن ؟



وفى تجاربنا الذاتية جميعاً قدر كبير من ذلك الصراع الواضح مع الواقع ، ومع المستقبل الذى يكاد يكون واقعاً ، وعلى قدر ما نبذل من جهد فى محاولة تغيير المستقبل يتحقق لنا رضا نفسى عميق ينقذنا من الإحباط حين نواجه ما لا نبتغى مواجهته ، أوحين نقابله فى منتصف الطريق ونحن سعداء بأن الله قدر ثم لطف بنا فى قضائه وقدره ، وعلى هذا النحويستطيع كاتب الترجمة الذاتية أن يأخذ بيد قارئه وهويواجه معه ما واجه من أحداث فيجد البطل الذى هوالكاتب يمثل قمة قادرة على التصدى للأمواج وليس مجرد الانحناء أمامها . وحتى حين ترتفع الأمواج بالبطل فإن ذلك سيبدو أمام القارئ انتصاراً لكاتب التجربة وليس توافقاً مع الأمواج .



ومن المؤسف أن تجد كثيرين من الذين يكتبون تجاربهم الذاتية يُعلون من شأن الحظ سواء فيما أفادهم أو فيما أصابهم فى مقتل، بينما تتنامى الأحداث التى تبدو خفية فيما يروونه لنا بحيث تؤدى إلى النتيجة التى يريدون أن يصوروها لنا على أنه حظ فحسب .

وإذا استطاع كاتب التجربة الذاتية أن يجعلنا نتنبأ بما سوف يوالينا به من فيض الوقائع التى تعترض تجربته المثمرة فإنه يكون قد تنازل لنا عن سر من أسرار الصياغة ، ولكنه فى الوقت نفسه يكون قد قاربنا من نفسيته إلى الحد الذى أشركنا فى خلجاتها ، ولكن هذه القدرة لا تتأتى إلا للذين يلتزمون معنا فيما يكتبونه لنا بالصدق المطلق الذى يصل ما بين أعماق نفوس الكاتب والقراء برباط وثيق غير مرئى ، ولكنه يضىء النور لأعيننا لتدرك حقائق واضحة جداً فى غرفة مظلمة جداً .

ظلـم النفـس

ومن العجيب أن بعض الناس يظنون عن أنفسهم أشياء غير الحقيقة لسبب أو لآخر ويظلون يصورون أنفسهم فى كتاباتهم لنا عن أنفسهم على هذا النحو، وهو تعسف ظالم للنفس لأن لكل نفس كما نعلم جوانبها المختلفة حتى فى إطار الخُلق الواحد الذى قد يبدو مسيطراً عليها فى كثير من الأوقات، ومن اليسير أن يتصور الإنسان شخصية تاريخية على نحو معين ، وأن يبنى حكمه عليها من هذه الوجهة . . ولكن من التعسف غير المقبول أن يفعل الإنسان بنفسه مثل هذا ، وهوالذى عايش تلك النفس فترات طويلة من الحياة ، ولكن يبدو أن بعض أصحاب التجارب يستهويهم ذلك النوع من التركيز والبلورة ويظنونه نوعاً من القدرة القادرة على الصياغة المثلى لحيواتهم التى يتناولونها فيما يكتبون لنا من تجربة ذاتية .

الأسرار الشخصية

ويبدو أنه ينبغى لكاتب التجربة الذاتية أن يتنازل بعض الشىء عن وعيه ليفسح المجال أمام ما تحت الوعى ليكون أكثر صدقاً فى تعبيره عن تجربته للقارئ .

هل ينبغى لنا أن نطلب إلى كتاب التجربة الذاتية ألا يبخلوا علينا بأى جانب من الجوانب التى تلقى الضوء على ما يريدون لنا أن نراه ؟

هل هناك اتفاق عام يسمح لكاتب التجربة أن يغفل الحديث عن شىء ؟ تحت مسمى الأسرار المقدسة أو الحياة الخاصة ؟ بالطبع فإن الأعراف السائدة فى مجتمع ما هى الكفيلة بتحديد مثل هذا المفهوم للحدود الفاصلة بين ما هومتاح للتناول على المستوى العام أو العلنى وبين ما ينبغى الاحتفاظ به فى نطاق الأسرار الشخصية .

وتبرز هذه القضية بوضوح شديد فى قضايا الغرام العاطفى والجنس الذى لاتزال مجتمعات كثيرة تحس حرجاً واضحاً فى الحديث عنه بطريقة مفتوحة ، ومع هذا فإنه يمثل فى رأى علماء النفس والمحللين النفسيين جانباً على قدر كبير من الأهمية فى فهم خبايا النفس البشرية .



ومع هذا فإن الحياء نفسه يكشف لنا عن جانب مهم فى الشخصية التى يظهر الحياء واضحاً فى كتابتها لأنه قد يعبر عن حياء حقيقى أو عن رغبة فى اصطناع الحياء، ويمكن بالطبع للقارئ الخبير أن يميز فى سهولة ويسر بين الحالين وبين أحوال أخرى شبيهة .

وليس من الصعب أن يعبر الإنسان عن مدى وجده الشديد من دون أن تؤخذ عليه كلمة واحدة تمس الأخلاق المحافظة ، ولكن الصعب حقيقة هو القدرة على خلق جو اللذة الحسية من دون التطرق إلى بعض ما يجلب الإثارة ويستثير الشجن ، وحين تكون التجربة التى مر بها كاتب التجربة الذاتية مادية الوقائع فإن إغفال بعض الجوانب الهامة قد ينقص من التصوير الدقيق لما يبتغى صاحب التجربة أن يعبر لنا عنه فى وضوح ، ومع هذا فإن طائفة كبيرة من الأعمال الناجحة فى مجال كتابة التجربة الذاتية بمقياس النقد قد تجنبت تماماً الحديث عن الجنس من دون أن يبدو أن نقصاً شديداً قد اعتورها فى التعبير القادر على استجلاء خفايا النفس البشرية وتجربتها الواضحة فى الحياة . وقد تعرضت لهذه القضية ـ منذ قليل ـ من زاوية أخرى تحت عنوان « مأزق الالتزام الخلقى » وأظننى فى الحالين قد عبرت عن منهج واحد .



ولكن جانباً آخر من هذه القضية كثيراً ما يواجه القارئ والكاتب بنفس القدر من الأهمية ، ويبرز هذا الجانب حين يرى الكاتب نفسه غير قادر على أن يخرج من أسر الحب إلى موازين التقييم الدقيقة ، وحين يطغى شعور معين على موضوعية كاتب التجربة بحيث يسلبه القدر المعقول على التقييم الصائب أو الدقيق للقضية التى يعالجها فى إطار تجربته الذاتية فيكشف لنا عن تجربة ذاتية أعمق من تلك التى يعالجها على السطح . . بحيث يدلنا من حيث لا يدرى على جانب أعمق فى حياته .

ذلك أن جوهر المعتقدات الشخصية تجاه القضايا الإنسانية التقليدية يظهر بوضوح فى سلوك الكاتب تجاه المواقف التى طرحت نفسها عليه طيلة فترة التجربة التى عاشها ، والتى يصورها لنا فى الكتابة التى يقدمها إلينا ونطالعها له بكل تأمل .

ولست فى حاجة إلى أن أذكر القارئ بأن التجربة الشعورية التى تواكب التجربة الذاتية التى يقدمها لنا الكاتب هى الحجر الرئيس الذى يجعلنا نحكم على التجربة الذاتية التى أمامنا بالانتماء إلى عالم الأدب ، وإلا فإنها ستصبح شيئاً آخر لا ينتمى إلى الأعمال الأدبية فى وضوح ، حتى وإن انتمى إلى الأعمال الكتابية .



تجنب المباشرة

إذا قدر لك أن تسأل عدداً من دارسى الأدب ونقاده عن أهم شيء ينبغى لكاتب التجربة الذاتية أن يتجنبه ، وهويكتب هذه التجربة لكى يحقق النجاح إذا كان ينشده

فعلاً ، فاعتقد أنهم سيدلونك على انتفاء القصد المباشر ، كأن يبرئ نفسه من واقعة أمام التاريخ أو من انتساب معين . بل إن تمجيد الذات قد يكون من أدعى الدواعى إلى تحقيق الفشل لمثل هذا العمل الأدبى . . وعلى اليد الأخرى تبرز عوامل كفيلة تماماً بنجاح كتابة التجربة الذاتية. كالحديث عن الحبيب أو الشريك حين تتجلى أخلاق الإيثار على أنصع ما يكون ، يقودها الحب وتغذيها الذكرى ، وينتعش بها القلم فى وضوح وقوة .

على أنه ليس هناك ما يضمن أن تكون هناك نسبة وتناسب بين نبل الدوافع وقدر النجاح إذ تتداخل عوامل أخرى لصياغة النجاح والقبول فى الأعمال الأدبية كما نعرف جميعاً .

ومع هذا فقد يكون الحب الذى لم يلق قدراً من إجادة التعبير عنه عاملاً من عوامل الفشل الأكيدة للتجربة الذاتية حين تتناولها أيدى القراء . ولا يخفى علينا أن الكتابة نفسها قد تكون نوعاً من الحب لشخص ما لا يقل تعبيراً عن الكتابة عنه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .



أهمية اختيار عنوان المذكرات

يمثل عنوان المذكرات تحديا واضحاً وصعبا أمام كل من يكتب مذكراته، كذلك يعكس العنوان الذى يستقر عليه المؤلف كثيراً من ملامح فكره وتفكيره ، وعلى صعيد ثالث فإن كثيراً من العناوين تتميز بقدرة رائعة على إعطاء الإيحاءات المتعددة .

انظر مثلا إلى عنوان مذكرات علاء الديب « وقفة قبل المنحدر » إنها قد تشى بإقدام المؤلف على مرحلة أكيدة من الاكتئاب الذى يستشعره صاحبه قبل أن يصاب به ، كما أنها قد تعبر عن موقفه ونظرته إلى مستقبل الحياة فى مجتمعه . . ولا تخفى على القارئ معان أخرى كثيرة يمكن أن يوحى بها مثل هذا العنوان . .

كذلك يوحى عنوان مذكرات الدكتور الربيعى بمعان مختلفة وإن كانت كلها تدور حول معان متقاربة ، أما العنوان الذى اختاره فرغلى باشا « عشت حياتى بين هؤلاء » فيوحى ضمن ما يوحى بالاعتزاز والفخر.

ويوحى عنوان كتاب عبدالله عبدالبارى باعتزازه بالعمل فى الصحافة وحرصه على الانتساب إليها كرجل قد وصل إلى المكانة الأولى بين رجال الإعلام فى الوطن العربى وهكذا جاء عنوان كتابه تعبيراً مباشراً عما أراد أن يعبر عنه قبيل تقاعده بقليل حين

تقدم وهو رئيس لمجلس إدارة الأهرام ليكون عضوا تحت التمرين فى نقابة الصحفيين تمهيداً لاكتساب هذه العضوية بعد عام أو عامين .

كذلك فإنى أحب أن أكرر هنا ما ذكرته فى كتابى مذكرات « الضباط الأحرار » من أن خالد محيى الدين باختياره عنوان « والآن أتكلم » بدا وكأنه كان اللاعب الوحيد الذى يملك الأوراق الكفيلة له بأن يكسب ، أو كأنه قد حان الأوان أن يتكلم بعد صمت طويل . . كذلك فإن العنوان الذى اختارته دار الزهراء العربى لمذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف يمثل نوعاً آخر من العناوين التى تختزل الحياة كلها فى لحظة واحدة ، وربما يكون الفن وراء مثل هذه العناوين متغلبا على الحقيقة ، وربما لذلك يظلم الحياة التى يقدمها كتاب الترجمة الذاتية نفسه . أما عنوان كتاب « ميلاد حنا » فينبئنا إلى أى مدى أثرت تجربة الاعتقال والسجن فى نفسيته إلى الحد الذى جعلته دائم الحديث عنها والبدء بها !!



دور النشر فى تقديم التجارب الشخصية

وللناشر دور كبير فى تقديم المذكرات فى الصورة التى يقبلها القارئ حين يتناول كتاب المذكرات من فوق رفوف مكتبة ما ، فالناشر مسئول فى الغالب عن طريقة التقديم كلها بدءا بحجم الكتاب وغلافه والعناية بطباعته وتصحيح النصوص . . الخ . . وكثيراً ما يكون الفضل فى انتشار كثير من كتب المذكرات راجعاً إلى الناشر، وكثيراً ما يكون هذا نتيجة إيمان الناشر بافكار سياسية « حادة أو متعقلة » وهو يرى أن نشره للكتاب وسيلة فعالة للنجاح فى نشر هذه الفكرة التى يؤمن به ، ومع أننا لسنا بصدد الحديث عن تاريخنا المعاصر فإن جانباً كبيراً من الفضل فى إعادة كتابة هذا التاريخ يعود إلى الناشرين .



وعلى الرغم من أننا نعمد فى نقدنا إلى النصوص نفسها فإننا لا نهمل الطريقة التى ظهرت بها النصوص ، ذلك أن العناية بالنصوص تضيف إليها قوة كبيرة ، من ناحية أخرى فإن إهمال النصوص ينقص من قيمتها ومن قيمة تأثيرها واحترامها ، بل ويكاد يؤذيها أذى كبيراً .



أهميـة الغــلاف

ويأتى الغلاف فى مقدمة العناصر التى تنبئ باهتمام الناشر والمؤلف بالكتاب ، ومما يؤسف له أن هذا الجانب ما يزال ضعيفًا جدًا ، وكأن الفن التشكيلى غائب أو مغيب فى بلادنا ذلك أن نسبة كبيرة من أغلفة كتبنا تغفل الاهتمام بهذا الفن حتى الآن ، ومع هذا فقد حظيت كتب السير والمذكرات أكثر من غيرها بالاهتمام فى هذا المجال ، وقد أبرزت هذا الاهتمام فى كل كتاب تعرضت له بالعرض والنقد والتحليل .

ويهمنى هنا أن أطلب إلى القارئ أن يراجع فى كتابى «مذكرات الضباط الأحرار» ملاحظاتى التى أبديتها عن غلاف مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف وعن غلاف مذكرات خالد محيى الدين على سبيل المثال ، وبنفس القدر من الاهتمام أرجو القارئ أن يطلع على ما كتبته عن غلاف مذكرات الدكتور ثروت عكاشة فى كتابى عن «مذكرات وزراء الثورة» .

وليس هناك حد أدنى أو أقصى أو حد أيمن أو أيسر لمعايير النجاح فى تقديم الغلاف، إنما هو الفن والفن وحده ، وبقدر ما تكون الفرصة متاحة أمام التجربه فإنها متاحة أمام التأثير وأمام التعبير كذلك .

الباب الثانى

مذكرات الهواة والمحترفين



الفصل الأول

مواقف مع الطب النفسى فى مصر

للدكتور جمال ماضى أبو العزايم

(١)

هذه مذكرات من نوع فريد ، و قد نلام حين نتسرع فنسميها مذكرات مهنية ، ومع هذا يبقى لهذا التسرع فضل كبير فى إجادة الوصف وفى إجادة التوصيف ، فالدكتور أبو العزايم وهو واحد من كبار أطباء النفس ومشاهيرهم أيضا يقدم لنا فى هذه المذكرات تاريخ ممارسته لهذا الفرع المهم من فروع الطب ومن فروع المعرفة ، وهو لايعنى فيها يقدمه عبر صفحات كتابه الكبير إلا بالجانب المهنى من حياته . . وهو لهذا يبدأ هذا الكتاب بسرعة شديدة فنفاجأ بالستار وهو ينفرج عن طالب متفوق فى البكالوريا تتحكم فيه الحيرة التقليدية بين الطب والهندسة فإذا به يرى فى منامه رؤيا يفسرها له جده الإمام أبو العزايم على أنه سيلتحق بالطب ، ويتخرج صاحب التجربة فى كلية الطب بعد سطر واحد فقط من انتهاء تفسير الرؤيا . . وعلى هذا النحو سنجد الكتاب كله منتبها كل الانتباه إلى جانب واحد فقط من حياة صاحب التجربة ، هو بعض ذلك الجانب المهنى البحت من هذه الحياة العريضة الطويلة المثمرة .

وقد كان فى وسع الدكتور أبو العزايم أن يعطى لكتابه هذا مذاقا أكثر روعة لو أنه ترك نفسه على سجيتها تملى ما تشاء من دون أن يلتزم بهذه الفصول التى هيىء له أن وجودها على هذا النحو المتوالى قد يصنع كتابا يوازى فى عظمته عظمة حياته نفسها .

وهذا الكتاب على الصورة التى يطالعها القارىء يكاد يكون نموذجا لمعاناة القارئ من

* نشر فى مجلة عالم الكتاب .

التشتت بسبب انصراف المؤلف إلى ماقد يظن أنه نوع من الإحسان إلى القارىء بتقسيم الكتاب على هذا النحو ، ذلك أننا كقراء نريد أن نقرأ قصة حياة متواصلة ومتصلة ولسنا فى معرض البحث عن موضوعات منفصلة عن بعضها فى فصول متوالية من مرجع علمى ، كأنى أريد أن أقول إن القراء -وأنا منهم - يريدون من الترجمة الذاتية شيئا شبيها بما يصفه نقاد الشعر حين يحدثوننا عن أنه لايجوز أن تظهر القصيدة على صورة تسمح بإحلال البيت العاشر محل البيت الخامس، إنما ينبغى لها أن تظهر مرتبطة ومرتبة على النحو الذى يجعلنا نبحث عن البيت الخامس ولا نقبل بديلا لهذا البيت ليتموضع فيما بين البيتين الرابع والسادس.

هذا هو المعنى الذى ينبغى لنا أن نتنبه إليه أو بعبارة أدق إلى افتقاده فى كتاب الدكتور أبو العزايم ، وهو المعنى الذى لابد أن يفيد منه كل من يقدم على كتابة تجربته فى المستقبل.

(٢)

يبدأ الفصل الأول بعد المقدمة القصيرة التى أشرنا إلى أهم محتوياتها فى الفقرة الماضية فإذا بنا أمام لغة الموظفين إن جاز هذا التعبير ، فأبو العزايم يبدأ السطر الأول من الفصل الأول من كتابه بأن يقول إنه عين طبيبا بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية يوم ٧/ ٧ / ١٩٤٣ ولايذكر لنا ما الذى دفع به إلى هذا التخصص ولا إلى هذا المكان وهو يردف فيذكر أن طريقه كان مليئا بالمخاوف والأخطار الغريبة التى طالما سمع عنها من الأصدقاء والتى أخذت تتراءى أمام ناظره . . ومع هذا فإن أبو العزايم لا يبرر لنا هذا الخوف برغبة كانت تستبد به إلى المضى فى هذا التخصص . . وكأنه يريد أن يوحى لنا من حيث لا ندرى ومن حيث لا يدرى هو أيضا أنه عين فى هذا المستشفى على كره منه أو برغم إرادته . . وليس من شك أن هذا الكتاب يحتاج إلى قدر آخر من التفصيل فى تناول أبو العزايم لبدء رحلته الطويلة والمباركة مع الطب النفسى.

ومع هذا فلنمض مع المؤلف فيما يضعه بين أيدينا . . أى بعبارة أخرى فلنمض مع النص نفسه ، ولندع جانبا ماكنا نتمناه إلى ما نواجهه بالفعل، وهذا هو المؤلف يلخص لنا وبدقة شديدة وبذاكرة قوية ليلته الأولى فى مستشفى الأمراض العقلية فيقول: « ونبدأ المرور وتنضم إلينا رئيسة المستشفى السيدة نعيمة السيسى وإحدى العاملات تمسك بفانوس للإضاءة فى طرقات هذا المستشفى القديم المظلم المخيف حيث لم تكن الطرقات بين عنابر المستشفى المختلفة قد أضيئت بعد ، وأقسام المستشفى متناثرة على حوالى خمسين فدانا وكانت ٣٤ قسما فى ذلك الوقت ، وندخل القسم الأول والمريضات فى حالة هياج شديد وأجد الرئيسة وهى تحمل زجاجة تفوح منها رائحة نفاذة « البرالدهيد » تصب فى فم المريضة قدر معلقة كبيرة بعد أن تطرح أرضا بواسطة ثلاث عاملات ، وتوضع رأسها بين فخدى التى تفتح فمها بوضع

أصبعى السبابة والأوسط عن اليمين وكذا أصبعا اليد اليسرى عن الشمال ويوضع البرالدهيد فى فم المسكينة ، وسرعان ما تبدأ فى الاسترخاء والنعاس والنوم العميق ، ويتكرر المشهد مئات المرات فى الأقسام المختلفة ويسير الركب الحزين بين أقسام قديمة كانت أصوات المرضى مرتفعة فيها عند بدء المرور وسرعان ما أجدها ساكنة هادئة عند الانتهاء من المرور ، ولم تكن بمستشفيات الأمراض العقلية فى هذه الأيام - عام ١٩٤٣ - الأدوية الملطفة والمنومة الأخرى التى استحدثت بعد ذلك وكان « البرالدهيد » هو الوسيلة الوحيدة لتنويم هؤلاء المضطربين وكانت أوضاع المستشفيات العقلية فى كثير من أنحاء العالم على هذا المنوال» .

«وفى اليوم التالى صحبنى أحد الأطباء وأعطتنى الإدارة مفتاحين وأعلمونى أنه من الخطورة أن أفقد المفاتيح ، وإن بالمستشفى مرضى خطرين على الأمن العام ، إذا هرب أحدهم عن طريق هذه المفاتيح فيكون ذلك خطأ كبيرا ، وفى الساعة الحادية عشرة صباحا كنت بأقسام النساء ووجدت الأستاذ الدكتور محمد كامل الخولى وكان مدير عام المصلحة وتعرف على وصحبنى فى المرور إلى داخل المستشفى وتحدث معى عن أهمية غذاء المرضى وقال لى : إن نسبة كبيرة من المرضى يعانون من مرض البلاجرا وإن أهم علاج لهم هو تناولهم الكميات المناسبة من الأغذية ، ربما رفضها المريض لمرضه وهذا يدخل فى مسئولية الطبيب ، وربما يعبث بها المريض وهذا دور يحتاج للعلاج ، وربما يعبث بها المشرفون وهذا أيضا دور رقابى للطبيب . . واسترسل قائلا : إن حضورك مع المرضى وقت الغذاء يعينك على تشخيص أمراضهم فالفصامى المنطوى على نفسه ربما ترك اللحوم واكتفى بالخضراوات وهذا يضعفه ، أو ربما امتنع كلية عن الغذاء لعناده ، والذين يعانون من الأفكار الاضطهادية ربما تصوروا أن الغذاء وضعت فيه السموم ونراهم يتذوقونه ثم يرفضونه والبعض من المنفعلين ربما قذفوا زملاءهم بأدوات الأكل المختلفة ، وتحدث إصابات غير متوقعة ووجود الطبيب بين المرضى أثناء الغذاء عمل هام أشار إليه القرآن : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ سورة النساء من الآية « ٥ » .

ويستطرد أبو العزايم ليقول : « وبمعايشة هؤلاء المرضى وجدت أن تقييد الحركة كان له آثاره عليهم ، ولكن كيف يمكن التغيير وقوانين المستشفى والحجز وعمل كل اللازم حتى لايهرب أحد من المرضى لخطورتهم كل ذلك كان يسبب لى حيرة كبيرة ، كبيرة ، وكان المرضون يلبسون أحزمة جلدية عريضة تعلق بها سلسلة المفاتيح حتى لا تضيع منهم، وكان جو الأقسام مشحونا بالتوتر والاندفاع والهياج ورغم هذا الجو المقيد تماما كانت هناك حوادث من الاندفاع والتحطيم والهروب، فكم من مرة استدعيت بعد هروب أحد النزلاء وبطريقة لم تخطر ببال أحد من حفاظ الأمن فى ذلك المستشفى .

(٣)

ثم ها هو أبو العزايم بعد صفحات قليلة جدا من كتابه يبدأ فى التعبير عن مذهبه فى العلاج النفسى، وهو يسارع إلى أن يعلن لنا أنه اكتشف أن تقييد الحرية كان ذا آثار سيئة على هؤلاء المرض . . وهذه الفكرة بالذات هى جوهر مدرسة أبو العزايم فى الطب النفسى إن جاز لنا أن نطلق هذا التعبير على ماتكون فى ذهنه وممارساته على مدى أكثر من خمسين عاما . . وليس من شك أن هذا الكتاب كله ينبض وينطق ويجأر بهذه الفكرة . . كأنما أبو العزايم عاشق أصيل لفكرة الحرية نفسها ، وكأنما هو يتخذ من ميدان عمله فى الطب النفسى ميدانا لتحقيق إيمانه بأهميه الحرية كحق من حقوق البشر وكعلاج أيضا لهؤلاء البشر حين يصيبهم شر ما ، فإذا كان هذا الشر هو المرض النفسى فإن أبو العزايم لايجد أى بأس فى أن ينادى أيضا بالحرية والمجتمع المفتوح .

وسنجد هذا الطبيب طيلة هذا الكتاب وهو فخور بكل خطوة يخطوها فى سبيل إنجاز صورة أخرى من صور الإيمان بأهمية الحرية والمجتمع المفتوح فى علاج مرضى النفس، وها هو يروى لنا صورة أخرى تنبئنا فى وضوح عن مقدار المعاناة التى يعانيها المرضى النفسيون بوجودهم داخل المستشفى فيقول: « ذات يوم استدعيت لإسعاف أحد المرضى الذى سقط وأصيبت عظمة الفخذ اليسرى بكسر وطلبت له عربة الاسعاف لنقله إلى مستشفى الدمرداش، وأفاجأ بصورة مؤلمة لمريض آخر يريد أن يحمل صديقه ويقول له وهو يهون عليه مصيبته : « ياليتنى كنت مكانك وتكسر قدماى الاثنتان حتى أخرج بعيدا عن أسوار المستشفى» ويظهر أمامى جليا مقدار المعاناة التى يعانيها هؤلاء المساكين من وجودهم خلف أسوار المستشفى» .

(٤)

ويلخص لنا أبو العزايم فى فقرات معبرة الحالة التى وصل إليها مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية فى ذلك الحين فيقول : «كان المرضى الجدد الذين يدخلون المستشفى لأول مرة يواجهون إجراءات كانت تزيد من أعراض المرض عندهم ، فبمجرد أن يقوم أهلوهم بتسليمهم لأيدى الممرضين وراء الأسوار يقوم الممرضون بإبدال ملابسهم بملابس المستشفى ويأخذون منهم أمتعتهم الشخصية وساعاتهم ، ولا يسمح لهم بالاحتفاظ بالنقود أو الحاجات الضرورية، لهذا سرعان ما يبدو عليهم الشعور بالغربة وعلامات القلق والخوف والكآبة من الوجود فى هذا المجتمع المقيد للحريات ، وسرعان ما تظهر عليهم أعراض مرضية زيادة على الأعراض المرضية الأصلية التى سببت المرض خاصة أعراض الشك والوسوسة ، وكنت ألاحظ

فعلا أن المرضى المكتئبين كانت تزداد عندهم حدة درجات الاكتئاب وقد حجزوا بعيدا ع أهليهم ، وقد كانت هذه الانفعالات تنطبع على سلوكهم وتظهر فى رسوماتهم على الحوائ وعلى أوراق علب السجائر ، وكم من مرة شاهدت هؤلاء المرضى وهم يرسمون القضبان التي تحيط بهم مستعملين رأس عود الكبريت الأسود فى هذه الرسومات ، أما المرضى الذين يعانو من الفصام المصحوب بالأفكار الاضطهادية فقد كانت تظهر عليهم هلاوس جديد وهذاءات تتعلق بطريقة حجزهم كأن يقولوا إنهم قد خطفوا بواسطة رجال المستشفى ، أو إنه موضوعون تحت تأثير موجات كهربائية تشعها أسوار المستشفى التى كثيرا ما حطمت ونزعت من أماكنها تحت تأثير هذه الهزاءات، كما كان الكثير منهم يمتنع عن الطعام خوفا من أ يدس ممرض المستشفى السم لهم وكان البعض أيضا يشكون من وجود مواد غريبة فى الطعا كنشارة الزجاج ، أما المرضى المنطوون على أنفسهم فقد انعكس القلق عندهم من وجودهم في مجتمع غريب مقيد الحركة وذلك بأن ظهرت عليهم نوبات التدمير وتمزيق ملابس المستشفى وخاصة البطاطين كما ازدادت عندهم أعراض تلويث ملابسهم بالتبول والتبرز ، والمرضى المعمرون كانوا يجلسون الساعات الطوال بجوار الأسوار شاردين وقد تخلى عنهم أهلوهم وقيدت تحركاتهم وسرعان ما كانت تزداد أعراض مرضهم شدة ويقعون فريسة للالتهابات المختلفة ، أما المرضى المزمنون ممن طالت مدة إقامتهم فقد تأثروا من الحياة المقيدة بالمستشفى كل التأثير فبعضهم ممن تحسنت حالته العقلية بعض التحسن ومازال قابعا بين الأسوار كان عليه أن يطيع أوامر الممرضين ويساعدهم فى أعمالهم ليجد بصيصا من الحرية ويجد شخصيته، وقد كان هذا النوع من المرضى أخطر الأنواع جميعا ، فكثيرا ما نفذوا أوامر الممرضين ، ضد المرضى القلقين وأصبحوا اليد المنفذة لتقييد الحرية ، وكانوا - جزاء لخدماتهم للممرضين - يحصلون على بعض الامتيازات التى تشجعهم على زيادة أعمالهم مع الممرضين ، أما المرضى الذين قبلوا الخضوع للحياة المقيدة فهؤلاء اضمحلت شخصياتهم وضعفت إلى درجة السلبية واستسلموا للهلاوس » .

«وبالنسبة للممرضين فقد كان الجانب الأكبر من عملهم هو حفظ النظام فى هذا الجو المقيد المشحون بالتوتر ومنع الهروب ونوبات الاندفاع والانتحار ، وكانوا قد تخصصوا لطول بقائهم فى هذا المجتمع المقيد فى هذه الوظيفة وأصبحوا أقرب إلى السجانين منهم إلى الممرضين النفسيين » .

ويمضى الدكتور أبو العزايم ليحكى تجاربه المبكرة فى متابعة كل صغيرة وكبيرة فى مستشفى الأمراض العقلية فيروى لنا كيف كان سوء التغذية منتشراً بين المرضى ، وكيف قاده هذا إلى إنشاء معمل للتحليلات الطبية ، وإلى تولى الإشراف على التغذيه بنفسه ، ومراجعة الألبان الموردة . . . . إلخ .

كما يروى مراحل التعاون العلمى الذى بدأه مع أساتذة الطب فى قصر العينى وكيف نال درجة دبلوم الأمراض النفسية والعصبية من قصر العينى بتقدير ممتاز ، وكيف نال أيضا تقدير وزارة الصحة المصرية فى بداية الخمسينات ، وكان من نتيجة هذا ترشيحه للسفر لزيارات ميدانية لمراكز الطب النفسى فى إنجلترا وهولندا وسويسرا .

(٥)

يخصص المؤلف الفصل الثانى من كتابه للحديث عن السياسة العلاجية للطب النفسى فى أوربا (١٩٥٤ - ١٩٥٥) وينتهز هذه الفرصة ليحدثنا عن أكثر ما توافق مع عقيدته وهو المستشفى المفتوح ليلا ونهارا وهو مستشفى وارلنجهام بارك بالقرب من لندن ، ويحكى لنا كيف توطدت علاقته مع مدير هذا المستشفى ، ثم يحكى لنا عن زيارته لمستشفى بلمونت الذى يتولى علاج المرضى السيكوباتيين ، وعما يأخذ به المستشفى من اتخاذ التمثيل كعلاج نفسى ، ويحكى عن تجارب السرقة والزواج فى هذا المستشفى، وعن علاقة رجال الدين بالمستشفى .

وينتقل بنا المؤلف إلى هولندا ويحكى عن تجربة علاج الطوارئ النفسية بالتليفون ، وعن مستعمرات المعوقين عقليا ، ولايفوته أن يروى لنا قصة إنسانية عاشها بنفسه هناك فيقول : «وعند بدء الزيارة وجدت مريضا فى أحد الأقسام طوله حوالى ٦٠ سم وعمره حوالى خمسة عشر عاما وأخبرنى مدير المستشفى بأن هذا المريض يقوم بالعمل رغم أنه كان لا يستطيع الحركة حيث يداه ورجلاه لا تتحرك وكل ما فى جسمه الرأس الكاملة النضج ، أما باقى الأعضاء فضعيفة جدا ولا تتحرك ، وطلب الرجل من مساعديه إعداد المريض للعمل وبعد فترة رجعت إلى مكتب المدير ووجدت المعوق وقد أجلسوه على كرسى خاص وأمامه ماكينة الآلة الكاتبة وأعطاه المدير عودا من الخشب له رأس من المطاط ووضع الرأس فى فم المريض الذى بدأ الكتابة بالعود على الآلة الكاتبة مستعملا فى ذلك عضلات العنق التى دربت تدريبا كاملا على الحركة التى تساعد العود على الضرب على الآلة الكاتبة ، وعجبت لهذا التقدم وهذا الاهتمام الفردى من فريق العلاج جميعه ، الطبيب والإخصائى الاجتماعى والإخصائى النفسى والمدرب المهنى وطبيب الأمراض الباطنية والمعالج الطبيعى والجراح ، وغيرهم من أعضاء واستشاريين كلهم يهتمون بدراسة الحالة ووضع العلاج المناسب لها»

ويحدثنا أبو العزايم بعد ذلك عن الخطة التى اقترحها فى ١٩٥٥ لخدمات الصحة النفسية فى مصر ، وكيف بدأ إلغاء حجز المرضى ، وكيف بدأت الإقامة فى سكن خاص بالطبيب بالمستشفى نفسه ، ويروى أكثر من قصة لمرضى نفسانيين بدأ العلاج الإنسانى يؤتى ثماره معهم ، وبعدما اهتم الطبيب بتتبع حالاتهم من البداية ، وسنجد فى قراءة الفصلين الثالث

والرابع من هذا الكتاب أن مؤلفه قد بدأ يطبق ماشاهده وأعجب به فى الخارج وأن تجاربه قد آتت ثمارها . . وفى الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن العلاج بالموسيقى وكيف أفاد من دقات الطبول لعلاج المرضى المزمنين ، وكيف نظم الحفلات الموسيقية ، ويورد نتائج دراسة إحصائية حول آثار الموسيقى على المرضى النفسانين .

أما الفصل السادس ففيه يروى دور الصحافة والمجتمع والشئون المعنوية بالقوات المسلحة والشرطة ، وهو فى هذا الصدد يشيد بعدد من الصحفيين هم الأساتذة صلاح جلال ومحمود مهدى وعباس مبروك وبالسيدة لطيفة أبو الدهب ، وبالأستاذين عبد العزيز السيد وفاطمة عنان من رجال التعليم .

(٦)

ويمضى المؤلف ليحدثنا عن إنشاء أولى العيادات الخارجية النفسية فى مستشفى بولاق ثم أولى العيادات بالمحافظات فى مدينة طنطا وكيف تطورت إلى مستشفى للصحة النفسية فى طنطا عام ١٩٦٥ (وإن كان المؤلف يذكر أن المحافظ كان هو وجيه أباظة ، وهو ما يتناقض مع التاريخ الذى ذكره ، فلم يكن وجيه أباظة محافظًا للغربية إلا فى مايو ١٩٦٨ ، وهكذا فإما إن المستشفى لم تنشأ إلا بعد ١٩٦٨ وإما أنه كان هناك محافظ آخر غير وجيه أباظة . . وإن كنت أرجح الاحتمال الأول لأن المؤلف قد يخطئ فى التواريخ ولكنه لايخطىء فى الأشخاص إلا بدرجة أقل) .

ويروى المؤلف قصة افتتاح عيادة نفسية فى المحلة الكبرى ، كما يحكى قصة إصابة أحد كبار ضيوف مصر الرسميين باضطراب عقلى مفاجئ أثناء استضافته بقصر القبة ، كما يروى تجربته فى العمل كأستاذ بجامعة الأزهر. ويذكر المؤلف كذلك بالتقدير تعاونه مع الدكتور النبوى المهندس فى تطوير المستشفى وتعيينه مديرا عاما لها ، وكيف شملت جهوده تطوير الخدمات النفسية والاجتماعية والتمريضية وكيف خصص منزله كمدرسة تمريض ، وكيف تم الإعداد للمؤتمر الأول للصحة النفسية (١٩٧٠) .

كما يروى تجربة المعسكرات العلاجية التى بدأها على شاطئ الإسكندرية ، ويورد المؤلف على مدى صفحات الكتاب صورا ضوئية للشهادات العلمية وشهادات التقدير التى حازها بفضل جهوده فى مجال الطب النفسى .

ويخصص المؤلف الفصل الثامن من كتابه المطول لانتقاداته لقانون حجز المرضى الذى نتجت عن تطبيقه هذه الانتقادات وهو القانون ١٤١ لسنة ١٩٤٤ ، ويدلل على نجاح سياسته العلاجية التى بدأها منذ ١٩٧١ بعدد من الظواهر يلخصها فى مايلى :

١ ـ أصبح المرضى يدخلون للعلاج عن طريق العيادة الخارجية دون أية إجراءات من الشرطة . وبذلك زاد دخول المرضى الراغبين فى العلاج وقل الخوف من دخول المستشفى وتحرر المرضى من تدخل الشرطة ومن إجراء الكشف عليهم بمعرفة مفتش الصحة وما يترتب على ذلك من اصطحاب الشرطة لهم وما يعترى ذلك من متاعب وازدراء .

٢ ـ تقدم المستشفى خطوة نحو الحرية كأى مستشفى عام يقيد الدخول فيه عن طريق العيادة الخارجية والمتابعة عن طريق الفريق العلاجى بالعيادة ذاتها .

٣ ـ تتحرر المستشفى من الكتابة للشرطة عند خروج المرضى وكان المتبع قبل ذلك مخاطبة الشرطة لمتابعة المريض عند خروجه ، وحل محل ذلك اعطاء المريض نفسه ملخصا للأبحاث التى أجريت له والعلاجات الواجب الاستمرار عليها وتكونت علاقة أصيلة مع المريض ذاته دون واسطة .

٤ ـ انخفضت مدة إقامة المرضى إلى أقل درجة وخرج ٨٥٪ منهم قبل مضى شهر، وبذلك وفر المستشفى آلاف الأسرة، فبعد أن كان عدد المرضى عام ١٩٦٧ نحو ٤٢٠٠ مريض ، وأصبح السرير الواحد يخدم حوالى ١٠ من المرضى فى العام بعد أن كان يمرض فيه فرد واحد طوال العام، ممن أزمنت أعراضه المرضية ، ويقدر ما وفرته خزانة الدولة من توفير ألفى سرير من عدد أسرة الدار بمبلغ مليون جنيه سنويا .

٥ ـ زاد اهتمام فريق العلاج بالمرضى المزمنين الذين يحتاجون إلى العلاج والاهتمام والرعاية والتدريب والتأهيل .

٦ ـ نظرا لقلة ازدحام المستشفى بالمرضى تحسنت حالاتهم الصحية والجسمية بوجه عام .

٧ ـ تمكن الفريق العلاجى من إدخال العديد من العلاجات الحديثة وأصبح لديه الوقت لتطبيقها و إجراء الأبحاث عليها » .

وفى الفصل التالى يبدأ المؤلف الحديث عن جهوده فى مكافحة المخدرات والإدمان والتعاون الذى قدمه لإيران حين أوفدت بعض أطبائها للتدريب فى مستشفى العباسية .

(٧)

وفى الفصل التاسع يتحدث المؤلف عن علاج الطوارئ النفسية بالتليفون ، أما الفصل العاشر فقد خصصه المؤلف ليروى قصة ابتلائه بقرار منحه إجازة مفتوحة فى عهد تولى الدكتور فؤاد محيى الدين وزارة الصحة ، وهو يروى القصة من وجهه نظره الشخصية فيقول : «ويفاجأ الطبيب - باتصال تليفونى من دار الاستشفاء بأن إحدى المريضات فى حالة هياج

شديد أدخلت المستشفى قسم ١٥ نساء، وكان ذلك إبان تغيير النوبتجيات الساعة ٦ مساء، وأن المريضة اعتدت على مريضتين وقتلتهما . ويعود الطبيب فورا ويجرى تحقيقا ويتضح أن القسم الذى أدخلت إليه به ١١٠ مريضات، وأن القسم تسهر عليه ممرضة واحدة تساعدها عاملة واحدة وكان الباب قد فتح أمام الممرضات للسفر للخارج ، وتبين أن ذلك أثر على أعداد الممرضات المتخصصات فى التمريض النفسى وأن معظم الممرضات قد سافرن إلى البلاد العربية للعمل فيها" .

«ويستدعى الطبيب للنيابة العامة التى قامت بالتحقيق وينتهى التحقيق إلى حفظه إداريا ويستدعى السيد وزير الصحة آنذاك - وهو الدكتور فؤاد محيى الدين - الطبيب إلى مكتبه وكان لم يمض فى الوزارة إلا أياما ولا يعلم الكثير عما يجرى فى ميدان الصحة النفسية من تطوير، ويصدر السيد الوزير فى مواجهة الطبيب قرارا بمنحه إجازة مفتوحة لإعادة التحقيق ويعترض الطبيب ويخبر الوزير بأن ذلك سوف يؤثر تأثيرا سلبيا على العمل فى ميدان الصحة النفسية، ولكن الوزير ورغم تدخل وكيل الوزارة الدكتور سعد الدين فؤاد لم يستجب بل أصدر قرارا آخر بأن يتولى الدكتور سعد الدين الحكيم مدير إدارة الصحة النفسية العمل بدلا من الطبيب ويخرج الطبيب من حجرة الوزير وهو يعلن أن الوزير أضر بالصحة النفسية وكان عليه أن يتدارك الموقف ويوقف سفر الممرضات إلى الخارج بعد أن قدم الطبيب سكنه الخاص حتى يتدربن فيه ويتخرجن للعمل فى المستشفى، ولكن ما حدث أنهن تدربن للعمل فى البلاد العربية رغم حاجة المستشفى إليهن، ويعود الوزير متحديا طالبا نشر خبر وقف الطبيب عن العمل فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام ، وتنبه الطبيب وهو يترك باب الوزارة أن عليه مسئوليات جساما فى مجال الصحة النفسية وتطويرها والوقوف بجدية أمام قرار خاطئ ويحتاج إلى مواجهة جادة . ويتصل الطبيب بمحام مارس جولاته فى مثل هذه الأحداث ، وتنشر جريدة الأهرام الخبر فى صفحتها الأولى وتحته خبر آخر « مدير عام دار الاستشفاء يرفع قضية مطالبا وزير الصحة بخمسين ألف جنيه تعويضا » ويكتب مقالا فى الأهرام يوم نشر خبر الوزارة تحت عنوان « مع الاعتذار للسراية الصفراء مستشفى المجانين سابقا ودار الاستشفاء للصحة النفسية حاليا » ويسرد القصة ويطالب الوزير بإعادة النظر فيما وقعت فيه الوزارة من أخطاء ولكن الوزير يقوم بتفتيش مفاجئ للمستشفى ومعه الدكتور سعد الدين فؤاد وكان النبأ قد انتشر بين العاملين الذين تركوا أماكنهم وراحوا يتحدثون عن غرابة ما تم ، ويجدون الوزير يدخل المستشفى ومعه الدكتور أحمد الحكيم المدير الجديد ومعهما الدكتور سعد الدين فؤاد ويلاحظ الوزير أن الوضع غير مستقر بالمستشفى، ويأمر بالاجتماع مع الأطباء فيرفضون الاجتماع به ويقوم السيد وكيل الوزارة بإقناعهم بذلك فيرفضون ، ويندفع أحد الممرضين كان قد أصيب فى رأسه من اعتداء أحد المرضى عليه وأصابه بشلل نصفى استمر

معه طوال حياته . . ويندفع ذلك المرض داخلا الحجرة التى بها الوزير معترضا على قراره ويعلو صوته محتجا ويعرف الوزير قصته وإصابته وأن المستشفى يقوم برعايته كل الرعاية هو وأولاده ويتبين ماذا يدور بالمستشفى، وعندما سمع الأطباء بما دار مع السيد الوزير وهو فى مكان عملهم اجتمعوا به ودار نقاش بناء قادته الدكتورة ناهيد غالب جاء فيه أنهم يعملون بأقصى درجات الحب للعمل ، وأن الوزير لم يتبين ما يجرى بالمستشفى من اعمال وتضحيات ، ويقتحم الحجرة عدد من كبار المرضين معلنين أنهم لن يتركوا الوزير يخرج من المستشفى إلا بعد أن ينالوا حقوقهم التى تركوها حبا فى العمل مع الطبيب ويسأل الوزير عن هذه الحقوق ويعرف أنهم يعملون منذ الصباح ويستمرون فى عملهم بعد ذلك حتى ظهر اليوم التالى دون أن يحسب لهم أجر عمل إضافى وصمموا على التوقف عن العمل ، ويصدر السيد الوزير أول قراراته بمنحهم بدل عمل إضافى ، ويصممون على عدم العودة إلى العمل إلا إذا رجع اليهم الطبيب الذى عاش معهم عملية التطوير بكل الحب وكل الاحترام، فيوافق الوزير على ذلك قبل خروجه من المستشفى، وكان قد تجمع المئات من المرضى أمام الحجرة التى كان بها الدكتور الوزير وأثناء مغادرته المستشفى محاطا بكل الأطباء خوفا من أن يعتدى عليه ، ورغم هذا اعتدى عليه المرضى وأصابوا السيارة بتلفيات . . ولولا كفاءة السائق لحدث ما لا تحمد عقباه ، ويتصل الدكتور أحمد وجدى بالطبيب طالبا إليه العودة ولكن الطبيب يرفض ويطالب باعتذار الوزير أمام اجتماع خاص مع أطباء الصحة النفسية ويتم ذلك ، ويعلق الوزير أخيراً على الموقف فيقول أنا رجل فقير فأنّى لى أن أعوض الطبيب بخمسين الف جنيه؟؟ ويجتمع العاملون جميعا بدار الاستشفاء فيها بعد داعين أطباء الصحة النفسية بالقاهرة ويحتفلون بالطبيب وهو يعود إلى معبده بالمستشفى لخدمة المرضى ويقدمون له لوحة تذكارية تحمل قوله تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ صدق الله العظيم .

وهكذا يدلنا المؤلف بنفسه من واقع روايته هو إلى مدى نفوذه فى الإعلام والمستشفى والمجتمع المصرى وكيف ساعده هذا النفوذ الحقيقى على أن يجعل الوزير يتراجع بنفسه عن قراره ، مع ما عرف عن هذا الوزير من قوة وبأس ، ومع هذا فنحن لا نستطيع أن ندعى أننا نلم بالجانب الآخر من هذه القضية ، ولكن رواية أبو العزايم نفسها لاتزعم أنه محقاً كل الحق ولا أن الوزير كان مخطئاً على طول الخط ، وفى وسع كل زملائنا أن يفهموا كل ما بين سطور رواية صاحب التجربة .

ثم يخصص المؤلف الفصل الحادى عشر للحديث عن الجمعيات غير الحكومية ،التى مارس صاحب التجربة من خلالها بعض الأنشطة، ومنها جمعية أولى العزم التى تم إشهارها فى ١٩٥٢ وعن الجمعية المركزية لمنع المسكرات ومكافحة المخدرات ، وعن المؤتمر العربى الأول لمواجهة مشكلات الإدمان، وعن الجمعية المصرية للصحة النفسية ، والجمعية العالمية

الإسلامية للصحة النفسية والاتحاد العالمى للصحة النفسية ، وعن جمعية التضامن الاجتماعى للصحة النفسية بالعباسية ، والجمعية المصرية لتوعية الأسرة للوقاية من الإدمان ، ثم عن جماعة الرواد التى انضم إليها فى ١٩٨٩ .

(٨)

ويحظى الطب الشرعى النفسى فى مصر باهتمام المؤلف فى الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب . ويروى المؤلف فى هذا الفصل بعض المواقف الخطيرة التى تفتح أعيننا على حقيقة كثير مما يجرى فى مجتمعنا من وراء الكواليس ، ومن هذه الحالات ما يقصه علينا المؤلف فى صفحة ١٣٠ حيث يقول : «وأحالت النيابة حالة متهم قتل زوج جارته الجميلة وألقى بالجثة على جبل المقطم . . وكان ذلك عام ١٩٧٠ ويفاجأ مدير المستشفى بأحد كبار المحامين فى مصر فى هذه الآونة يقوم بزيارة عيادة المدير ويطلب منه أن يساعده فى عمل تقرير طبى يقضى بأن المتهم غير مسئول عن أعماله ، وأن المتهم قد أدخل قسم الطب الشرعى بالمستشفى ويهدد المدير هذا المحامى بأنه سوف يبلغ النيابة فورا إذا لم يغادر العيادة ، ويخرج المحامى وهو يستعطف ويطلب المساعدة ، وفى أيام قليلة يتم وضع التقرير المبدئى ويتضح الآتى : «متهم فى حوالى الثامنة والعشرين يعمل مع والده الذى يدير مصنعا كبيرا يدر ربحا وفيرا ، يتعلق هذا المتهم بحب جارته ويقيم مع زوجها صداقة ، وتطورت الصداقة إلى سهرات يحضرها الزوج ، وتتزايد الروابط بين المتهم والزوجة ويتفقان على التخلص من الزوج وتوضع الخطة على أن يدعو المتهم الزوج إلى سهرة بمدينة المقطم ، واتفق مع رجلين على أن يصحبهما فى عربته الخاصة وأثناء الطريق – وكان الزوج يجلس بجوار المتهم ينقض الرجلان على الزوج ليخنقاه وهما يجلسان خلفه ، ولكن الزوج كان قويا وقاوم فما كان من أحد الرجلين إلا أن طعنه بسكين عدة طعنات حتى فارق الحياة ويلقيان بالجثة فى الطريق ويفرون بالسيارة . . وبعد عودة السيارة تم تنظيفها وتركت فى الجراج وتعثر الشرطة على الجثة ويبدأ التحقيق عن حياة الزوج ويتم معرفة علاقته بالمتهم ويسأل المتهم وينكر ويكون فى حالة طبيعية ، ويوضع تصور عن كيفية القيام بالحادث ويكون هناك ترجيح باستعمال سيارة ، ويتم معاينة سيارة المتهم ، ولكنه كان يملك عدة سيارات وتجمع المباحث المعلومات ، ويتضح أن له سيارة أخرى لا يستعملها وتتم معاينة السيارة وتجمع الآثار الدقيقة من ثنايا السيارة ويتضح أن بها آثار دماء آدمية . . وتعود النيابة لسؤال هذا الجار الأنيق وتنهار قدراته ويعترف تماما بفعلته ، ولكن محاميه يجتمع معه ويلقنه بعض الأعراض المرضية التى ربما تنجيه إذا قام بها على أنه مريض عقلى ، ويعتبر أنه غير مسئول عن أفعاله ، ويقوم بتمثيل هذه الأعراض أمام النيابة وتثبت النيابة ذلك ويطلب المحامى من القضاة ضرورة تحويل المتهم للكشف عليه حتى لا يتأخر علاجه وتزداد

حالته سوءا ، ويطلع الطبيب على هذه التقارير ويقوم بالكشف على المتهم الذى أخذ يقول إنه يطلع السماء حيث يجتمع بحبيبته ويفعلان ما يفعلانه ، وأن ذلك يتم كل يوم وأن الملائكة تساعده على الذهاب إلى معشوقته كل يوم، ثم يخرج من علبة كبريت أحد الأعواد ويضع العود فى فمه من الناحية التى ليس بها كبريت ويشعل العود بطريقة صبيانية ويضحك بدون داع . . وكانت كل هذه الأعراض تظهر أمام الطبيب فى ذات اليوم . . وبإعادة الكشف على المتهم بعد أن جمعت الأبحاث المختلفة عنه يتضح للطبيب أن المتهم يمثل دور المريض وأنه لا يعانى من المرض العقلى ويحرر الطبيب تقريرا سريعا يرسله إلى النيابة ، ويعود المتهم ومعه تقرير أنه لا يعانى من المرض العقلى ويعتبر مسئولا عن أفعاله - ويطعن المحامى أمام القضاء بأن التقرير لا يوضح الحقيقة ، وأنه تقرير سريع ورغم أن المحكمة أعطت الطبيب مدة ٤٥ يوما لوضع التقرير الا أنه وضع التقرير فى أربعة أيام ، ويطلب من المحكمة انتداب لجنة طبية لإعادة الفحص وتجيبه المحكمة إلى طلبه ويتابع المحامى اتصالاته باللجنة ويقدم أحد المستشارين تقريرا عن المتهم أنه يعانى من الاضطراب النفسى وأنه غير مسئول عن أعماله . . ويجيء كذلك تقرير اللجنة بأنه مضطرب عقليا ، وتناقشهم المحكمة فى الموضوع ، ويقف الطبيب ويحكى للقاضى الأساليب المنحرفة التى واجهها وهو يقوم بعمله مما دعاه إلى أن يركز على فحص المتهم فحصا دقيقا يتضح أمامه أنه فعل فعلته وهو فى كامل وعيه وأن الأعراض التى يمثلها ما هى إلا أعراض غير ذات موضوع للهروب من التهمة ويصدر القاضى أمرا بإعادة الفحص من لجنة أخرى ومن جامعات مختلفة ويأتى تقرير اللجنة مؤيدا لتقرير اللجنة السابقة ، ولكنها تعترض على تقرير المستشار وتقول إن المستشار قد قام بعمل يتعارض مع عمله وأنه لم يدرس الطب النفسى وأنه كان الأجدر به ألا يقوم بهذه المهمة ، وعندما يطلع المستشار على ذلك يرسل برقية إلى القاضى يبلغه فيها بأنه ينحنى إكبارا واعتزازا للدكتور جمال أبو العزايم (الطبيب) الذى لم يمد يده وعندئذ تهدر المحكمة التقارير جميعا عدا التقرير الذى حرره الطبيب بعد أن ساورها الشك فيما حوته تقارير اللجان »

ويعقب الدكتور أبو العزايم على هذه القصة ببعض المقترحات الفنية التى لا أعتقد أنها كفيلة بحل المشكلة الأعمق وهى مشكلة الضمير ، ولعل هذا ما جعل العقل الباطن للدكتور أبو العزايم يخصص الفصل التالى (وهو الفصل الثالث عشر) للحديث عن أثر الدين فى العلاج النفسى وفى الوقاية من الاضطراب النفسى ، وفى هذا المجال يروى الدكتور أبو العزايم تجربته الخاصة فى مستشفاه « الخاص » فى مدينه نصر منذ ١٩٧٧ كما يفصل القول فى تطبيق نظريته فى العيادات الملحقة ببعض المساجد .

(٩)

ويعود الدكتور أبو العزايم فى الفصل الرابع عشر للحديث عما سبق أن تناوله فى الفصل الثالث عشر من علاقة الطب النفسى بالعدالة ولكنه هنا يجعل عنوان الفصل «مواقف مع القضاء» بينما كان عنوان الفصل الثالث عشر «الطب الشرعى النفسى » بينما المضمون واحد. . وفى هذا الفصل يحدثنا عن معاناته مع مرضى البارانويا ولا يجد المؤلف حرجا فى أن يصرح فى عنوان رئيسى بأن البارانويا لعنة الطب النفسى ! !

ويروى لنا المؤلف قصة مريض بالبارانويا أحيل إلى مستشفى الأمراض العقلية لتوقيع الكشف عليه وبعد أن يروى وقائع مرض المريض يحدثنا عن الإجراءات القانونية التى تعرض لها والتى جعلته هو وزميله معرضين للفصل « الاستغناء عن الخدمة » ، وللمحكمة التأديبية العليا وسوف نكتفى بنقل بعض الفقرات التى تصور القصة حيث يروى أبو العزايم فيقول : «اجتمعت اللجنة وقررت إصابة مدير البنك بالمرض العقلى نتيجة لتهور تصرفاته وإصابته بالشك المرضى والتشهير بزوجته التى طلقها وتعيش معه فى نفس المنزل ويشرب شربة ملح يوميا حتى لا تؤثر فيه السموم التى تضعها زوجته فى غذائه كما يقول . وعندما سمعت ابنته بها تم قدمت بلاغا للرئاسة وأخطر وزير الصحة الدكتور النبوى المهندس والذى أخطر مجلس مراقبة الأمراض العقلية وتكونت لجنة من المجلس من وكيل أول وزارة الصحة الدكتور أحمد وجدى وهو طبيب نفسى والدكتور صبرى جرجس مدير إدارة الصحة النفسية والأستاذ الدكتور يوسف حلمى جنينة أستاذ الأمراض العصبية بجامعة القاهرة والسيد النائب العام ، واجتمعت هذه اللجنة الرباعية فى مستشفى العباسية وقامت بإجراء الفحص النفسى واختلفت فى النتيجة إذ قرر الدكتور أحمد وجدى والدكتور صبرى جرجس إصابة مدير البنك بالمرض العقلى أما الدكتور يوسف حلمى جنينة والنائب العام فقد قررا أن مدير البنك لم يكن مريضا . ويجتمع مجلس المراقبة وأمامه التقرير الذى وضعه أربعة من أعضائه والذى جاءت نتيجته أن اثنين يقرران أن مدير البنك مريض ، واثنين يقرران أنه غير مريض، وأن النيابة العامة تجرى تحقيقا فى الموضوع، وبدأت النيابه العامة فى التحقيق مع كل من أدخل مدير البنك إلى المستشفى . . وتوافق أغلبية المجلس على أن مدير البنك لا يعانى من المرض وتخطر النيابة العامة بنتيجة الكشف، وكذلك التحقيق مع مدير المستشفى الدكتور عبد القادر حلمى ، ومفتش مجلس المراقبة الدكتور أحمد الحكيم الذى كان قد اعتمد ما قام به المستشفى، والدكتور جمال ماضى أبو العزايم الذى استقبل المريض بالمستشفى وقدمت النيابة نتيجة التحقيق إلى الجهات المختصة التى أحالت هذه النتيجة إلى وزير الصحة بالايحاء إليه بالاستغناء عن خدمات الأطباء ولكن وزير الصحة أحال الموضوع كله إلى المحكمة التأديبية العليا . وهكذا تسبب الكشف الطبى فى هذا الوضع المهين للمشرفين على التشخيص وعلاج الأمراض العقلية »

« وجاء يوم المثول أمام القضاء ليحكم حكم الحق . . وفور دخول هيئة المحكمة طلب رئيسها مقاعد للأطباء وجلسوا ثم بدأت المداولات وكنت قد أعددت مفاجأة للمحكمة ، وكان معى المرجع الطبى وهو من أهم كتب الطب النفسى أعطيته لرئيس المحكمة وطلبت منه أن يقرأ صفحة من صفحاته عن مرض البارانويا وقمت بترجمتها إلى العربية فوافق رئيس المحكمة وتابع الترجمة حرفا حرفا ، وكانت تدور حول قصة مرضية كبيرة الشبه بحالة مدير البنك فى فرنسا حيث كثرت شكوك مدير البنك وزادت حتى شملت اسرته وأصحابه وانتهى به الأمر إلى الخروج إلى الشارع يعلن عن أعدائه وقال المرجع باللفظ الواحد إن مرض البارانويا كثيرا ما أدى إلى محاكمة الفريق الطبى بعد ما يظن الناس أنهم أخطئوا . وقد أصدرت المحكمة حكمها كالآتى :

١ ـ الطب النفسى تخصص لا يجوز أن يمارسه إلا الأطباء المتخصصون ولذا لا تقبل المحكمة رأى الدكتور يوسف حلمى جنينة رغم أنه طبيب فى الأمراض العصبية ولكنه غير متخصص فى الطب النفسى . . كما لا تقبل المحكمة رأى النائب العام لأنه ليس إخصائيا فى الطب النفسى .

٢ ـ وعلى هذا الأساس فقد أصبحت اللجنة التى كونها مجلس المراقبة لجنة غير ذات موضوع إذ أن اثنين من أعضائها غير متخصصين وقد شهد المتخصصان الآخران بأن مدير البنك مضطرب عقليا وتأخذ المحكمة بهذا الرأى لانه رأى المتخصصين .

٣ ـ إن اللجان الطبية يجب أن تكون فردية حتى ترجح كفة على كفة . . أما إذا تكونت زوجية من أربعة أعضاء فهذا لا يعطى للعدالة الرأى الراجح إذا تساوت الأصوات .

٤ ـ تحيى المحكمة الدور الذى قام به مستشفى العباسية من بحث دقيق منذ أول يوم من دخول المريض حيث تم الكشف عليه عدة مرات واجتمعت أعلى لجنة طبية مرتين لمتابعة البحث عن التشخيص حتى اتضحت الصورة ووقف المستشفى على الرأى ووضع الخطة العلاجية . وعشنا هذه الأحداث الحرجة وتعلمنا منها الكثير حول تشخيص مرض البارانويا الذى يتطلب البحث المستفيض الدقيق الشامل » .

(١٠)

كما يحكى لنا الدكتور أبو العزايم قصة أخرى لاتقل فى غرابتها وخطورتها عن القصة الأولى وفى وسع القارئ أن يعود إلى الكتاب ليقرأ فيه تلك القصة .

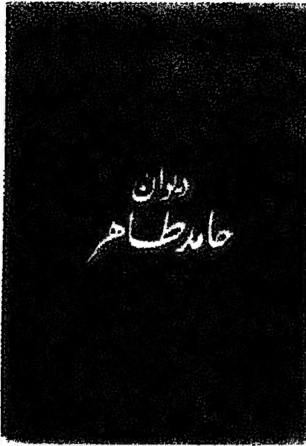
وفى الفصل الخامس عشر يلخص المؤلف تجربته مع الصحة العالمية والمنظمات الدولية وزياراته لإيران والسويد ويوغسلافيا وسويسرا .

أما الفصل السادس عشر فيتحدث فيه المؤلف عن مستشفياته فى مدينة نصر وفى ريف الجيزة « العياط » وفى العاشرمن رمضان .

أما الفصل السابع عشر وهو الفصل قبل الأخير فيخصصه المؤلف للحديث عن آماله لمستقبل الطب النفسى فى مصر وهو يلخص هذه الآمال بطريقة « التوصيات المبوبة » .

أما آخر فصول هذا الكتاب فهو بمثابة تجميع للهوامش التى كان يمكن أن يتحدث فيها المؤلف عن الشخصيات التى ورد ذكرها فى نصوص الكتاب « ٣٦ شخصية » وقد آثر الدكتور أبو العزايم أن يكون حديثه عنها مبوبا بهذه الطريقة وفى فصل خاص . . وفى الحقيقة أن حديث الدكتور أبو العزايم عن هذه الشخصيات يعوزه الدقة فى كثير من الجزئيات وبخاصة التواريخ والتسلسل الوظيفى ولكنه مع ذلك حديث صادق يعبر بصدق عن المشاعر الحقيقية والعميقة التى لايمكن للطبيب أن يخطىء فى التعبير عنها . ولعله بإيثاره هذه الشخصيات دون غيرها كشف بأدب شديد عن آرائه فى كثير ممن تعامل معهم سواء من الزملاء أو الرؤساء فهو على سبيل المثال يخص بالذكر من وزراء الصحة المصريين الدكتور النبوى المهندس والدكتور محمود محفوظ والدكتور على عبد الفتاح !! وإن كان قد أورد أيضا صورة له مع الدكتور عبده سلام وذكر أنه هو الذى دعاه إلى اجتماعات الرواد ! !

كذلك فإن الدكتور أبو العزايم يشيد بذكر أستاذى الطب النفسى عمر شاهين وأحمد عكاشة ، وأستاذ علم النفس مصطفى سويف ، ويكاد يذكر كل زملائه بالخير بدءا من الرائد العظيم الدكتور محمد كامل الخولى ومروراً بالدكاترة أحمد وجدى ، ومصطفى عبد الخالق ، ومحمد طلعت رضا ، وعبد القادر حلمى ، ومحمد يوسف خليل ، وعادل زكى ، وسعد الدين الحكيم ، وناهيد غالب .



الفصل الثانى

تجربتى مع الشعر

للدكتور حامد طاهر

(١)

كتبت هذه المذكرات دفعة واحدة كأن قلم صاحبها لم يرتفع عن الورق إلا بعد أن انتهى منها ، وربما وجد نفسه مسوقًا إلى أن يكتبها على هذا النحو الذى لم يكن يتصوره حين شرع فى كتابتها كمقدمة لديوانه الشعرى .

كان الدكتور حامد طاهر على ما يبدو حفيا بأن يكتب فى مقدمة ديوانه الشعرى الأول ما ينبئ عن اهتمامه كأستاذ جامعى قدير بالشعر منذ مرحلة مبكرة من حياته ، وكيف قادته الخطوات إلى تكثيف الاهتمام بالشعر أو تقليل هذا الاهتمام ، وكيف ساعدته التجارب والظروف مرة بعد أخرى على أن يجيد القول والشعر والتعبير ، فإذا به بعد أن انتهى من الكتابة يجد نفسه وقد حدثنا دون أن يدرى عن حياته كلها فى تركيز شديد وتعبير دقيق وعرض شيق وتسلسل منطقى ممتاز لا ينقطع ولا تنفصم عراه .

وأنت تقرأ قصة حياة هذا الشاعر فتجدها خالية من التزويق مع أن شعره حافل بالبديع ، وتجدها خالية كذلك من الفلسفة التى نصطنعها جميعًا لحياتنا حين نرويها مع أن كاتب هذه السيرة الذاتية أستاذ للفلسفة ، وتجد نهر حياته يجرى متدفقا فى عنفوانه ، فإذا هو سعيد بكل ما أحاط بهذا النهر متغاض تمامًا عن كل ما اعترض هذا النهر .

تقرأ حياة الدكتور حامد طاهر فينبعث فيك الأمل حيا أن دراساتنا العربية والإسلامية والأديبة والشعرية لن تخبو لها جذوة نجاح واطراد فى الارتقاء بنفسها وبنا إلى ما يليق بحضارتنا

الضاربة بجذورها فى أرض الزمن الممتد ، وتجد الدكتور حامد طاهر يقدم لك نفسه واحدًا من ثلاثة زملاء أفذاذ ، وكأنه يكتب قصة حياة ثلاثة أفذاذ لا فذًا واحدًا ، وهكذا تراه مخلصًا للصداقة ، مخلصًا لروح الجماعة ، حفيا بالولاء وبالانتهاء سعيدًا بما حققوا معًا ، لا ينحاز لذاته إلا فى إطار انحيازه للفريق ، فإذا لم يكن للدكتور حامد طاهر غير هذا الإنجاز فيما كتب لكفاه ذلك ليضعه فى مكانة سامقة بين من كتبوا سيرتهم الذاتية ، فقد استطاع الدكتور حامد طاهر لأول مرة فى أدبنا العربى المعاصر أن يعبر خير تعبير عن مبدأ « الكل فى واحد » بمنتهى التلقائية والبساطة والدقة والصدق .

(٢)

ها هو الدكتور حامد طاهر يتجاوز عن كل ما فى حياته من مصاعب ليطلعنا على الجانب المضئ فى هذه المصاعب ، لأنه رزق منذ مرحلة مبكرة نفسية عامرة بالحب بحيث لم يستطع أن يتصنع التأنف من شىء فى حياته دعك من الحقد أو الصراع ، وهو مع هذا يبدو أنيقا بطبعه ومن دون حاجة إلى أن يتصنع أى نوع من أنواع التأنق .

وها هو الدكتور حامد طاهر يُفرض عليه فرضًا أن يترك المدارس العامة إلى التعليم الأزهرى فإذا هو حريص على أن يبقى فى الإطارين الثقافيين الممكنين بحكم أنه طموح وملتزم فى ذات الوقت ، وها هو الدكتور حامد طاهر يساق إلى تعلم اللغة الروسية وليس له علاقة بها من بعيد ولا من قريب ، فإذا هو سعيد كل السعادة إذ تفتحت أمامه نوافذ المعرفة بهذا العالم الممتد خلف وطنه . ثم ها هو يذهب إلى فرنسا ليتعلم الفرنسية حتى يتمكن من إتمام دراساته العليا فى السوربون وإذا هو كما عبر يتعلم اللغة بلسان طفل وعقل شيخ ، فإذا هو سعيد بالتجربة أيما سعادة . وإنى لأعتقد أن هذه الخطوات الثلاث هى التى قدمت لنا هذا الرجل العظيم والشاعر الرقيق الذى نقرأ له سيرته ونقرأ شعره ، فإذا نحن فى غاية الانبهار لهذا الذى نطالعه والذى نقرؤه والذى نجده فى أنفسنا كصدى لما نطالع أو نقرأ .

هل لى أن أشرك القارئ معى فى قراءة فقرات ثلاث من الفقرات التى تعرض بها الدكتور حامد طاهر لهذه الحياة الثرية بالتجارب النفسية العميقة ، ها هو مثلاً يروى اضطراره لقبول التعليم بالأزهر فيقول : « وفجأة قرر أبى أن أترك هذه المدرسة ، وأن ألحق بأخى فى الأزهر ، وبكيت كثيرًا ، واستعطفت فلم يقبل رجائى ، وكان علىّ أن أحفظ قدرًا من القرآن الكريم فى مسجد المستعلى بالله (القائم حتى الآن) عند الشيخ سيد ، وهو شبه كفيف ، ظل يعاملنى بقسوة ، حتى اضطرنى لرشوته ببعض الهدايا المنزلية ، فاطمأن لى ، بل إنه كان يفوّت لى أحيانًا بعض الواجبات . حفظت حوالى ثلثى القرآن الكريم . ودخلت امتحان القبول

بالأزهر، ومن العجيب أننى نجحت فيه رغم تشدّدهم فى ضرورة حفظ القرآن كله . أما الذى يبدو أنه شفع لى : فهو أننى قرأت أمام لجنة الامتحان فقرة من الجريدة اليومية بأداء جيد ، كنت متعودًا عليه فى مدرسة الجمالية » .

« كانت فرحة أبى بالغة بنجاحى فى الأزهر . وعلى الفور ، اصطحبنى ليشترى لى عمامة وكاكولا من حى المؤيَّد . ولم يجد البائع على مقاسى شيئًا مناسبًا ، فأوصى أبى بشراء مقاس أكبر ، ودله على ترزى لكى يضبطه على جسمى الصغير ، وأذكر أننى كنت أصغر « شيخ » فى معهد القاهرة الدينى ، عم إبراهيم ، بقال شارعنا ، الذى كان يترك زبائنه عندما يرانى ، ويخرج من المحل صائحًا : « أهلا ياشيخ حامد . . » أو « مع السلامة يافضيلة الشيخ » . .

صرت أتحاشى رؤية أصدقاء مدرسة الجمالية . وكان قد أصبح لى أصدقاء جدد فى منطقة الدرّاسة ، وهناك فى شارع بدر ، قضيت أجمل سنوات عمرى على الإطلاق : لعب الكرة الشراب ، والعسكر والحرامية ، والسبع طوبات . . ثم الحب الأول الذى عزف فى النفس أحلى أغانيه العذبة » .

وها هو فى موضع آخر يروى قصة تعلمه اللغة الروسية وهو يروى هذه القصة شاكرًا الظروف بينما هى قصة قد نسمعها من غيره حافلة بالضيق والضجر ولكننا نسمعها من حامد طاهر حافلة بكل الامتنان للظروف وللغة ولمعلمتها حيث يقول : « وفى سنة ١٩٧٠ جندت فى الجيش ، وتصادف أنهم طلبوا دفعة من ذوى المؤهلات العليا تتعلم اللغة الروسية ليصبح أفرادها مترجمين بين الخبراء الروس ، والضباط المصريين ، وعلى الفور ، رحبت بالانضمام إلى هذه الدفعة . وكان معظمها من المعيدين فى شتى الجامعات المصرية . وفى تلك الأثناء ، توفيت أمى : وكانت أول صدمة موت يشهدها منزلنا منذ ولدت ، ولم أستطع البكاء ، واختزنت الحزن العميق لأيام عديدة ، كتبت فى نهايتها قصيدة « المساء الذى ألعنه » ، التى نفثت بها بعض ما بى ، لكننى وجدت فى دراسة اللغة الروسية ملاذًا آخر ، أدفن فيه أحزانى ، وكانت مُدَّرسة فصلنا إليانا باريسى امرأة فاضلة ، كبيرة السن ، وغاية فى حسن الخلق ، عاملتنى منذ اللحظة الأولى كابن . واختصتنى دون زملائى بالكثير من عطفها ، وكانت تتمنى أن أترجم ـ بعد أن عرفت أنى شاعر ـ بوشكين إلى اللغة العربية ، لأنها لاحظت أن الناس هنا لا يعرفونه ، والواقع أنى أحرزت تقدمًا كبيرًا فى تعلم اللغة الروسية ، تلك اللغة الرشيقة التى يجهلها معظم المثقفين العرب ، مع أنها أقرب روحًا إلى روح اللغة العربية ، والأدب المكتوب بها ـ قبل ثورة ١٩١٧ ـ أشد صلة بحالة العالم العربى الحديث » .

« كنت أقضى معظم أوقات فراغى فى الجيش ، فى ترجمة بعض المقطوعات الشعرية الروسية ، أو القصص القصيرة . وقد زاد ما ترجمته من القصص على عشر ، أرجو أن أتمكن

من نشرها مع ما ترجمته من قصص فرنسية فيما بعد . . كنت قد وجدت فى اللغة الروسية فرصة لتعويض الثغرة الهائلة فى ثقافتى . ولأن دراستى للإنجليزية فى كل من الأزهر ودار العلوم كانت دائمًا هزيلة ، فإننى وجدت فى تلك اللغة الجديدة تعويضًا عما فاتنى ، لاسيما وأن تدريسها لنا كان قويًا ، ومركزًا ، وأثمر نتائجه الملموسة فى وقت قصير جدًا » .

وها هو فى موضع ثالث يروى أيامه الأولى فى باريس فيقول : فى باريس رأيت العالم كله . وعشت حوالى سبع سنوات فى بيئة تموج بالحركة ، والحيوية ، والتحدى . . لا شىء يقف . المتوقف ميت . والمبطئ محكوم عليه . . الجميع مسرع . وجديد اليوم قديم الغد . والاختراع هدف الجميع ، والمحاولة مستمرة . . وكانت أصعب الأيام تلك التى رحت أتعلم فيها اللغة بعقل كبير ، ولسان طفل صغير. لكننى تذرعت بالصبر ،وكافحت اليأس والملل ، وأخيرًا بدأت أقرأ . . وأذكر أننى كدت أطير من الفرح عندما انتهيت من قراءة رواية « الغريب » لألبير كامى دفعة واحدة ، على غرار ما كنت أفعل فى قراءة رواية باللغة العربية ، وفى كل من مكتبة جامعة السوربون التى التحقت بها ، والمكتبة الوطنية بباريس انفتحت عيناى على كنوز العالم الفكرية والأدبية . . وهكذا عوّدت نفسى أن أقسم قراءاتى بين الفلسفة والأدب » . .

(٣)

ومع هذا فإن الدكتور حامد طاهر لا يستطيع الخلاص من التعبير عن استيائه الظاهر من الجو الثقافى العام فى بلاده فى العصر الحاضر ، فهو مستاء من النقد الأدبى الغائب ، ومن الوعى الثقافى الميت ، ومن الإنصاف الحائر ،ومن التقدير الضائع ، ولكنه مع ذلك لا يزال يثق فى الله لأنه طُبع على هذه الثقة وهو فى نهاية سيرته يبلور هذه الفكرة فيقول : « وأصرح فأقول إننى أصبحت أخشى من كتابة الشعر ، بعد أن عشت فى هذا الجو فترة طويلة . ولكننى أعود فأقول لنفسى : إن واقعى مختلف ، فالقارئ المهتم نادر ، والناقد المتتبع مفقود ، وأجهزة الإعلام أقل من المستوى الأدبى بكثير ، وإن كانت متفوقة فى ميادين أخرى . لذلك فعندما أكتب قصيدة أكتبها لنفسى . ولا أكاد أطلع عليها إلا خاصة الأصدقاء ، وأحيانًا أتكاسل ، فأخفيها بين أوراقى ، وربما مضى الزمن ففقدتها فى زحمة العمل والحياة » .

ويعود إلى هذا المعنى فيقول : « بقى أن يكون هناك هدف محدد من نشر كتاب على الناس ، وأسارع فأقول : إننى لا أتوجه بهذا الديوان إلى النقاد ، فأنا يائس منهم ، ولا إلى أجهزة الإعلام فأنا زاهد فيها . . وإنما إلى القرّاء الذين يحبون الشعر ، أو الشعراء الشبان الذين يحبون القراءة . . ولابد أننى واجد فى هؤلاء بعض مَنْ ينفعل ، أو يستجيب ، أو يقضى وقتًا طيبًا . . »

(٤)

وفى هذه السيرة مواضع من القدرة الفذة على التعبير عن المناطق المستترة من الشعور لا ينبغى لنا أن نغفل الإشارة إليها لما تمثله من قيمة فكرية جديرة بالتأمل والاحتفاء ، ولعل أول هذه المواضع هو ذلك التصوير الدقيق الذى يصور به الدكتور حامد طاهر شعوره بالأمل عند قيام الثورة ، لأنه ربما كان أول من عبر من أبناء جيله فى مذكراته عن هذا الشعور بهذه الدقة والروعة ، يقول الدكتور حامد طاهر : « أحسست بأننى من الطبقة التى جاءت ثورة يولية لإنصافها ، وقد زاد من هذا الإحساس أن أبناء الأسر المجاورة أظهروا اشمئزازهم من تلك الفوضى التى قام بها الجيش ، فقلب بها الأوضاع السائدة ، والتقاليد المستقرة . وكان هناك سبب خاص زاد من إحساسى بالغربة فى تلك الفترة ، وهو أن نوع دراستى كان مختلفًا تمامًا عن دراسة أصدقائى . فمعظمهم يدرسون فى المدارس الأجنبية كالليسيه ، والمدرسة الإنجليزية ، والمدرسة الألمانية ، كما يدرسون اللغات الأجنبية ، ويتفننون أمامى فى أغلب الأوقات ببعض أناشيدها ، وأنا أدرس فى معهد القاهرة الدينى : النحو العربى ، والصرف ، والتجويد ، والفقه (على المذهب الحنفى) لهذا كانت لى حياتان : إحداهما مع هؤلاء الأصدقاء ، أجاريهم فيها ، وأحاول جاهدًا أن أستوعب ما يتحدثون عنه ، وأتقبله منهم ، والحياة الأخرى لى وحدى : أنطوى فيها على نفسى ، وألزمها بحفظ أشياء لم تكن فى ذلك الوقت مفهومة ، ولا حتى مقبولة من عقلى الصغير » .

« ومرة أخرى . . أحسست أن ثورة يولية سوف تنصفنى من تلك الطبقة ، ومن أبنائها المتميزين عنى فى كل شىء : فى المستوى الاجتماعى ، وفى طبيعة التعليم ، وفى الثقافة العامة . ومع ذلك فإننى لم أكرههم قط ، بل ظللت أحبهم ، وأميز حتى الآن وجوههم ومواقفهم الكريمة معى ، ولا أكاد أذكر لواحد منهم - على كثرة عددهم - موقفًا أساء فيه إلىّ » .

(٥)

كذلك لا ينبغى لنا أن نغفل الإشارة الذكية المفعمة بالوطنية حين يروى الدكتور حامد طاهر ما انتابه من شعور تجاه التكريم غير اللائق الذى كرم به الفرنسيون شمبليون فأساءوا إلى المصريين ، وأنت تراه بعد أن يروى وجهة نظره ، يروى لنا أنه اصطحب بعد ذلك صديقه حين زاره فى باريس ليتثبت من أن شعور صديقه لا يختلف عن شعوره هو تجاه هذه النقطة حيث يقول : « لقد كتب توفيق الحكيم عن رحلته إلى باريس ، ومن قبله رفاعة الطهطاوى ، وفيما بعد يحيى حقى . . ولم يتحدث واحد من هؤلاء عن منظر سيىء رأيته فى باريس ، وأعترف بأنه كان يملؤنى بالغضب والاشمئزاز : فى فناء الكوليج دى فرانس ، بجوار جامعة السوربون ، تمثال ضخم لشامبليون ، الذى حل رموز حجر رشيد ، وإحدى قدميه موضوعة

تمامًا فوق رأس فرعون مصرى . . طبعًا الفنان الذى صنع هذا التمثال المنفّر أراد أن يقول إ
شامبليون قد سيطر على الحضارة المصرية القديمة بحله رموز اللغة الهيروغليفية . . ولكنه ع
عن هذا المعنى بأسلوب يثير الاشمئزاز لدى أى مصرى ، يعتز بماضيه» .

(٦)

كذلك لا ينبغى لنا أن نترك هذه المذكرات دون أن نتأمل وصف الدكتور حامد طاهر لأول يوم ثقافى طويل مرّ به فى القاهرة الثقافية التى ستبقى بإذن الله منارة إشعاع ما أراد الله لها البقا ومهما تجمعت فى سمائها غيوم وسحب ، ها هو يحدثنا عن فضل أستاذه السيد أحمد صقر فيقول : « وذات يوم ، اقترح علينا السيد صقر أن نقوم بزيارة منزل العقاد . وحرصًا منه على لفت انتباه الكاتب الكبير أوصانا ـ حماسة وأحمد درويش وأنا ـ أن نكتب له قصائد تحية . . وبالفعل كتب كل واحد منا قصيدة ، وذهبنا إلى ندوة العقاد بمصر الجديدة ، وكانت أول مر أشاهد فيها تلك الضاحية الجميلة ، وهناك قدمنا أنفسنا للعقاد ، وألقينا قصائدنا أمامه ، وسعد الرجل بها كثيرًا ، ونهض فصافح كلاً منا ، ثم راح يسألنا عن دراستنا ومعاهدنا فأخبرنا أننا من الأزهر ، فراح يتحدث عنه وعن مستقبله ـ وكان يكتب أيامها كتابه عن الشيخ محمد عبده ـ لكنه أوصانا صراحةً بأن نلتحق بدار العلوم ، فهى أكثر ملاءمة لمواهبنا الأدبية ، وفى نهاية الندوة التى تحوّلت تمامًا لصالحنا ، قال لنا العقاد : « احتفظوا جيدًا يا أولاد بأستاذكم هذا . . فإنه رجل مجهول القدر فى هذا البلد » . وقد كان فرح السيد أحمد صقر بهذه الكلمة بالغًا . . وأثارت فيه مشاعر كثيرة ، فقرر أن يكون اليوم تاريخيًا ، وصحبنا إلى منزل صديقه الأستاذ محمود شاكر . . وهناك فوجئت بالأسماء التى كنت أقرأ لها فى دار الكتب : ناصر الدين الأسد ، عبد الله الطيب ، إحسان عباس . . يجلسون حول الأستاذ شاكر فى احترام شديد ، وتوقير بالغ لكل كلمة ينطق بها . كان وجودنا ـ ونحن فتيان ـ يبعث فى قلوب هؤلاء الكتاب الكبار نوعًا من الحنين إلى الشباب . وقد نجحنا يومها فى حمل الأستاذ شاكر على إنشاد قصيدته القوية « القوس العذراء» ، وهى ثورة نفس مثقفة على كل ما حولها . وأذكر أنه فى أثناء الإنشاد ضاق بأزرار قميصه ، ففتحها بعنف قائلاً : لاحظوا يا أبنائى أن الشعر العربى قد خلق للإنشاد ، وأنه لا تصلح معه هذه الملابس الأفرنجية الضيقة . . كان بالفعل يومًا ثقافيًا حافلاً ، جعلنى أشعر أننى اخترت الطريق الصحيح لحياتى : القراءة وكتابة الشعر » .

(٧)

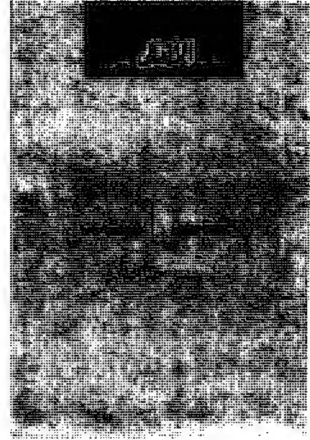
بقيت نقطة فى غاية الأهمية يعبر بها هذا الأستاذ الجامعى القدير عن رؤيته للفارق الحقيقى بين الشعر فى الشرق والغرب ، وهو يعرض لنا رؤيته بتواضع شديد فيصور المسألة من وجهة

نظره القائلة بأن الرحلة إلى فرنسا قد أثرت فى تصوره عن الشعر ، ويقول : « لكننى لا أنكر أن الرحلة إلى فرنسا قد أثرت فى تصورى للشعر كثيرًا ، وأولى علامات هذا التأثير أنها قيدت قلمى عن كتابة الشعر إلى حد كبير ، والواقع أن مفهومى للشعر قد تغير كثيرًا بعد قراءتى أعلام الشعراء الفرنسيين من أمثال أراجون ، وبول إلوار ، وجاك بريفيير الذى نشرت له عدة قصائد مترجمة فى مجلة البيان الكويتية ، إن القصيدة لدى أى من هؤلاء الشعراء موضوع قائم بذاته . . بناء متكامل ، له معماره الخاص به ، وله خطوطه الهندسية الدقيقة ، وله روحه الذى يسرى فى أوردته وشرايينه ، ثم هى بعد ذلك كله عمل مرتبط بصاحبه ، وبتطوره الفكرى والنفسى ، وأهم من ذلك بموقفه الأيديولوجى .

« إننى هنا لا أتحدث فقط عن الشعراء الفرنسيين ، بل الشعراء الغربيين عمومًا ، الذين قرأت لهم ، وأعجبت بهم ، وترجمت لهم أحيانًا ، الشاعر الغربى يصنع من قصيدته تمثالاً ، ثم يقوم بإزالة آثار الصنعة عنه ، حتى يبدو كأنه غير مصنوع . وهذا هو السر الذى يُرجَى اكتشافه . الشاعر الغربى يجعل من قصيدته تحليلاً نفسيًا دقيقًا ومتدرجًا ، يتوقف فيه طويلاً عند مناطق التأثير ، ويتجاوز مناطق أخرى كثيرة ، مهملة أو عديمة القيمة . وهو يفعل ذلك عن وعى غير محسوس ، أو هكذا يبدو للقارئ . الشاعر الغربى حر تمامًا فى تناول موضوعه ، حر تمامًا فى التعبير عنه ، حر تمامًا فى تقديمه للناس . لكن هذه الحرية [المتعددة] الأوجه محكومة بتراث طويل من النقد الصارم ، والتقاليد الأدبية الراسخة ، التى يعتبر الشاعر نفسه مسئولاً عن احترامها ، وعن كونه استمرارًا لها » .

(٨)

فإذا تناول الدكتور حامد طاهر تجاربه الإنسانية والعاطفية العميقة فى سيرته الذاتية فإنه يتناولها فى سرعة وكأنه يفعل ذلك لمجرد الاعتراف بها ليس إلا ، قد يعبر فى جملة أو جملتين عن الأثر النفسى العميق الذى تركته هذه التجربة ، ولكنه لا يشغلنا ولا يشغل نفسه أبدًا بالحديث عن هذه العلاقات والتجارب ، كأنه يراها أسمى من أن يتناولها النثر لأنه تناولها بالشعر ، قد يكون لنا أن نعتب عليه ، ولكننا لا نستطيع هذا العتاب ولن نستطيع إلا إذا فصل هذا الفصل عن حياته من ديوانه ونشره مستقلاً ، ولا أظنه سيفعل لأن هذا العالم الجليل فيما يبدو يريد أن يقول عن نفسه تلك العبارة الجميلة التى اتخذها من قبل الشاعر صلاح عبد الصبور عنوانًا لسيرته الذاتية حين قال : « حياتى فى الشعر » ولكن حامد طاهر يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه صلاح عبد الصبور رحمه الله ، فإذا هو يقدم لنا هذه الحياة لا بالشعر ، ولا من خلال الشعر ، ولا من خلال الحديث عن نفسه ولكنه يقدمها لنا فى صورة مقدمة لديوانه أو لشعره ويتمادى فى هذا التوحد إلى أن يجعل عنوانها « تجربتى مع الشعر » .



الفصل الثالث

رحيق السنين

للدكتور سمير حنا صادق

(١)

لايمكن القول بأن هذا الكتاب يمثل ترجمة ذاتية ولكنه فى حقيقة الأمر يعبر عن تجربة ذاتية غاية فى الثراء، وهى تجربة انفعال العالم بقضايا مجتمعه، ففى هذا الكتب نستطيع أن نقرأ للدكتور سمير حنا صادق مقالات متعددة يدور محورها جميعا حول فهمه العميق لقضايا العالم فى العصر الحاضر وفى ذات الوقت لمشكلة مجتمعنا فى هذا العصر الذى نعيشه، ونحن نراه مهموماً إلى أبعد حد بقضايا العلم والتكنولوجيا وتأصيل العلم فى المجتمع، وعلاقة اللغة بالفكر، وأهمية الإعلام الحقيقى الصادق، وهى أهم القضايا التى تهدد مستقبل أمتنا فى القريب العاجل إذا لم نستطع الاهتمام بها على النحو الذى يهتم به الدكتور سمير حنا صادق .

وفى غضون كل هذا لايفوت الدكتور سمير صادق أن يروى لنا بعض ذكرياته سواء عن السجن أم عن زياراته لمراكز العلوم والبحث العلمى والمتاحف العلمية فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا .

ويحفل كتاب الأستاذ الدكتور سمير صادق بكثير من الأفكار البناءة والأفكار الناقدة كالعادة فى كل كتاباته الرائعة التى تتناول شئون الحياة العامة بكثير من التأمل العميق وتأخذ بيد القارىء وعقله تجاه الطريق الصواب فى الفكر والعمل، وفى نقد الفكر والعمل كذلك ، وقد استطاع الدكتور سمير صادق منذ زمن بعيد أن يحفر لنفسه اسما بارزا ومكانة مرموقة بين كل أساتذة الطب الذين يستطيعون الكتابة فى تاريخ الحياة العلمية فى العالم، ويتميز الدكتور

سمير صادق بين هؤلاء جميعا بأنه قادر على الوصول بهذا التاريخ حتى يومنا هذا الذى نعيشه الآن ، وهو قادر على أن يعبر عن كل اقتناعاته فى شجاعة منقطعة النظير ، وعلى خلاف كثيرين جدا من أقرانه الذين يحظون بشهرة أوسع فإنه يستطيع أن يبدى آراءه بقوة اقتناع وقدرة تعبير رائعتين ، ومهما اختلف القارىء معه فانه يبقى محتفظا له بالإعجاب العميق والتقدير المتزايد ، ذلك أن الفكرة التى يعبر عنها الدكتور سمير صادق تبدو واضحة جدا فى ذهنه حتى وإن لم تكن واضحة فى كتب العلم . . وقد أفاد الدكتور سمير صادق الإفادة القصوى من قراءة تراث الإنسانية العلمى مرة واثنتين وثلاثا فى بعض الأحيان ولهذا فإنه يستطيع أن يصل فى أقصى سرعة إلى موضع الإنجاز العلمى من تاريخ الإنجازات البشرية على مدى التاريخ ، وأن يبنى على هذا كثيرا من الأفكار الرائعة والبديعة .

(٢)

على أن هذا الكتاب لايقف عند هذا الحد الممتاز من متابعة الحياة العلمية فى العالم بنظرة ناقدة ورؤية كلية ، ولكنه لحسن الحظ يتناول أيضا حياتنا التى نحياها الآن بقدر كبير من الفهم والتحليل والنقد ، وهو بحكم وطنيته الجارفة والمتزنة فى ذات الوقت يبدو مهموما إلى أبعد الحدود بالظواهر المستجدة على حياتنا . . ونرى الدكتور سمير صادق فى مقالاته التى يضمها هذا الكتاب يفزع مما يراه ولكنه لايقف بالطبع عند حدود الفزع ، وإنما يمضى خطوات رائعة ومتصلة فى طريق التأمل البناء حتى يأخذ بأيدى مواطنيه إلى المنطقة التى يرى الصواب ، وقد تموضع فيها ، ويؤدى الدكتور سمير صادق هذا الدور بديمقراطية رائعة ، فهو لا يوحى إلينا أنه يحتكر الصواب ولا الطريق إليه ولكنه مع ذلك لايستطيع أن يمنع نفسه الصادقة وضميره الحى من أن يقول عن الخطأ إنه خطأ . . وتأبى عليه وطنيته أن يسكت عن هذا الهدم المتواصل الذى يراه يعمل آثاره فى كثير من زوايا حياتنا العامه ، ومع هذا كله فإن سمير صادق لايفرض علينا رؤية واحدة ولاصوابا واحدا ولكنه يبذل جهده فى أن يقود خطوات تفكيرنا المنظم والمنتظم إلى منطقة الصواب ويترك لنا اختيار البديل الأنسب من البدائل الكثيرة المتعلقة بالصواب .

(٣)

وفى كل فصول هذا الكتاب تتبدى عقلية الدكتور سمير صادق حنا الرائعة التى تجمع بين الموسوعية والموضوعية ، وحب الوطن والناس ، وتسعى بكل ما أوتيت من قدرات إلى جلب الفائدة للقراء من أبناء هذا الوطن ، وتحرص على أن تزود عن هؤلاء القراء تيارات التجهيل والجهل وسوء النية .

وعلى سبيل المثال فإن إيمان الدكتور سمير صادق باللغة وعلاقتها بالفكر لاينبع من فراغ

ولكنه يستند إلى ثقافة رفيعة وفهم عميق ، ولهذا فإنه لاينطلق فى دعوته إلى حتمية تعريب العلوم من شوفونية قد تكون محببة إلى النفس ولكنه يتجه إلى هذا الهدف من فهم متأن لبناء العقل العربى فى كل العصور ولبناء التطور فى أى علم وفى أى مجتمع .

وفى حملته على ماسمى بالعلاجات التقليدية يصرح الدكتور سمير بما لم يستطع غيره التصريح به ، وينبه إلى الأبعاد (الدولية) لمثل هذا الجرم الطبى الذى جعل الرئيس الباكستانى الأسبق ضياء الحق يشجع العلماء على الربط بين الطاقة النووية وبين العفاريت .

وفى انتقاده لصحافة الإثارة يأخذنا الدكتور سمير صادق بثقافته المطلعة على المجتمعين العلمى والصحفى فى بريطانيا فى رحلة ممتعة من أدب الخيال العلمى الساخر الذى يملك أدوات كتابته ، والذى أخشى ألا يكون هناك كثير من القراء قادرين على تأدية حق فهمه بنفس القدر .

وفى روايته لتاريخ حياته الحافل فإن الدكتور سمير صادق يجيد استخدام اللقطات المحورية بنفس القدر الذى يجيد فيه فن اختزال الأحداث الكبرى فى رمز بسيط .

(٤)

وفى جميع فصول هذا الكتاب الممتع يظل سمير صادق مثالا للأستاذ العالم المتمكن المتواضع الحريص على وطنه ومواطنيه والناظر إلى المستقبل فى قلق عميق على الأجيال اللاحقة من تلاميذه . . ولعلنا نستطيع أن نعيد إليه بعض الطمأنينة .

يحدثنا الدكتور سمير حنا عن الشعور النفسى الذى يدفع الانسان إلى كتابة مثل هذه التجربة ويكاد يحصر أسبابه فى تقدم السن وهو يقول : «عندما ينقضى العمر ، وتتحول الدعوات لك من " ربنا يسدد خطاك ويزيد فى مقدارك " إلى دعوات أكثر تواضعا « ربنا يعطيك الصحة . . ويطول فى عمرك » وعندما تلحظ أن تلامذتك وأولادك يتحدثون إليك بصوت مرتفع لأنهم يفترضون فيك شيئا من الصمم .

وعندما يمر الوقت ويشعر الإنسان بتأثير تآكل لمعلومات الذاكرة فى المخ . وعندما تشيب رأسك وتحس بتاثير تصلب الشرايين على ما فى داخلها . وعندما تحس بقرب التحلل النهائى لهذا الجهاز الجميل الذى نرى ونحس ونسمع منه والذى يكون الـ « أنا »

عند هذا الوقت نشعر جميعا برغبة فى « تفريغ » ما فى هذا الجهاز من ذكريات نقصها على أولادنا وأحفادنا . . أو أن نسجل ما فيه على الورق .

(٥)

ويروى لنا الدكتور سمير حنا أهم تجربة سياسية مرت بحياته وهى تجربة السجن عام ثمانية وأربعين وهو يؤكد لنا أن هذه التجربة لاتزال محفورة بوضوح فى ذاكرته حتى يومنا هذا ، كما أنه يتعجب من عزوف " المساجين " من أمثاله عن رواية هذه التجربة ، وهو يقول : كنا أربعة قبض علينا عام ١٩٤٨ أثناء مؤامرة مضحكة لعمل انشقاق فى إحدى المنظمات السياسية : وليم رزق الله - طالب بنهائى طب وحاليا إخصائى أمراض نساء ، عبد المنعم الغزالى - حاليا خارج القطر ، حسين الغمرى - طالب هندسة وبعد ذلك د . حسين الغمرى أحد أهم المشتغلين بإدارة الصحف وتوفى إلى رحمة الله منذ أعوام قليلة ، وسمير حنا - طالب بنهائى طب .

« ينقسم سجن « قره ميدان » إلى ثلاثة عنابر كبيرة « أ ، ب ، ج » وعنبر « تأديب » وكان عنبر ج هو المخصص لمرضى السل والدوسنتاريا ، إلى جانب المشاغبين » .

«بعد الاستقبال المعتاد « الضرب وخلافه » وجدنا أنفسنا مع سجين سياسى آخر فى زنزانة مساحتها حوالى ٢ X ٣ أمتار ، وفى جانب منها شباك مرتفع جدا وفى الجانب الآخر باب أسود به فتحة للنظر تفتح وتغلق من الخارج ، وبالزنزانة جردلان واحد للشرب والثانى لما ليس كذلك ولكل منا برش وبطانية » .

«فى اليوم الأول استيقظت على أذان الفجر - وكان فى تلك الأيام هادئا وجميلا ، ثم سمعت من الخارج الإشارة الموسيقية لنشرة الأخبار (مارش عايدة » ثم أصوات السعال التى أعرفها جيدا ، السعال الذى يدل على وجود تآكل فى الرئة . . واكتشفنا أننا فى عنبر ج» .

« كما تنعدم فى السجن الحرية تنعدم المساواة فالمساجين درجات : كانت أول درجة «للملك » ملك السجن . وكان « الملك » رجلا أنيقا بمعنى الكلمة : قميص السجن الأزرق الكالح القصير تحول إلى جاكته تركواز جميلة اللون والمنظر ، السروال تحول إلى بنطلون أنيق ، الصندل جديد يلمع بشدة . فى جيوب جاكتته الواسعة دائما علبة كرافن الشهيرة فى ذلك الوقت : علبة معدنية حمراء كبيرة تسع خمسين سيجارة يحيى بها من يرضى عنهم . واكتشفت أن « الملك » شديد الثراء وأنه قبض عليه فى قضية احتيال ، وأنه شقيق أحد كبار ضباط الجيش فى هذا الوقت . وكان هذا جارا لنا فى شبرا وصديقا لعائلتنا . وبذا أصبحت من المقربين من الملك، وكان أهم ما حصلت عليه من ثمرات هذا « القرب » هو حق استعمال تليفون مأمور السجن فى محادثة والدتى يوميا .

«يأتى بعد « الملك » مجموعة من السجناء المدللين - مجموعة أنور السادات ، وحسين توفيق وسعيد توفيق (قضية مقتل أمين عثمان) وكان هؤلاء السجناء يعاملون معاملة خاصة

جدا لأسباب خاصة جدا لامكان لمناقشتها هنا : كانوا ينامون على سراير فى غرف منفردة بإضاءة يتحكمون فيها وفق رغبتهم وكانوا يخرجون كثيرا بحجج مختلفة ، ويزورون أهاليهم بل ويذهبون إلى السينما ، وفى إحدى هذه الزيارات دخل حسين توفيق دورة المياه فى منزل عائلته وخرج من باب آخر إلى الخارج هرب بمساعدة إحسان عبد القدوس وغيره . ولم يقبض على حسين توفيق بعد ذلك إلا عام ٦٥ فى قضية أخرى» .

«وكانت هناك فئة متوسطة المعاملة : سعد زغلول فؤاد الصحفى (حاليا فى الخارج) وشاب ألمانى يدعى كورت ميتز وغيرهما وكانوا متهمين فيها أطلق عليه اسم قضية قنبلة ٦ مايو أو سينما مترو .

«وكان هناك « الأراذل » أو « الجرب » (على رأى المغفور له) . . وقد قضينا أغلب الوقت بين عنبر ج والتأديب . كان المرحوم حسين الغمرى كتلة من الذكاء وكان دائما من أوائل دفعته فى الهندسة . وعندما فصل من كليته بدأ الدراسة من جديد فى كلية التجارة حيث حصل على البكالوريوس والماجستير والدكتوراه فى زمن قصير . وكان إلى جانب ذكائه شديد الحساسية خجولا لأقصى درجة . واكتشفنا من اليوم الأول أن حسين لايستطيع التبول أمام أحد فكان يقوم فى منتصف الليل سعيدا بما سوف يحققه من راحة منتظرة، وكنا نحن بشقاوة قاسية ، نحرص على أن نحرمه من هذه السعادة البسيطة فمجرد وصوله إلى الجردل ينبهه أحدنا إلى أنه مستيقظ ويراه . فيضطر مرغما إلى تأجيل لحظة السعادة المرتقبة» .

«تختلف أيام الأسبوع فى السجن عنها خارج السجن . . ففى قره ميدان كانت أيام الأسبوع كالآتى : السبت الأحد ، أبو عيسى ، الثلاثاء الأربعاء . . إلخ وكان أبو عيسى أكبر مورد لحوم لسجون ومدارس المملكة ، ولذا كان يطلق اسمه على اليوم الذى يذوق فيه المساجين رائحة اللحم ، وقد ربى أبو عيسى أولادا وأحفادا ممتازين وأحد أبنائه زميل عزيز إخصائى أمراض نساء ، وإحدى حفيداته عازفة مشهورة » .

«وكان ما يصل المساجين من أبو عيسى هو قطع من العظم بغطاء رقيق من الشغت أما اللحم فكان يأكله ضباط وعساكر السجن والعاملون بالمطبخ الذين كان يمكن تمييزهم فى الحال عن باقى المساجين بما يتمتعون به من سمنة وصحة وكان أكل المساجين العادى هو الفول المدمس الأسود سيىء الصنف والرائحة والطعم ، وللوقاية من مرض الاسقربوط كان يلقى للمساجين حزمة من الحشائش فى الزنزانات كل يوم» .

«ترافع عنا فى هذه القضية المرحوم الدكتور عزيز فهمى وكان محاميا نابها مشهورا متخصصا فى القضايا السياسية وابن أحد كبار وزراء الوفد (عبد السلام فهمى باشا) ثم انضم إليه تطوعا بدون أتعاب محاميان آخران : الأول محام من أثرى عائلات الصعيد : الأستاذ موريس

فخرى عبد النور والثانى الاستاذ ظريف عبد الله وكان شابا له نشاط سياسى فى ذلك الوقت. وكانت مرافعة الجميع ممتازة وحكم بالبراءة ابتدائيا وفى الاستئناف» .

«ودارت الأيام وتوفى الدكتور عزيز فى حادث وفى أحد الأيام وبعد أن أصبحت أستاذا بالطب اتصل بى أحد كبار أساتذة الطب (المرحوم الدكتور حليم دوس) طالبا منى حسن استقبال مريض سيرسله لى ، واستقبلت المريض فإذا به المرحوم الأستاذ موريس فخرى عبد النور . وكدت أقبل يديه لفضله على وذكرته بنفسى وبعد شهور قليلة توفى إلى رحمة الله . ومنذ أسابيع قليلة وبعد هجرة لفرنسا والعمل فى اليونسكو أكثر من عشرين عاما ، عاد الأستاذ ظريف عبد الله مع رفيقة حياته . . إلى مصر ليستقرا بها وأسعدنى الحظ أيضا أن أكون فى خدمتهما مهنيا » .

«ينفتح باب عنبر السجن صباح كل يوم ليدخل شاويش ينادى على المساجين بتكاليف معينة ، فمنهم من له مقابلة مع النيابة ومنهم من يذهب للمستشفى ومنهم من سينقل لسجن آخر ومنهم . . الخبر المنتظر من الجميع « إفراج »

«وفى يوم من الأيام بعد إضراب عن الطعام وبعد قضية وبعد علق متعددة جاء اليوم المنتظر: سمير حنا . . . حسين الغمرى . . . عبد المنعم الغزالى . . . وليم رزق الله . . . إفراج . وبعد جولة لابد منها على الأقسام وجدت نفسى فى شوارع القاهرة . ذهبت إلى دكان سجاير به تليفون واتصلت بالمنزل : آلو . . كمال (أخى) أنا خرجت من السجن . . صاحت السيدة صاحبة الدكان : ياالهوى ! ورفضت أخذ ثمن المكالمة وقالت لى روح يابنى ربنا يتوب عليك من البطال » .

(٦)

وعلى المستوى المهنى فإن قضية العلم والفكر واللغة تمثل أهم القضايا التى يود الدكتور سمير صادق حنا لو فرض علينا رؤيته لها ، وهو يلخص تجربته فى التدريس الجامعى لأكثر من أربعين عاما بقوله : " فالحقيقة – وقد مارس كاتب هذه السطور تدريس العلوم الطبية لما يزيد على أربعين عاما – أن التدريس بلغة أجنبية يتسبب فى خلق حائط لغوى بين المدرس والطالب ، فاللغة الأجنبية تظل دائما لغة ثانية ، ولن تبلغ أبدا فى عمق تعبيرها واستقبالها اللغة الأم التى يتعلمها الإنسان فى طفولته ، إلا فى القلة النادرة .

والحقيقة أيضا أن مسالة المراجع المفترى عليها تمثل حجة لايؤخذ بها فى هذه القضية ، فبداية فإن قلة نادرة من الجامعيين هى التى ترجع للمراجع الأجنبية وأن الأغلبية العظمى ترجع لمذكرات تكتبها الأساتذة فى مصر ، وعلاوة على ذلك فإن قضية المراجع يمكن التغلب عليها

باشتراط إجادة لغة أجنبية -إنجليزية أو فرنسية أو ألمانية إلخ، ولا داعى للتمسك بمصدر واحد للمراجع - قبل التسجيل للدرجات العليا فى العلوم المختلفة .

ولكن يبقى ، حتى بعد هذا الحسم الواضح للقضية ، وجه آخر لم ينل حظه من النقاش ، وهو العلاقة بين اللغة والفكر ففى واقع الأمر فإن هذه العلاقة أكثر خطورة فى أثرها عن أى من الأبعاد السابق ذكرها . ولذلك فإن تعريب تدريس العلوم أهم من أن يناقش من ناحية تأثيره على الاستيعاب ، وأخطر من أن يناقش من منطلقات شوفينية قومية . . فالموضوع يتعلق بأسلوب تفكيرنا وبسرعة انطلاقنا إلى رحاب القرن الواحد والعشرين » .

«لقد أثبت علماء اللغة أن " الفكر " هو " اللغة " فالكلمات - لبنات اللغة - هى لبنات الفكر . ولولا كلمات سرعة وشجاعة وغباء وبخل "ولولا الكلمات المعبرة عن التجريد الرياضى ، لولا هذا كله لما وجدت الفكرة التى تعبر عنها هذه الكلمات ، بل إن التفكير كلام محبط ، وأحيانا كما نعلم ، يزول هذا الإحباط ويبدو المستغرق فى التفكير وهو يحرك شفتيه ولسانه وكأنه يتكلم » .

وعلاوة على ذلك ، فإن اللغة المكتوبة تمثل تراكما مهما للمعلومات والفكر . ولعله من الممكن أن نعتبر أن هذا التراكم يمثل مرحلة فى التطور السريع للجنس البشرى بعد مراحل التراكم البيولوجى البطىء على جزيئات الدنا D.N.A ولقد مكن هذا التراكم اللغوى للمفكر فى عصرنا الحالى أن يتناول كتابا من أرفف المكتبة ليضيف إلى أفكاره فكر أرسطو أو ماركس أو غيرهما وليست وظيفة اللغة ، كما يظن البعض ، هى الاتصال بل إن وظيفتها فى هذا المجال هى الفكر أى نقل الفكر من عقل إلى آخر، فالاتصال فى حد ذاته له وسائله الخاصة غير اللغة - من تعبيرات بعضلات الوجه ، إلى إشارات باليد التى تحررت بوقوف الإنسان على قدميه ، إلى حركات الرقبة الجسد ، وهى كلها خواص لا ترتبط بالإنسان فقط ، فالقردة والنحل وأغلب أفراد المملكة الحيوانية ، بل والنباتية أيضا ، تقوم بدرجات مختلفة من الاتصال، وكثير من وسائل الاتصال فى الإنسان موروثة وموجودة فى القبائل البدائية النائية عن الحضارة بنفس المعانى التى تحملها فى أرقى الشعوب المعاصرة وعلاوة على ذلك كله ، فلقد لاحظ العلماء العلاقة الوثيقة بين مراكز العمل والكلام والفكر فى المخ . انظر إلى شخص يلضم إبرة أو يستعد لضربة الإرسال فى التنس وستراه يحرك لسانه يمنة ويسرة وداخلا وخارجا كأنه يبحث عن فكرة كلمة تساعده فيما يعمل» .

(٧)

وبعد أن يورد لنا صاحب التجربة أمثلة من اتساع اللغات للمفردات الجديدة ينادى بضرورة تطوير المفاهيم فيقول : " وغنى عن البيان أن اختلاف المعانى بين هذه الكلمات يعبر

عن مفاهيم يحتاج إليها البشر فى تعاملهم فى العصور الحديثة وفى الحوار وتفاعل الأفكار حول المواضيع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة .

« لابد إذن لتطوير المفاهيم أن تتطور اللغة ، ولقد تطورت لغتنا بالفعل خلال القرن العشرين ، وأضيفت لها العديد من الكلمات والأفكار ولكننا بفشلنا الحديث فى تدريس العلوم الطبيعية والطب والهندسة باللغة العربية ، قد انهزمنا فى أهم معركة لتطوير لغتنا وفكرنا إلى متطلبات القرن الواحد والعشرين ، دون أن ندخل هذه المعركة وبهذا أجهضنا تقدمنا إلى عصر العلم والصناعة . فلو أننا فرضنا على أنفسنا تدريس هذه العلوم باللغة العربية لاضطررنا إلى وضع المصطلحات التى تناسب هذه الأفكار ، مثلما اضطررنا لقبول كلمات مثل التلفزة ، ولانسابت هذه المصطلحات إلى مثقفينا وكتابنا ومنهم إلى شعبنا حاملة معها محتوياتها من المعانى والفكر » .

« وبهذا كنا ، عندما درسنا هذه العلوم باللغة الانجليزية ، تسببنا فيما يطلق عليه الأطباء تعبير ضمور عيب الاستعمال DISUSE ATROPHY كأهل الصين القدامى الذين اعتادوا على وضع أقدام فتياتهم فى أحذية من الحديد لمنع نموها ، وبذا وقفنا نمو لغتنا وفكرنا ونتج عن ذلك إصابة قمة مفكرينا بشيزوفرينيا فكرية ثلاثية : فهم يتكلمون العامية ، ويكتبون الفصحى ، ويفكرون بالإنجليزية ، وهى مأساة فكرية تحتاج إلى علاج عاجل » .

« وليس هناك علاج أقوى من أن نتحذ قرارا سريعا يضعنا أمام الواقع بتعريب تدريس العلوم وحتى لو تسبب هذا فى انخفاض مستوى التدريس - ولن يحدث - فهو ثمن تافه مقابل لحاقنا بالفكر والعقل المعاصرين . ويمكن تفادى هذا الضرر تماما باشتراط إجادة اللغة الأجنبية على طلبة الدراسات العليا »

وفى مقال آخر جعله ختام هذا الكتاب يعبر الدكتور سمير صادق عن هذا المعنى بعبارات اكثر تحديداً ووضوحا فيقول : « تمسكت قياداتنا اللغوية والثقافية خلال نصف القرن الأخير ، الذى تطور فيه علم اللغويات هذا التطور الهائل ، بلغتنا الفصحى كما هى بلا تطوير من منطلق أنها تمثل مخزوننا الوجدانى ، وأنها الرابطة الأساسية بيننا وبين أشقائنا فى البلدان العربية الأخرى ، وهو وضع يماثله أن يتمسك الإنجليز بلغة شكسبير فى مسرحياته فى حياتهم اليومية . ولقد أصبح تمسكنا المتعسف هذا بلغة لا ينطقها صحيحة بإعرابها وبتشكيلها إلا بعض مئات من ستين مليونا يتحدثون لغة أخرى تعلموها وأجادوها فى مرحلة تكوينهم الأولى (مرحلة الأجرومية الخلاقة) وضعا معطلا فى طريق تقدمنا ، وفى وقت بدا الكمبيوتر يتعامل فيه مع اللغات مسموعة ومقروءة ومترجمة ومصححة ، وأصبح هذا التمسك المتعسف عقبة كأداء لابد من تخطيها لمواكبة ركب الحضارة والدخول إلى القرن الحادى والعشرين .

وليس لى . وأنا غير المتخصص ، أن أقترح الحلول ، ولكنى أعلم علم اليقين أن طريق الحلول يمر بالعلم وبالمنهج العلمى وبالدراسة ، وبالإضافة البناءة إلى أبحاث مدارس علم اللغويات . وإن الوقت قد أزف لتقوم أقسام اللغة بالجامعات المختلفة بدورها المهم فى هذا المجال .

كذلك تحظى قضية البحث العلمى باهتمام الدكتور سمير حنا إلى أبعد حد ، وهو يتناول هذه القضية بمناسبة ما أثير عن علاج فيروسى بالأعشاب فيلخص رأى العلم على النحو التالى :

« ومتطلبات البحث العلمى الطبى الاكلينيكى منذ الخمسينات صارمة ومعروفة ويدرسها أى طالب بحث يحترم علمه :

وأولها : متطلبات أخلاقية تفرضها اتفاقيات دولية أهمها اتفاقية هلسينكى التى تتطلب .

– عدم إجراء أى بحث على بشر إلا على بالغ عاقل يعرف معرفة تفصيلية ماهو مقبل عليه .

– عدم استبدال علاج غير معروف بعلاج معروف للتجربة إلا فى أحوال معينة .

– عدم إجراء أى بحث على بشر إلا بعد إقراره من لجنة محايدة تقر بجدواه وجدارته .

– عدم تجربة أى دواء إلا بعد دراسة وافية وكاملة عن سميته وفاعليته كيميائيا وباستعمال حيوانات التجارب . . الخ

وثانيها : متطلبات علمية يفرضها المنهج العلمى . فنموذج Paradigm البحث العلمى الطبى الاكلينيكى يتطلب شروطا خاصة مبنية على ظروف تحكمه . وببساطة لا تخل بالحقيقة ، فإنه إذا تقاضى مريض دواء ما وشفى من مرضه بعد ٧ أيام فإن هناك عدة تفسيرات منطقية لهذا الشفاء :

– إن المريض كان سيشفى سواء تعاطى الدواء أو لم يتعاطه .

– إن المريض كان سيشفى بعد ٣ أيام لو لم يتعاط هذا الدواء .

– إن المريض شفى فعلا بتاثير الدواء ولكن المرض سيعاوده بعد ذلك .

– إن المريض شفى من المرض ولكنه سيصاب بمرض آخر خطير « السرطان مثلا » بعد ذلك بسنين .

وآخر هذه التفسيرات طبعا هى أن الدواء فعلا يشفى المرض .

فإذا اتضح ذلك فان الخطوة التالية – قبل انتشار استعماله – هى دراسة الجرعة والسمية

والتفاعل مع الأدوية الاخرى ومحاولة عزل المادة الفعالة بل ومحاولة تخليقها كيميائيا بل وتخليق مواد أخرى مشابهة لها .

هكذا يكون البحث العلمى الطبى الكريم الشريف الذى يهدف إلى مساعدة المرضى

أما ما يحدث فى أحد أكبر المراكز العلمية فى مصر ، فقلمى يعف عن وصفه » .

(١٠)

ومن أطرف فصول هذا الكتاب ذلك الفصل الذى كتبه مؤلفه تحت عنوان « دعابة علمية ـ كوكب يفقد توازنه » وفيه يروى قصة خيالية تماما عن ظهور انحراف فى حركة البندول الموجود فى متحف العلوم فى لندن ، ويؤكد الدكتور سمير حنا هذه الدعابة بأن يجعل تاريخ حدوثها يوم ٣١ فبراير ١٩٩٣ وهو يوم لا وجود له ، ثم يروى د . سمير حنا هذه الواقعة بالتعليقات المتخيلة عن هذه الواقعة فى الصحافتين الإنجليزية والمصرية وكأنه يريد - بل إنه يبلور وجهة نظره فى أسلوب هاتين الصحافتين فى الحديث عن الأخبار يقول الدكتور سمير حنا :

هكذا تحدثت صحف الإثارة الإنجليزية التى تعلم فيها قادة الإعلام فى مصر :

الديلى ميل : « كوكب الأرض يرقص على موسيقى البوب » .

الديلى اكسبريس : تحت صورة لفتاة شبه عارية تهز وسطها « العالم كله بيهز وسطه » .

الديلى ميرور : بعد أخبار آخر سباق لكلاب تحدثت عن الحدث بها نشيت باللون الأحمر بعبارة يمكن ترجمتها بلغتنا الجميلة إلى « هز يا وز » .

أما الصحافة الوقورة فكان تعليقها كالآتى :

التايمز : نشرت الخبر فى صفحة العلم وفى مربع صغير.

الأوبزرفر الأسبوعية : نشرت تحليلا علميا طويلا شرحت فيه نظرية بندول فوكو والجيروسكوب وتحدثت فيه عن احتمالات أسباب ما حدث وعن طرق العلاج الممكنة .

القاهرة ٤ مارس ١٩٩٣

لم يتأخر الإعلام المصرى فى أداء واجبه نحو الشعب فى الحديث عن الظاهرة :

فقد أذاع التليفزيون بيانا لوزير الإعلام قال فيه « إن مصر تعيش أروع أيام الديموقراطية وأنه لاتوجد أى قيود على الكلمة الحرة » وأكد على أن قنوات التليفزيون الفضائية سوف تستمر فى خدمة المواطن المصرى أينما كان .

وأذاع التليفزيون فى آخر نشرة له يوم ٦ مارس أن أستاذا جامعيا مشهورا قد عقد مؤتمرا صحفيا قال فيه إنه تمكن من اكتشاف علاج لهذه الظاهرة وإنه رفض عروض الشركات الأجنبية

التى تتهافت على شراء حق استعماله ، وتحدثت الجرائد اليومية والأسبوعية بعد ذلك عن ذلك الأستاذ الذى وصفته بأنه عالمى وأنه مرشح لجائزة نوبل .

ونشرت صحيفة معارضة فى عددها الأسبوعى مقالا قالت فيه .

ـ أربعون سنة ونحن نرزح تحت حكم الاستعباد والاستبداد .

ـ وقد استولى اللصوص على قصور وأملاك الأصحاب الحقيقيين للبلاد .

ـ إن سويسرا بلغت ما بلغته بالمبادرات الفردية .

ـ وإن أمريكا وصلت إلى ماوصلت إليه بنفس الطريقة .

ـ ولكن هؤلاء اللصوص الذين أغرقونا فى مجانية التعليم والعلاج مازالوا يعيشون فى الأرض فسادا .

ونشر رئيس مجلس إدارة صحيفة قومية مقالا يقول فيه إنه معروف عنه عزوفه عن التملق «ولكنه لايستطيع أن يكتم رأيه ويحجب رغبته فى إعطاء كل ذى حق حقه وقال «أثبتت الحقائق العلمية بعد نظر السيد رئيس الجمهورية وثاقب بصيرته كما أوضحت الأحداث ضحالة فكر زعماء المعارضة من عملاء الشيوعية الحمراء الملحدة الدولية الذين أعمتهم النقود والقصور والفودكا عن إدراك حقائق العصر » .

وأصدرت إحدى النقابات المهنية بيانا مختصرا قالت فيه « الإسلام هو الحل » . .

ولعل هذا هو نفسه مايدفع الدكتور سمير صادق فى فصل آخر من هذا الكتاب عنوانه «المهمة الغائبة عن مؤسساتنا الثقافية» إلى توجيه انتقاد حاد إلى الإعلام المصرى حيث يقول : «أما عن إعلامنا فحدث ولاحرج : لقد اختصرت صحافتنا القومية ما تقدمه من مادة علمية إلى ما يشبه الإعلانات عن أمجاد كاذبة وانتصارات خيالية عن « أول دواء لمرض . . » و«أكبر عملية لإزالة . . » إلخ وهى فى حقيقتها إعلانات مدفوعة الأجر – نقدا أو عينا . ويكفى أن أكبر الصحف المصرية كانت إلى عهد قريب ، تنشر باب العلم فى مربع صغير بجوار « صدق أو لاتصدق » و « بختك اليوم » .

فإذا انتقلنا إلى التلفزيون فإن المصيبة أفدح . فعلاوة على ما يبثه التلفزيون من جهل ودجل فإن ما يعرضه من برامج علمية – وهو أقل من القليل – هو فى حقيقة الأمر فتات من برامج علمية يعرضها التلفزيون البريطانى أو الأمريكى يعلق عليها فى نسخها الأصلية علماء خبراء فى العلم وفى التربية ، يهدون فى تعليقاتهم الذكية شبابهم إلى احترام وحب العلم ويثيرون فيهم الفضول العلمى البناء والتساؤل الذكى ، ولكن تليفزيوننا لا يترك حتى هذا الفتات على ما كان عليه من تعليق وإنما يترك ذلك لغير المختصين من المعلقين والمعلقات الذين يصبون الماء

البارد على حماس الشباب وحبهم للعلم والمنهج العلمى بتعليقاتهم السطحية الساذجة » .

« ثم يحاول التليفزيون أن يستبدل بالحديث عن العلم والمنهج العلمى الحديث عن التكنولوجيا ناسيا أو متناسيا أن شجرة العلم الوارفة جذورها هى العلوم الأساسية كالطبيعة والرياضة والأحياء وعصير حياتها هو المنهج العلمى . وثمارها هى العلوم الإنسانية . وهكذا فإن التكنولوجيا هى ثمرة من ثمار عديدة للعلم لابد قبل استيعابها من وجود جذور قوية توفر الغذاء الكافى لنمو الثمار المختلفة » .

(١٣)

ويتصدى الدكتور سمير حنا فى « رحيق السنين» لكثير من الظواهر والمعتقدات الخاطئة فى حياتنا ، من ذلك شرحه الوافى للفرق بين العلم والتكنولوجيا فى مقال كامل نجتزئ منه هذه الفقرة : «وعلاقة العلم بالتكنولوجيا علاقة وثيقة ، فازدهار العلوم الأساسية نتج عنه طوفان من التكنولوجيا ويكفى أن نتذكر دراسات فارادای M Faraday (١٧٩١-١٨٦٧) وما نتج عنها من مئات الألوف من الاجهزة التى تعتمد على الكهرباء أو أثر دراسات الكم وأشباه الموصلات على عشرات ألألوف من الالات الالكترونية . ولكن الزعم بأن التكنولوجيا هى العلم ، وإطلاق أسماء وهمية عليها مثل « العلم التطبيقى » أو « العلم النافع » زعم كاذب وخطر» .

« وهو زعم كاذب ، كما سنثبت فيما بعد بالتفصيل لأن التكنولوجيا قد سبقت العلم بملايين السنين . فحيوانات الشمبانزى تستعمل تكنولوجيا معينة (العصا) فى الصراع وفى استخراج العسل والحشرات من الشقوق لتأكلها ، دون أن تعرف وتدرس قوانين الروافع . وما مارسه قدماء المصريين من تحنيط وبناء للمعابد والمسلات الرائعة ، هى ممارسة للتكنولوجيا فى أعلى مظاهرها ولكنها ليست " علما " بما يتطلبه العلم من منهج صلب له أساليبه وضرورياته» .

« وهو استنتاج خطر لأن التكنولوجيا الحديثة مبنية فى أغلب صورها على العلم ، واستيرادها فى غياب العلم سفاهة وإسراف ومظهرية لا مكان لها فى البلاد النامية ، ويكفى أن نتذكر أنه بينما تصرخ الجهات المختصة فى أمريكا احتجاجا على استعمال الكمبيوتر كآلة كاتبة Word Processor فإننا فى مصر نستعمله إما كديكور فى مكاتب القيادات أو كوسيلة للعب (أتارى) أو لتحديد نمر الفائزين فى الياناصيبات المختلفة ، وعلاوة على ذلك فإن استبدال التكنولوجيا بالعلم يحرمنا من فروع أخرى وثمرات متنوعة عديدة للعلم ولعل أهمها العلوم الإنسانية » .



الفصل الرابع

خواطر فى بلاط صاحبة الجلالة

لعبد الله عبد البارى

(١)

كانت الصحف فى مصر الحديثة تظهر وتختفى ولا تعاود الظهور ، ولكنها فى مصر المعاصرة أصبحت تنهض وتنمو مع أن الأجيال السابقة لم تكن تقل عن (إن لم تكن تتفوق على) الأجيال اللاحقة من صحافيينا الممتازين ، وإلى فن « الإدارة » يرجع الفضل الأول فى هذا النجاح الذى أصابه بنيان الصحافة المصرية ، صاحبة الجلالة . وثمة رجلان يرمزان إلى هذا الفن بما حققاه وبما بذلاه وبما وصلا إليه من مجد ، وهما أستاذ وتلميذه ، وقد يتفوق التلميذ على الأستاذ فى بعض النواحى . . الأستاذ هو الدكتور سيد أبو النجا ، والتلميذ هو الأستاذ عبد الله عبد البارى .

كتب سيد أبو النجا مذكراته واختار لها عنوان « ذكريات عارية » وها هو عبد الله عبد البارى يكرم قلمه عندما وصل سن الستين فيكتب « خواطر فى بلاط صاحبة الجلالة » ويجعل هذا الكتاب من جزأين الأول يتضمن سيرة حياته باختصار رائع ، والثانى يتضمن مجموعة مقالات ممتازة كتبها منذ ١٩٦٩ وطوال ربع قرن من آن لآخر فى الأهرام ، بعضها يمثل عصارة خبرته كرجل الإعلان الأول ، والبعض الآخر يمثل خواطر المواطن المسئول ، أو المسئول المواطن !

ويعنينا فى هذا الفصل أن نطالع سيرة عبد الله عبد البارى الذاتية التى كتبها فى حوالى مائة صفحة من الورق المصقول الذى يليق بتسجيل هذه الحياة حين يكرم صاحبها بها نفسه عند بلوغه سن الستين .

ونحن نجد عبد الله عبد البارى فى لحظة صدق هائلة مع نفسه وهو يكتب هذا الكتاب ، فهو منذ السطر الأول فى الإهداء يعبر لنا عن أعماق نفسه الراضية المؤمنة ، مع أنه من الصعب على المرء فى مثل موقعه أن يستعيد كل هذه الذكريات فى ظل الجو النفسى المشحون بإدارة الأعمال والمقابلات واللقاءات والأرقام الضخمة والمسئوليات الجسيمة ، كيف يستطيع الإنسان وهو يمارس هذا كله أن يركز فى تاريخ حياته الماضية ليصورها مثل هذا التصوير الدقيق وليضع يديه على نقاط المعاناة فيها ، صحيح أن الإنسان منا لا ينسى مثل هذه المعاناة أبدًا ، ولكن كيف يستطيع الإنسان المشغول تمامًا بمسئوليات الإدارة العليا أن يخلو إلى نفسه ليبحث عن ملفات السنوات الماضية فى التلافيف العميقة من مخه ؟ هذا هو ما لا يتاح إلا للأذكياء الذين يستطيعون أن ينتقلوا فى مناقشاتهم من موضوع إلى آخر مختلف تمامًا ، بنفس القدرة من التركيز.

إذن فقد تمكن عبد الله عبد البارى من تقديم ما لم يقدمه غيره حتى اليوم ، فقد استطاع أن يكتب مذكراته الشخصية وهو فى قمة المسئولية وقمة الانشغال ، ومع هذا فقد كتبها بنفسه وبدون أن يستعين بأحد على الإطلاق ، ولو استعان بأحد آخر لكانت هذه المذكرات شيئًا آخر، ولكنها على النحو الذى قدمها لنا شيء يندر وجوده ، ويستحيل تكراره .

(٢)

ربما تكون هذه السيرة التى كتبها عبد الله عبد البارى بمثابة أول مونولوج حقيقى فى التراث المعاصر لهذا الفن الأدبى ، وقد كتب صاحب السيرة هذا المونولوج الطويل دون أن يقصد ، ولكنه عبر لنفسه أولاً وقبل أن يعبر عنا عن فهمه لهذه الحياة التى عاشها على هذا النحو ، ولا يزال عبد الله عبد البارى ينظر إلى نفسه على أنه شاب ، لعله لا يزال يحس أنه شاب بما أوتى من النشاط الجم والفعالية ، وهو لهذا السبب لا يركن فى هذه المذكرات إلى إبراز حكمة الشيوخ، وكل الحكمة التى فى هذه المذكرات هى الحكمة التى يضعها الشباب صوب أعينهم، أما حكمة الشيوخ التى يهضمها أذكياء الناس فى أخريات العمر فغائبة تمامًا عن هذه السيرة الذاتية مهما حاول صاحبها أن يتفسلف ، وللقارئ أن يطالع عبارات كثيرة لعبد الله عبد البارى من مثل قوله : « ومن هنا عُنى الأفراد وعنيت الجماعات فى كل زمان ومكان على أن تعرف تاريخ الفرد بنفس العناية والاهتمام الذى يعنى به الأفراد والجماعات فى معرفة حياة الشعوب والأمم والدول . فمن الأمور المتفق عليها ، والتى لا تحتاج إلى إقامة الدليل عليها ، أن كل إناء ينضح بما فيه ، وهذا القول يصبح أكثر صدقًا عندما يُطبق على الإنسان ، فإن تصرف الإنسان فى أمر من الأمور أو حكمه على الأشياء ثم قراره عندما تحين ساعة اتخاذ القرار أمور تنبع من داخله ، وتعبر فى كثير من الأحيان ، بل فى كل الأحيان عن ذاتيته وخاصيته هو،

ومهما كانت قيمة المؤثرات الخارجية على ذلك الإنسان ، فإن تصرفه أو ما يصدر عنه من قول أو فعل يتميز دائماً بتلك الخاصية أو الذاتية » .

« وليس أصدق قولاً من الكاتب أو الشاعر أو الأديب عندما يتحدث عن تلك الذاتية التى تميزه هو عن سواه من بنى البشر ، ولسوف تبقى على الدوام لكل كاتب أو أديب أو فنان أو قائد أو زعيم شخصيته المتفردة ، والتى تميز كلا منهم بذاته عن غيره ، مهما بدا من مسحة تشابه أو شبهة خلط بين بعضهم البعض، ذلك أن مخزون كل نفس يختلف اختلافًا بينًا وشاسعًا من فرد لفرد ، تمامًا كاختلاف البصمات ، فلكل إنسان بصمة فريدة تميزه عن سواه ، وكذلك مخزون نفسه ، فهو فريد كذلك، ومن هنا يجىء ذلك المخزون عندما يبدأ فى الخروج من مكمنه مختلفًا متباينًا هو الآخر عن مخزون سواه » .

« وبعض الناس يولدون ويعيشون ويحيون ويموتون دون أن تتاح لهم فرصة إثراء الحياة البشرية بمخزونهم هذا من العلم والتجربة والاكتساب والخبرة إلا بقدر محدود كأن يصبوا هذا المخزون فى أبنائهم ومن يحيطون بهم من دوائر محدودة ، وبعض الناس يقدمون هذه الثروة من خلال مدرسة أو جامعة أو جامع أو صحيفة أو كتاب أو لوحة أو لحن إلى آخر وسائل التعليم والإعلام والثقافة . ويبقى بعد كل ذلك أن الإنسانية كلها من خلال ما يتبقى من هذه التجارب وما ينفع ، تتقدم وترتفع ألويتها ، من أجل تقدم الإنسان ورفعته فى الأرض . وخير ما يمكن أن يتركه على الأرض بشر ، هو علم ينتفع به الناس ، كما جاء فى الحديث الشريف ، ولا غزو إذن أن تكون أول آية تنزل فى القرآن على لسان سيدنا محمد « صلى الله عليه وسلم » ، هدى من الله سبحانه وتعالى للعالمين هى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

هذاهو ما قاله عبد الله عبد البارى منذ سنوات عشر ، ولكنه اليوم يستطيع أن يقول إنه كان يظن ذلك كذلك ، فالأمور فى حيوات الإنسان أعمق من هذا التصوير الميكانيكى بالطبع وحين يتحدث عبد الله عبد البارى مقدمًا حياته فإنه يجعل الحدث المحورى فيها هو قرار رئيس الجمهورية ورئيس الاتحاد الاشتراكى المصرى بانتدابه لرئاسة مؤسسة الأهرام ثم بتعيينه رئيسًا لهذه المؤسسة ليصبح بذلك أول إدارى يصل إلى هذا المنصب الخطير ، وقد كان عبد الله عبد البارى بالطبع صادقًا مع نفسه وهو يسجل لنا هذا الانطباع (بدون وعى أو بوعى) حين بلغ الستين ، ولكنى اعتقد أنه لو قدر له أن يعيد كتابة حياته اليوم لأعاد الصياغة بحيث جعل هذا الحدث يأتى فى سياقه الطبيعى من حياته الطويلة ، وبحيث يفيض فى الحديث عنه ما شاء من دون أن يبدأ به الحديث عن سيرته فى صفحات ١٠ و ١١ و ١٢

(٣)

كان فى وسع عبد الله عبد البارى أن يجد فى حياته العريضة الممتدة نقاطًا أقوى وأروع بكثير من توليه منصبًا خطيرًا كرئاسة الأهرام ذلك أن ارتقاءنا الدرجة الأخيرة من السلم حين نكون قد وصلنا الدرجة قبل الأخيرة لا يمثل إنجازًا على الإطلاق إذا ما قورن مثلاً بتصميمنا على أن نشارك قلة قليلة فى إنجازها بيتًا ضخمًا يكون عرقنا المتواصل فيه بمثابة الأسمنت الذى جعل أحجاره المتناثرة تتماسك لتصنع بيتًا كبيرًا .

هذا هو ما حدث بالفعل لعبد الله عبد البارى حين شارك بكل فعالية فى بناء مؤسسة الصحافة المصرية ، وحين كان يبنى مع غيره فاجأتهم الظروف القاسية لنقل موقع البناء مرة بعد أخرى ، فإذا هم ينتقلون بكل خبرتهم ومحصلتهم فى البناء من بناء « المصرى » القلعة المصرية الأولى للصحافة الوطنية إلى دعم « أخبار اليوم » المؤسسة الصحافية المصرية الناهضة ثم إلى تجديد وتطوير « الأهرام » المؤسسة القديمة التى تمصرت تمامًا وتقدمت باطراد .

ومن الطريف أن أستاذه فى إدارة الصحف الدكتور سيد أبو النجا قد مر هو الآخر بنفس المراحل وإن اختلف التوقيت .

(٤)

وفى حياة عبد الله عبد البارى التى رواها لنا فى هذه المذكرات مواقف رائعة كثيرة تدل منذ البدايات المبكرة على أنه نشأ ليكون رجلاً ذا شأن ، وهو يحكى هذه المواقف بسرعة وتواضع ، ولكنه يطلعنا عليها وهو مؤمن بأهميتها فى تكوين رؤيتنا لجهده طيلة حياته .

ولعل أولى هذه المراحل هى انتقاله للعيش فى القاهرة مع عمه فى سن السادسة فهنا يكتفى عبد الله عبد البارى برواية الحدث دون أن يروى لنا انطباعاته عن الفروق بين شوارع القاهرة وشوارع القرية ، هنا لا نرى طفلاً رأى السيارات ولا الترام ولا النساء السافرات ولا الازدحام ولا أى شىء من هذا . . ليس هناك فرق بين بيت القرية ولا بيت المدينة ، ولا بين هذه الأسرة وتلك الأسرة ، ولا بين المدرسة الإلزامية فى قريتهم ومدرسة القربية بباب اللوق ، هنا يتضح للقارئ أن عبد الله عبد البارى لم يمارس الصحافة ولا الأدب إلا من مرحلة الفكر الفوقى ، فهو يختزل التجربة الثرية كلها فى سطور روتينية تناسب ملفه فى شئون العاملين ولا تناسب صفحات سيرته الذاتية ، واقرأ معى سطور عبد الله عبد البارى وهو يحكى عن نقطة الانتقال الأولى فى حياته فيقول : « وفى سن السادسة التحقت بالمدرسة الإلزامية فى قريتنا ، وبدأت أعرف الكتاب والكراس والنشيد ، وجاء عمى اليوزباشى فى ذلك الوقت عبد الوهاب عبد

البارى فى زيارة للقرية تعود عليها فى كل عيد من الأعياد ، وكانت تلك عادة الموظفين فى المدن، الود الدائم للأهل والاشتراك معهم فى كل المناسبات ، وكان يتابع مراحل تعليمى فى الكتاب وفى المدرسة الإلزامية ، وقال لأبى ، إن ابنك نجيب ، أرسله معى يتعلم فى المدينة ، وسوف يكون ابنًا لى كما هو ابن لك ، وخاصة أن عمى كان والدًا لثلاث بنات ، فاتخذنى منذ ذلك اليوم ولدًا ، ووافقت أمى شريطة أن تدوم زيارتى لها فى القرية عندما يأتى إليها عمى ، ودخلت مدرسة القربية بباب اللوق ، فى السنة الأولى ، إذ كان عمى ضابطًا فى ذلك الوقت بالأورطة السادسة مشاة بطرة والأورطة هى الكتيبة الآن . وبدأت أتنقل من مدرسة إلى مدرسة ومن بلد إلى بلد ، حيث يتنقل عمى كعادة ضباط الجيش ووحداتهم فى ذلك الزمان ، فبعد القاهرة ، سوهاج ، فالعريش ، فالزقازيق ، فالإسكندرية ، وكنت فى السنة الثانية الثانوية ، ومات أبى ، وهو يجرى عملية فى منيا القمح وكان ذلك عام ١٩٣٨ » .

هكذا مضت ثمانى سنوات من عمر عبد الله عبد البارى بسرعة شديدة (فى هذه المذكرات) جدًا للأسف الشديد ، أسف القارئ والناقد ، ولكنها كانت بلاشك ثرية جدًا فى حياة هذا الصبى .

وبعد عامين اثنين وفى سنة أربعين استشهد عمه فى الحرب العالمية الثانية وعاد إلى قريته ، ولكن والدته العظيمة قررت أن تتولى أمر استمراره فى التعليم ، والتحق عبد الله عبد البارى بداخلية الزقازيق الثانوية وبدأت والدته تبيع أرضها قيراطًا قيراطًا حتى أتم تعليمه ! !

وعلى حين كان يخطط له أن يدرس الطب ، فشل فى النجاح فى السنة الأولى من كلية العلوم وانتقل إلى كلية الآداب ، هنا يطلعنا عبد الله عبد البارى على عظمة عميد كلية العلوم الدكتور مشرفة الذى كان يتعمد مقابلة الطلبة الراسبين الذين سيتركون كلية العلوم إلى كلية أخرى بسبب رسوبهم ، يروى لنا الأستاذ عبد الله عبد البارى هذه القصة وكأنه يريد ـ من حيث لا يحتسب ـ أن يجعلنا نرثى لحالنا حين يصعب على العميد اليوم أن يجد الوقت اللازم لحل مشكلة أحد الأساتذة لا الطلاب !!! يقول عبد الله عبد البارى : « وأراد عميد الكلية الدكتور مشرفة باشا أن يعرف سبب سحب أوراقى ، وذهبت إلى لقائه وكان عالمًا مهيبًا جليلاً، وأذكر أنه قال لى : لا تثريب عليك إن تعثرت فى كلية العلوم سنة ، وباستطاعتك أن تعوض ما فاتك ، فلما وجد إصرارى قال لى « اذهب فإنى أعجب أشد العجب لأمرك ، فأنت تترك درة الجامعة ، كلية العلوم ، لتلتحق بجاراجها ـ كلية الآداب ، اذهب إلى الجاراج إذن » وتسلمت أوراقى وقدمتها إلى كلية الآداب .

(٥)

ولا يتوانى عبد الله عبد البارى عن إحاطة الجيل القادم بهذا الشعور من الأسى على ظروفهم الصعبة التى تقدمهم إلى الحياة العامة بسرعة شديدة من دون أن تتهيأ لهم الفرصة الكاملة للنمو الثقافى والرياضى والاجتماعى قبل تخرجهم من الجامعة . . ها هو عبد الله عبد البارى يستأذن القارئ فى وقفة اعتراضية ليتحدث عن التكوين الممتاز الذى أتيح له ، وكأنه يريد أن ينبه الشباب العجولين الذين يظنون أنفسهم برطانة اللسان وعلاقات الأهل ـ فحسب ـ قادرين على أن يصلوا إلى ما وصل إليه عبد الله عبد البارى وأمثاله فى سهولة ، فإذا هم يفشلون ويفشلون مهما حققوا من نجاحات على الورق . . وها هو يتحدث فيقول: «وأستأذن القارئ فى وقفة اعتراضية لهذا التسلسل التاريخى للأحداث التى غلفت حياتى ونشأتى الأولى لكى ألقى بعض الضوء على الجوانب التى اكتسبتها فى مجال الثقافة ، والرياضة ، والعمل العام خلال دراستى الابتدائية والثانوية والجامعية قبل أن أتخرج ، والتحق بمعهد الصحافة ، وبالوظيفة ، فلقد شغفت شغفًا فائقًا بالانضمام إلى الحركة الكشفية فى المدارس الابتدائية والثانوية ، والتحقت بفريق الجوالة فى الجامعة حتى صرت رئيسًا للفريق كله ، كما شغفت بالرياضة ، ومنها بطبيعة الحال كرة القدم حتى صرت رئيسًا لفريق كلية الآداب ، كما أحببت لعبة الهوكى فى مدرسة الزقازيق الثانوية وكانت تضم أمهر وأحسن لاعبى مصر فى الهوكى ، ولقد كنت رئيسًا لفريق الهوكى فى الجامعة ،وكان يقوم برعاية الرياضة أستاذ كريم هو عاكف ، ولقد كنت عضوًا بفريق التمثيل والمحاضرات والمناظرات فى المدارس الثانوية ، وفى الجامعة كنت عضوًا بفريق شكسبير وكنا نؤدى أعمال شكسبير المسرحية الكبرى على مسرح الأوبرا كل عام، كما كنت عضوًا بجمعية الجرامافون التى كان يرأسها الدكتور لويس عوض والتى تعلمنا فيها حب الموسيقى الكلاسيكية ، وكنت عضوًا بجمعية قسم الأدب الإنجليزى حتى صرت رئيسها فى السنة النهائية ، وكنت عضوًا باتحاد كلية الآداب وشاركت فى السياسة ولكن دون أن التحق بحزب بذاته ، ذلك أنها كانت وسيلتنا إلى التعبير عن رفض الاحتلال البريطانى لمصر » .

« كل هذا يعطى للقارئ فكرة عن تنوع الاهتمامات والممارسات التى كنت اشترك وأشارك فيها إلى جانب الدراسة التى كنت متفوقًا فى كل مراحلها فى آداب القاهرة ، ولقد كنت كثير التردد على مكتبة الجامعة أتعلم منها وأتثقف ، كما كنت أتردد على مدرجات الأقسام الأخرى بالكلية لكى استمع وأتعلم من طه حسين ، وأمين الخولى ، ومصطفى عبد الرازق فى كلية الآداب ، ولبعض أساتذة الحقوق » .

وهكذا عوضنا عبد الله عبد البارى بعض الشىء عن إسراعه فى رواية تاريخ حياة طفولته حين كتب تاريخ شبابه بشىء من التفصيل الدقيق ، وهو يذكر لنا أساتذته الإنجليز

والمصريين ، ويعتز بأنه درس اللغة العربية دراسة أكاديمية حتى الليسانس على أيدى شوقى ضيف ، وسهير القلماوى ، وعبد اللطيف حمزة ، وأنه درس الفرنسية واللاتينية معًا طوال دراسته وفضلاً عن هذا كله شارك فى العمل الاجتماعى : وذلك باشتراكى المستمر فى فرق المتطوعين من شباب المدارس والجامعات فى جمع التبرعات للأعمال الخيرية والوطنية والتى كانت تقوم فى ذلك العهد على الجهود الذاتية المتمثلة فيما يتبرع به القادرون ، كل حسب طاقته ـ لكى تقوم تلك المشروعات الاجتماعية لخدمة المواطنين ، كالمستشفيات والمبرات ، ومعاهد رعاية المرضى على اختلاف عللهم .

وأنا حريص على أن أدعو الآباء جميعا إلى قراءة مثل هذه الصفحات ليعلموا أى قدر من الظلم يوقعونه على أنجالهم حين يكتفون فى تربيتهم بالدروس الخاصة المؤهلة للنجاح فى الشهادة الثانوية الإنجليزية التى تمكنهم من دخول الجامعة والخروج منها (وليس التخرج فيها) فى سن مبكرة ليجلسوا إلى مكاتب ذوى الياقات البيضاء ذات المرتبات العالية فحسب!!!

(٦)

وقد لا أستطيع أن أمضى فى نقل فقرات من كتاب عبد الله عبد البارى يتحدث فيها عن الحياة الجامعية وممارساتها وعلاقة الطالب والأساتذة وعمل طلاب الجامعة فى المساء، وعلاقة طلاب الكليات المختلفة ببعضهم وسكناهم معًا ، ورحلاتهم الكثيرة . . . إلخ) ولكنى لا أستطيع أن أغفل فقرة هامة من هذا الكتاب سبق إليها عبد الله عبد البارى كل زملائه حين تحدث بهذا العمق المطلوب عن علاقته بزميلاته فقال : و « كان اختلاطنا فى الجامعة مع زميلاتنا اختلاطًا قويًا ، سواء كان ذلك الاختلاط فى قاعات الدرس ، أو فى التمثيل ، أو فى لعبات « الشيش » أى السلاح ، وتنس الطاولة والتنس أو فى المشاركة فى أنشطة نادى الخريجين المصرى ، ذلك النادى الذى يضم الخريجين والطلاب والطالبات من قسم اللغة الإنجليزية وآدابها والذى كان ناديًا ثقافيًا عالى المستوى يقوم حلقة صلة أساسية بين الخريجين والطلبة ربطا لهم واتصالا للأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل حتى تظل الصلة قائمة بين الكلية وخريجيها إفادة لهم واستفادة منهم ، وكان فى الوقت ذاته اختلاطًا شريفًا له قدسية لا تزال له حتى اليوم ، ولقد هذب ذلك الاختلاط من سلوكنا ، وقوّم بعض الاعوجاج الذى كثيرًا ما يقوم بين الشباب وهم يدخلون فى الجامعة مجتمعًا كان جديدًا على أجيالنا ، شبانًا وفتيات على السواء » .

ويحدثنا عبد الله عبد البارى بعد ذلك عن الثقافة والإعلام والصحافة والديمقراطية والسينما فى العهد الذى نشأ فيه ، ولكنه فى ذات الوقت ينتبه بذكاء رهيب إلى أهم ما ميز هذا

المجتمع فيقول إنه كان يحترم العصاميين ويضعهم موضع التقديس والتقدير والاعتزاز ، ويمضى عبد الله عبد البارى ليتحدث عن انضباط الشارع المصرى ، وروح الثورة الكامنة فيه منذ عرابى وثورة ١٩١٩ وحرب فلسطين ، كما يتحدث عن حال السوق المصرى فى أثناء الحرب العالمية ، ويحرص على التأكيد على أن مصر لم تكن تستورد ـ كما تفعل الآن ـ ثلاثة أرباع حاجة شعبها من الطعام !! ويناقش فى رفق قضية الاستقلال فى العالم الثالث فيؤكد أن الثمن الذى تدفعه هذه الدول فى سبيل الحفاظ على هذا الاستقلال والاستقرار فادح .

كما يبدى كاتب هذه المذكرات امتعاضه الشديد من تغلغل سلطة الحكومة فى كل شىء حتى إنها خلفت جيوشًا هائلة العدد من القاعدين وراء التكايا ، ويؤكد أن « أيامنا لم تكن خيرًا دائمًا ولا تجرى فوق أنهار من عسل مصفى ، أو لبن لم يتغير طعمه » ومع هذا « فإنها لم تكن معاناة دائمة كما يحدث مع الكثيرين الآن ، ولكنها كانت مع ذلك أهدأ وقعًا من حياة العصر » .

وينتبه عبد الله عبد البارى إلى تقديس الصداقة فى العصر الذى عاش فيه ، وإلى نمو المجتمع فى ظل التقارب والاقتراب ، بعيدًا عن الأمراض الجسدية والنفسية وتلوث البيئة . . وهكذا يستطيع القارئ أن يقرأ فى هذا الكتاب صورة رحلة إلى مصر لواحد من أهل مصر ولكنها رحلة فى الزمان لا فى المكان .

(٧)

ويحدثنا عبد الله عبد البارى عن أول فرصة عمل أتيحت له فى الإذاعة المصرية وكيف قاده إباؤه أن يرفض الوظيفة : « وحاول محمد فتحى أن يخفف عنى وقع الصدمة وطلب منى أن أقبل الوظيفة فى قسم الأخبار وسيأتى علىّ الدور فأصبح مذيعًا بعد وقت لن يطول ، ولكننى رفضت ، وكان هذا أول تحد واجهته فى حياتى ، وقبلت التحدى ورفضت أن أقبل أنصاف الحلول ، ولم ألتحق بالإذاعة برغم صدور قرار تعيينى الذى لم أنفذه حتى الآن » .

وجاءه خطاب شركة مصر للطيران ، وعمل فى هذه الشركة مع مجموعة من زملائه من خريجى قسم اللغة الإنجليزية المتمكنين من اللغات ، ولكنه يستقيل بعد فترة « وكانت استقالتى هى ثانى تجربة من تجارب التحدى التى قبلتها ، ذلك أننى كنت ككل الشباب فى ذلك الجيل رافضًا لأن أقبل التعامل مع كثيرين من المتعاملين مع مصر للطيران من ركاب ذلك الزمان وقت حرب فلسطين . ورأت إدارة الشركة أن مشاغباتى ومناقشاتى مع هؤلاء الركاب تضع الشركة فى حرج بالغ فى تلك الظروف ، فصدر قرار بنقلى من القاهرة إلى مقر الشركة بألماظة . فرفضت واستقلت » .

وذهب بعد هذا للقاء سيد أبو النجا مدير المصرى وشركة الإعلانات المصرية وبدأت رحلته

مع المصرى ومع الصحافة المصرية ، ويحرص عبد الله عبد البارى وهذا من حقه بالطبع أن يؤكد لنا أنه كان يقوم بأعمال صحفية كثيرة فى أول حياته المهنية وأنه لم يكن رجل إعلان فحسب ، وهو ينبئنا أنه كان يتولى تحرير شئون الطيران وأنه كان يشارك الشيخ البهى (ويغفل الأستاذ عبد الله عبد البارى أن يذكر أن الشيخ البهى هذا هو وزير الأوقاف بعد ذلك) إصدار ملحق قبلى وبحرى وأنه كان يكتب المقال والخبر والتحقيق الصحفى والشعر كذلك (وكأن كتابة الشعر كانت إحدى وظائف الصحافة) !! ويذكر لنا أيضًا أنه أجرى حديثًا صحفيًا مع مستشار النمسا .

(٨)

ويصل عبد الله عبد البارى إلى رحلة اعتقاله التى يخصص لها أكبر جزء من مذكراته الشخصية هذه فيترك صفحة بيضاء قبل أن يبدأ الحديث عن هذه الرحلة مع أنه لم يقسم مذكراته هذه إلى فصول ، ولكنه التنسيق الجميل الذى يسيطر على هذا الكتاب ، ولعل أهم ما يشغل بال القارئ هو سبب اعتقاله ، وها هو عبد الله عبد البارى يستفيض فى الحديث عن هذه النقطة وسننقل للقارئ بعض فقراته : « وقد يسأل سائل ، لماذا اعتقلت ؟ ولو أنى أنوى أن أكتب تجربتى مع الاعتقال والمعتقل والتى تبدأ قبل دخولى المعتقل والتى استمرت فترة طويلة بعد أن تم الإفراج عنى ، بعد سنة كاملة ونصف شهر من الأسر داخل الجدران فى مبنى المخابرات العامة ، ووراء القضبان فى سجن القناطر الخيرية ، إلاّ أنه يبقى من المفيد فى هذه العجالة لهذه الفترة من حياتى ، أن أذكر أن حركة القبض على كل من كانوا يعملون فى المصرى بدأت مع قرار العقيد زغلول عبد الرحمن اللجوء إلى سوريا وإذاعته لبيان صحفى اعتبرته دوائر المخابرات المصرية ضربة لها ، إذ كان زغلول رئيس الجهاز فى الدول العربية والملحق العسكرى فى بيروت ، وكان قريبًا جدًا من قلب وعقل كل من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والمرحوم المشير عبد الحكيم عامر ، وهكذا نجد أن لجوء زغلول إلى سوريا وبيانه قد صورا على أنهما مؤامرة أطرافها آل أبو الفتح وكل من كان يعرفهم أو يتزاور معهم أو مع سيداتهم فى أوروبا [وجنيف بالذات] وفى القاهرة!! » ولأن عبد الله عبد البارى كان واحدًا من الحريصين على اللقاء بهؤلاء ، بل وعلى رواية أنباء تلك المقابلات لزملائه فقد كان ضحية هذا الحرص !!

ويروى عبد الله عبد البارى على مدى صفحتين كاملتين الأنباء التى وردت له فى أمريكا من أنه على قائمة المعتقلين وأنه سيعتقل بمجرد عودته ونصائح الأمريكيين فى ريدرز دايجست له بالبقاء بل وعرضهم عليه إحدى الوظائف هناك .. وعلى الرغم من أن أخبار تحقيق المخابرات العامة بدأت تصله كاملة فى أمريكا إلا أنه اتخذ قراره ، وسافر إلى بيروت حيث

اصطحب زوجته وولديه وعاد إلى القاهرة ، ويؤكد لنا أنه قال لزوجته بأنه سيقبض عليه بمجرد وصوله وأنه سيذهب إلى مبنى المخابرات مع مَنْ سينتظره هناك . . . وفى صفحات طوال وشيقة رغم صعوبة الموقف يروى عبد الله عبد البارى بكل الصفاء النفسى والثقة فى وطنيته القصة الطويلة للأيام الطويلة ما بين المخابرات ومعتقل القناطر ، وهى صفحات لابد أن تقرأ ولكن عين قارئ التاريخ تريد أن تلفت النظر إلى عدة ملاحظات هامة : أولها ما يرويه فى صفحة ٤٩ من أنه التقى بصلاح نصر بعد الإفراج عنه فى كابينة الدكتور ثروت عكاشة فى المنتزه فقال له إن المخابرات كانت تعتقد إما إنه فى غاية البراءة ، أو فى غاية الذكاء والخطورة!!) . كذلك فإن عبد الله عبد البارى يعترف أنه لم يتعرض لأى نوع من أنواع التعذيب أو الأذى البدنى أو النفسى ، ربما لأنه وصل متأخرًا .

أما عين الناقد فتؤكد أن هناك لحظة شعورية أجاد عبد الله عبد البارى تصويرها إلى أبعد حد ننقلها عنه هنا لنعترف له بالقدرة على الكتابة حيث يقول : « ولم أكن أعرف شيئًا عن أسرتى ولا عن أحد خارج مبنى المخابرات ، كانت الأيام والساعات والليل والنهار تختلط علىّ جميعًا ، كان يوم الجمعة هو اليوم الوحيد من أيام الأسبوع الذى كنت أميزه لأن تلاوة القرآن ليوم الجمعة والصلاة كانتا تأتيان من الراديو إلىّ عبر النافذة ومن مكان ما من المبنى الرهيب ، فلما اختلطت علىّ الأيام والشهور ، كنت أستعمل ظفرى فى حفر خط على جدران الغرفة علامة على مرور يوم ، فلما جاء من يخطرنى بالاستعداد ولبس ملابسى ، ظننت أنه قد أفرج عنى كما بشرنى مصطفى أمين ، وعددت الخطوط . . . كانت خمسين خطًا لخمسين يومًا قضيتها كخمسين سنة فى مبنى المخابرات العامة فى القبة . . ضيفًا على أعلى سلطة فى الدولة، كما كانوا يقولون لى ، رئاسة الجمهورية » .

« وبدأ قلبى يدق ، فرحت حقا وصدقًا ، فليس أعظم ولا أكبر ولا أعز من الحرية . . . سأخرج إلى بيتى ، إلى أولادى ، إلى زوجتى ، إلى أسرتى ، إلى أهلى ، إلى أصدقائى ، إلى عملى فى أخبار اليوم ، إلى الحرية ، إلى النور ، إلى الشارع ، إلى السينما ، إلى قراءة الجريدة ، إلى رائحة الحبر والمطبعة ، إلى الأحباب ، إلى أمى ، إلى إخوتى ، إلى الدنيا . . . لقد كنت فى الأسر ؟ نعم ، فى السجن ؟ نعم ، فى القبر ؟ نعم . تصورت أنه يوم البعث ، يوم الخلاص .

ومع هذا فإن عبد الله عبد البارى يذكر بعد قليل خيبة أمله إذ لم يكن مفرجا عنه ، وإنما كان سينقل إلى معتقل آخر !! » .

وهناك فقرة أخرى تحتاج إلى تأمل حين يقارن عبد الله عبد البارى بين الحرية المنقوصة فى سجن القناطر وبين الانفرادية فى سجن المخابرات ، وفى هذه الذكريات مواضع كثيرة لتجارب إنسانية رائعة ولمحات ذكية كالمقارنة بين دخول المستشار السجن فى المرات الثلاث(ص ٥٨) .

(٩)

ونتتهى من أيام الاعتقال لنصل إلى خلافه مع خالد محيى الدين بعد الإفراج عنه وانتقاله إلى الأهرام مع الأستاذين هيكل وسيد أبو النجا ، وهو يحكى قصة هذا الخلاف بنفور شديد جدًا فى صفحة ٦٣ ويعود إليه بنفور أشد فى صفحة ٧٠ حيث يقول : « خرجت من الاعتقال لكى أعيش فترة محاكمة خالد محيى الدين داخل مؤسسة أخبار اليوم لعلى أمين على إصداره مجلة « هى » وكنت مع على أمين أحد أركانها ، وكان على الشلقانى هو ممثل الاتهام . . واحتدمت خلافاتى مع خالد محيى الدين فقررت ترك أخبار اليوم . . لأنضم إلى الأهرام ، وكانت معركة . . معركة خروجى من أخبار اليوم وانضمامى للأهرام . . دخلت فيها أطراف كبيرة وكثيرة . . كما ذكرت ، منها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وهيكل ، مصطفى وعلى أمين ، خالد محيى الدين وعلى الشلقانى ، السيد أبو النجا ، الصديق موسى صبرى وأنا ، وعشت على أعصابى فترة استمرت عدة شهور ، فلما لم تقبل الاستقالة . . بعثت بها فى خطاب مسجل بعلم الوصول ، وبانتهاء مهلة الشهور القانونية ، تسلمت عملى فى الأهرام فى ١٥ يناير عام ١٩٦٥ » . .

(١٠)

ونأتى إلى حديثه عن الانجازات الرائعة التى نوح بها رحلة كفاحه الناجحة فى الأهرام والتى يفرد لها الصفحات ٧٢ ـ ١٠٠ فنجد رجلاً يتعامل بالمنطق وبالأرقام والمؤشرات ، وهو يجمل الحديث أولاً ما بين صفحات ٧٢ و ٧٥ ثم يبدأ فصلاً جديدًا بعنوان « بعض من تجربتى فى الأهرام وفى الصحافة وفى الإعلان » بصفحة على اليمين مع أنه كما ذكرنا بدأ الفصل الثانى الذى خصصه للحديث عن الاعتقال بصفحة على الشمال تاركا صفحة اليمين بيضاء . . وهى لفتة مقصودة جدًا وإن تكن غير واعية خصوصًا إذا تذكرنا طريقة مونتاج هذا الكتاب حين كانت سلخات الجمع التصويرى توزع على الصفحات قطعة قطعة .

وهذا الفصل الذى هو بمثابة الفصل الثالث من هذه المذكرات نموذج حى للتجربة الحية التى ينبغى لكل مسئول أن يحرص على تسجيلها على هذا النحو المشرف .

وفى كل إنجازاته يحاول عبد الله عبد البارى أن يوهمنا بأنه يعترف بأن غيره كان قادرًا على أن ينجز ما أنجز فى هذا الصدد . . . ولكنه يعتز اعتزازا خاصًا بصندوق العاملين ، وبالطبعة الدولية للأهرام وله أن يميز ما شاء من جهده على ما بذل من جهود أخرى ، ولكن من حقه علينا أن نذكر له إنجازاته فى استثمار طاقات الأهرام ، ومراكزه ، وتوزيعه . . . . . . إلخ) .

(١٠)

بقى أن نشير إلى بعض الأخطاء الفنية فى هذا الكتاب الذى يحمل اسم واحد من كبار المسئولين فى الصحافة والطباعة .

(١) ففى صفحة ٨٢ نفاجأ بسطر لا علاقة له بما قبله أو بعده ، ونجد هذا السطر قبل الفقرة الأخيرة .

(٢) وفى صفحة ٨٣ نجد تشويها واضحًا فى تنسيق أوائل الفقرات .

(٣) وفى صفحة ٤٥ نجد الفقرة الأولى وقد ضاع منها بعض السطور فانفصم تسلسلها على نحو معيب ، كما نجد مساحة بيضاء فيما بين سطرين من سطور الفقرة الثانية .

(٤) وفى صفحة ٤٤ يرد اسم دالاس خطأ والمقصود به والاس وكلنا نعرف الفرق .

أما أخطاء اللغة فهى من نوع الأخطاء الشائعة كقوله : لنعود سويا يقصد معًا هذا على الرغم من متانة عبارات عبد الله عبد البارى وقوة تدفقها .

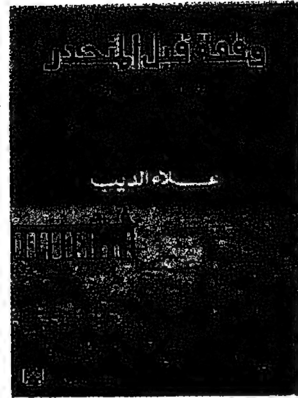
كذلك فإن عبد الله عبد البارى يلجأ إلى كثير من التعبيرات الشائعة على الألسنة وكأنه بأسلوبه المتميز فى حاجة إلى استخدام « موتيفات » وذلك كقوله « تربينا وترعرعنا فى ظل وسائل ثقافة وإعلام » . . . إلخ .

كذلك فإن آخر فقرة فى صفحة ٣٣ تحتاج إلى إعادة صياغة لأنها بدت كما لو كانت كتبت بقلم كاتب مبتدئ تحتاج صياغته إلى الإعادة مرتين على الأقل ، وأنا أكثر الناس يقينًا أن الأستاذ عبد الله عبد البارى نفسه سوف ينزعج عند قراءة هذه الفقرة على نحو ما كتبت .

ويحتاج هذا الكتاب إلى إعادة نظر فى وضع علامات الترقيم ، وخذ مثلاً على ذلك هذه الشرطات بين أسماء الدول فى ص ٣٨ وهى تستغيث لكى نضع الفاصلة بدلاً منها .

كذلك فقد كان الأستاذ عبد الله فى حاجة إلى أن يجعل عنوان فصل الاعتقال ٣٨٠ يومًا فى المعتقل بدلاً من سنة و١٥ يومًا فى المعتقل !! أما كلمة المثابة فى السطر السابع من صفحة ٤٣ فتتململ فى موضعها !!

ومع هذا كله يبقى هذا الكتاب نموذجًا مشرقًا جدًا لرجل مشرف أيضًا .



الفصل الخامس

وقفة قبل المنحدر

للأستاذ علاء الديب

(١)

لو كانت الثقافة المصرية المعاصرة قد ارتقت إلى الحد الذى تمنح فيه جوائز حقيقية للكتب كجوائز الأوسكار مثلاً لفاز هذا الكتاب بجائزة العنوان على سبيل القطع فضلاً عن الجوائز الأخرى التى لابد له أن يحصل عليها .

ومؤلف هذا الكتاب كاتب من الكتاب القلائل الذين ما يزالون يواصلون الإخلاص الحقيقى والعميق للكلمة ، وكأنه واحد من أولئك الذين يشبهون مَنْ وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه بأنهم قابضون على الجمر، ففى زمن الانسلاخ عن القيم الأصيلة إلى الزيف، وعن الإخلاص إلى الادعاء ، وعن الدأب إلى التطلع ، وعن العمق إلى السطحية وعن الموضوعية إلى الذاتية ظل الأستاذ علاء الديب واحدًا من النادرين فى حياتنا المصرية الذين حافظوا على مستويات قصوى من الالتزام بقضايا الالتزام ، وتحويل هذا الالتزام إلى مصابيح قوية كاشفة يستضىء بها أولئك الذين يبغون الاستنارة الحقيقية فى زمن لا يكف فيه السراب عن أن يصور نفسه فى صورة هو أبعد ما يكون عنها ، ولكن الذين يظلمون أنفسهم لا يفتئون يقنعونها ويقنعوننا حتى ولو فشلوا فى أن هذا السراب قد يكون ماءً وقد يكون ضوءًا وما هو بهذا ولا ذاك . . . وها هو علاء الديب يتجاوز العالم الذى نعيشه كله ويجلس على طرف هذا الجسر الذى يمتد إلى أوائل المحيط الأوسع والأعمق يستقبل رحابة الطبيعة وما وراء

* نشر فى مجلة عالم الكتاب .

الطبيعة ، ويستدبر القيود والحدود والسدود تمامًا كما رسمه على هذا الغلاف المعبر الفنان الأستاذ محمد بغدادى . . ها هو علاء الديب يقف قبل المنحدر ليعيد تدوير شريط ذاكرته الذى يبلغ طول ثلاثين عامًا ما بين ١٩٥٢ و ١٩٨٢ وإذا هو فى تدويره لهذا الشريط الحافل أمام أعيننا يشير بإشارة الفنان المتذوق إلى مجموعة من اللقطات المتتابعة التى جعلت من هذا الشريط شريطًا متصلاً وابتعدت به عن أن يكون مجموعة من اللقطات المتتالية من هنا وهناك ، ومع أن الشريط الطويل يجرى أمام أعيننا فى رشاقة شديدة حتى لا تكاد تلمح أنه يجرى . . . تمامًا كشعورك وأنت تمتطى الطائرة ذات الطراز المتقدم فى الأجواء العليا ولا تكاد تحس أنها تسير ، مع أنها قد جاوزت ثمانية أضعاف السرعة التى تهتز معها الأشجار على جانبى الطريق حين تكون فى سيارة من السيارات المسرعة . . على هذا النحو تقرأ كتاب علاء الديب فتحس أنه يتجاوز بنفسه وبك مراحل القلق والاهتزاز والشك والتردد لأنه قد استطاع بحكم ثقافة رفيعة ، وفلسفة متمكنة ، وخبرة عريضة ، وتجربة ثرية أن يصل إلى اليقين منذ زمن بعيد ، وذلك بفضل ما استطاع تحقيقه بينه وبين نفسه من ثقافة رفيعة ، وفلسفةمتمكنة وخبرة عريضة وتجربة ثرية . . وبهذه المكونات الأربعة من ثقافة وفلسفة وخبرة وتجربة تكونت فى شخصية الأديب والمفكر عند علاء الديب صورة نادرة لهذا اليقين الذى ينحى القلق جانبًا لأنه يفيد منه فى تأكيد اليقين ذاته تمامًا كما يصل إلى اليقين بالشك المتكرر ، وبالتردد بين طرفى القضية وصولاً إلى الحقيقة .

(٢)

هذه تجربة إنسان متواضع ، ولكن تواضعه هو الصورة الظاهرة للباطن العظيم ، الذى بدأ بفطرة نقية ، وتلقى أروع ما فى عناصر التربية من القدوة الهادئة الصامتة ، ثم كان على موعد مع التحولات التاريخية حين يدخل إلى قلب العاصمة مع تحول هذا القلب ثم مع تحول القالب ، ثم هو يتقلب بين هذه التجارب المريرة التى ادخرها الزمان لهذا الجيل ليشهد كل هذه التقلبات والتطورات والانتكاسات عامًا بعد آخر ، وإذا الحياة تتبدل أكثر من مرة ، وإذا العوامل الخارجية تلعب دورًا أكثر مما هو مفترض فى تشكيل حيوات الناس ، وتوجهاتهم ، وردود أفعالهم تجاه الحياة التى وجدوا أنفسهم مضطرين إلى أن يعيشوها على هذا النحو .

هكذا نرى علاء الديب وهو يلخص فى عبارات بسيطة موقفه وهو يواجه قدره بأن يعمل بعض الوقت أو بعض الزمن أو بعض حياته فى قطر عربى شقيق وهو يعرف لماذا جاء بالضبط؟ والذين يستقبلونه هناك يعرفون لماذا جاء بالضبط ؟ ثم إذا هم حريصون على أن يجعلوه يعرف أنهم يعرفون لماذا جاء ! وحريصون أيضًا على أن يجعلوه يعترف لهم بأنه يعرف أنهم يعرفون أنه يعرف لماذا جاء بالضبط ، وعلاء الديب لا يقدم لنا هذه الصورة بهذه الطريقة

التعليمية « التركيبية » التى أقدمها بها للقراء ، ولكنه يقدم الحقيقة فى صورة رشيقة غاية الرشاقة وهو يقول : «راجعت نفسى ، وسبب مجيئى إلى هنا ـ راجعت حياتى بسرعة وخوف وكأننى أقلب فى دفترى ، كتاجر ينتظر إشهار إفلاسه . كوابيس الأمراض النفسية . . التى قرأت وصفها فى كتب التحليل النفسى ، حيث تتحول عيون « الآخر » إلى جحيم ، حيث يتصور المريض ، وكأن كل الهمسات موجهة إليه ، وكل الضحكات تقصده، لم تعد كوابيس، بل تحولت إلى واقع أعيشه . أطياف الموظفين تدخل وتخرج ، تنشغل بتقليب الأوراق المتناثرة على المكاتب ، كلها ترمقنى بطرف خفى :

ـ أنت المحرر الصحفى القادم من مصر ؟!

ـ نعم « أنا المحرر الصحفى القادم من مصر» ، تحرك ساعى المكتب ، أمامى فى خُطى سريعة ، وأنا أتبعه ، حتى وصلنا إلى غرفة «رئيس التحرير » ، فتح الباب ، تركنى أدخل ، لم أكن أعرف الرجل من قبل ، ولم يكن يعرفنى، كنت قادمًا ، كواحد من عمال التراحيل العظماء، الذين يخرجون من مصر ، بحثًا عن لقمة العيش وقد كتب الطبيب على أوراق الكشف الطبى الخاصة بى ، أننى (صالح للعمل فى جميع الأجواء) . . هذه الجملة ، صيغة رسمية يكتبها الأطباء ، هى تعنى أننى لا أعانى أمراضًا معدية أو خطيرة ، قد تسبب مشاكل، أو تكاليف غير ضرورية للمؤسسة التى سأعمل بها ، ولكن الجملة ، ظلت لاصقة بعقلى ، وإحساسى ، وأنا أسمع لرئيس التحرير ، وهو يشرح لى ما هو العمل الذى ينتظرنى، كان مؤدبًا فى مكر ، رقيقًا فى افتعال ، كأنه يقول لى ، رغم كل الصياغات والأكلشيهـات المؤدبة ، إنه يعرف لماذا جئت ؟ وبكم جئت ؟ وما دمت قد جئت . . فعلينا ـ الآن ـ أن نعيد ترتيب الحساب ، لم يكن هذا وهمًا . فقد كان منظره يدل على ذلك ، جواز سفرى أمامه بين يديه ، يقلب فيه ، ينظر إلى ، يتكلم قليلاً ، ثم يتحدث فى التليفون ويهرش فى رأسه ، وأخيرًا ـ سمح لى بالانصراف ـ لكى أستريح ـ على وعد متفائل بلقاء قريب . . . وتعاون ـ إن شاء الله ـ مثمر » .

(٣)

وعلى هذا النمط أيضًا فإن علاء الديب يستعرض انطباعاته ومشاعره يوم أحس بالغربة مضاعفة حين مات عبد الناصر وهو متغرب فى المجر ، وهو يحكى لنا تجربته فى ذلك الأسبوع بكل الصدق وبكل القدرة على الاسترجاع الحى للحوادث التى طال عليها العهد وها هو يقول : « ملأ الخبر غرفتى الواسعة ، التى تطل على حدائق رائعة ، وحقول خضراء فسيحة ، فتحت نوافذى ، وارتديت ملابسى ، وعندما أدركت أن ليس هناك ما أفعله سوى أن أعيد قراءة الخبر ، وأن أحدق فى الصورة ، جلست فى مقعدى أمام النافذة . ليس فى الصورة سوى

نعش ، ووجوه صغيرة تحيط به ، وعلم ، لا أتذكر حرقة الدمع ، بقدر ما أتذكر إحساسى بأن حبالاً قوية كانت تربطنى بالشاطئ قد قطعت ، درت فى شوارع القرية ، وجلست فى الصباح بمقهاها الخالى ، فى يدى الجريدة مطوية ، أعيد فردها . وأعاود التحديق فى وجوه الرجال الذين يحملون الصندوق المغطى بالعلم. أعيد قراءة الخبر الذى لا يقدم ولا يؤخر . يدخل المقهى رجال ونساء . يشربون كأسًا أو قدحا من القهوة ، ويخرجون . وأنا وحدى أسأل: كيف يذهب عبد الناصر الآن . . ولماذا ؟ وأنا وحدى هنا . . . بعيدًا ، بعيدًا عن كل شىء . وماذا بعد . تصورت هول المفاجأة ، لم تكن ليالى حرب يونيو ، ولا النكسة المظلمة بعيدة ، إنها جرح مقروح ، وهذا الموت المفاجئ يضرب فى قلب الجرح » .

« هل علينا دائمًا أن نحمل هذا ، السواد ، والعذاب ، والألم ، حتى هنا . . على شاطئ الدانوب . فى قلب حقول العنب ، والشمس والغجر السعداء . الرواية التى أعمل فى ترجمتها عنوانها « كن وفيًا حتى الموت » . وهى آية من الإنجيل . البطل فى الرواية طفل فقير من برارى المجر . يكافح لكى يتعلم ، وينفق على نفسه ، فيشتغل قارئ كتب ، عند عجوز ضرير . العجوز يعطيه ملاليم ، ويتهمه دائمًا بالسرقة ، والطفل ، يكد ويكدح . لكى يكسب ملاليمه ، ولكى يثبت للعالم براءته » .

« لم يستطع كل ما فى هذه القرية الصغيرة من جمال أن يبدد قلقى . أحلام الفتى الصغير فى الرواية التى أترجمها ، بأن يعيش ، وأن يثبت للعالم براءته . كل هذه الأحلام تحطمت . ولم يعد كافيًا لكى يقنعنى بالبقاء هنا ، أو بالعمل : لا شمس هذه القرية ، ولا حقول العنب . ولا التلال الخضراء .

أصبحت كائنًا غريبًا . . قلقًا مفتت الأحلام .
كنت وحيدًا . . وزاد موت عبد الناصر من وحدتى !
آه . . لا تسألونى جوابا .
أنا لم أكن شاهدًا أبدًا .
إننى قاتل أو قتيل .
مت عشرين موتًا .
وأهلكت عشرين عمرًا .
وآخيت روح الفصول »

(٤)

وبعد صفحات عديدة يستأنف علاء الديب حديثه المقتدر عن هذه النفسيات الجديدة ويقول ما يريد أن يقول فى منتهى الصراحة والرمزية معًا فى قدرة هائلة على التعبير وعلى نقل

الصورة إلى كيانات متحركة نعرفها وتعرفنا ، وهو يعيد تعريف الفجر ضمن هذا كله وكأنه يلقى على أسماعنا ببديهة كانت غائبة وها هو يقول : عندما قابلت « شكرى » الصحفى المعروف ، الذى كنت أسمع عنه فى القاهرة ، كان متعبًا مكدود الوجه ، قال وهو يلقى بنفسه على مقعد كبير فى غرفة خالية صانعًا حولنا شبه خلوة ، قال لى : ما الذى جاء بك ؟

قبل أن أفكر فى الرد . أحسست به يتفحصنى بعين زجاجية مليئة بالذكاء المردود ، والفهم المنهك ، أحسست أنه يقول : ماذا تريد ! هل جئت تتفرج علينا ، أم جئت تأخذ نصيبك ، لم أستطع أن أقدم ردًا سريعًا فبدأت أسئلته المتلاحقة ، تأخذ اتجاهًا واضحًا ، إنه يريد أن يعرف بسرعة كيف جئت إلى هنا ؟ وما هى اتصالاتى ؟ وما هو حقا طموحى ؟ بعد لحظات قليلة اطمأن . فقد عرف أن ليست لى مخالب . . وأننى لا أهدده فى شىء .

وأخذت علاقتنا بعد ذلك صيغة الود المتباعد . . والتجنب المريح ، انتظر الفجر ، والفجر لا يجيىء . . . !

الفجر ليس موعدًا .
إنه ، عناد . . إصرار .
صوت متسرع ، نزق .
يقول لى : هذا . . أو الموت .
أشد ما يؤلم ، هو أن تجد رجلاً كبيرًا ، يضع نفسه فى غير موضعه من أجل المال » .

(٥)

ويأبى علاء الديب أن يجعل كتابه هذا مجرد حديث شخصى ، فإذا هو ينقل لنا عن أكثر من أديب نصوصًا يبلور بها فكرته لأنه وجد فكرته عندهم متبلورة فى هذه النصوص ، ولأن علاء الديب تعود الدقة والأمانة فإنه لا يلجأ إلى الطريق السهل بتحوير الكتابات السابقة وصبها فى سياق كلامه ولكنه يعطيها مكانتها من الصدارة بأكثر مما يعطى لكلماته هو ، ونراه مثلاً ينقل لنا هذه العبارة التى وردت فى نهاية فيلم « هيروشيما . . حبيبى » حين تقول «ايمانويل ريفا » بطلة الفيلم : « كل ما أريده هو أن يكون لى ذاكرة ، لا تعرف الصفح أو النسيان، ذاكرة لا تقبل العزاء » .

ولكن علاء الديب لا يريد الذاكرة من أجل الانتقام إنه يريدها معنى أدق وأروع من معانى الحضارة لأنه يؤمن بما قال به كاتب كوبى من « أن التمدن هو القدرة على ربط الأشياء بعضها ببعض دون إهمال شىء أو نسيان شىء » ولهذا فإن علاء الديب يأخذ بنا خطوة أوسع ليجعلنا نقتنع بمذهبه فى أن إحساسه بالتخلف هو زاده وشرابه ! !

(٦)

ولعلاء الديب قدرة رائعة على التعبير عن المعانى العقلية التى يدركها الإنسان بفكره ، تتجلى فى معالجته للقضايا العامة قدرة الناقد فى شخصيته ، وتتبدى هذه القدرة فى أسلوبه الفذ الذى يعبر لنا به عن قيمة « الإدراك » وذلك حيث يقول فى صفحة ١٦ : أدركت مبكرًا معنى انتمائى للطبقة المتوسطة ، معنى أننى برجوازى صغير ، جئت من أبسط أنواع الطبقة المتوسطة . حيث لا مال ، ولا حرفة ، مجرد وظيفة حكومية ، ودخل ثابت ، وعلاوة دورية ، ودرجة جديدة ، يحتفل البيت بحصول والدى عليها ، كل أربع أو خمس سنوات ، إدراك الانتماء للطبقة المتوسطة . . ليس كمجرد الانتماء إليها . إنه يقضى على الاستمتاع بلذائذها ، وكسلها ، ولا جدواها ، إدراك الانتماء يجعلنى أرى الحدود . . حيث تتكسر القيم ، ويصبح القلق ، والإحباط ، والعجز ، هو الفتات الذى يتبقى فى كفى ، يصبح عالمى . . محيطًا من الغربة . كان يتردد حولى أن الطبقة المتوسطة هى الحاكمة ، هى المسيطرة على البلد . لكن رؤية الفلاحين العارقين من الفجر إلى الغروب . وورديات العمال تخرج من المصانع ، تؤكد أن لى فى إلحاح لا يتوقف ، وإصرار يحطم ، كل غفلة أو تغافل : أن العمل هو القيمة الوحيدة . وأنه هو نعمة الوجود الكبرى . وأن الطبقة المتوسطة بكل قيمها ، وتقاليدها ، وأساليبها فى السلوك تحاول أن تنفينى بعيدًا عن العمل . وأن تعلمنى سبل التحايل ، ورذيلة « الوصول » . وهأنذا ـ ما زلت ـ أحاول أن لا أتعلم » .

(٧)

على أنى أحب للقراء أن يقرءوا هذا الوصف البديع لداخليات نفسه والذى يصوره لنا علاء الديب حين يتحدث عن نفسه فى جو الغربة ، فيلخص الموقف فى جملتين بأن يقول : «لست شجاعًا فيما يتعلق بالكتابة ولكنى حذر » ثم يقول فى صفحة ٦٦ : « الرقيب الذى يجلس فى داخلى أغرب من ذلك الرقيب الذى كان يحتل لساعات قليلة ، مكتبًا صغيرًا ، يقرأ فيها بعض المقالات أو الأخبار ، ونادرًا ما يثير اعتراضاً ، وإذا ثار فالاعتراض إما سطحى لا أهمية له ، أو أنه يمكن تجنبه بتغيير صياغة الجملة ، بحذف ضمير هنا ، أو حرف عطف هناك ، أو بجعل الفعل الحاضر ، فعلاً ماضيًا ، أو مبنيًا للمجهول. الرقيب ـ الذى أصبح يجلس داخلى ـ من الصعب أن أصفه لك . . إنه خليط غريب من الضابط ، والشيخ المتعصب ، والقسيس الجامد . . خليط من العصى الغليظة والسوط ، من عسكرى « الهجانة » ذى الكرباج السودانى ، وعسكرى الدورية الخامل ، من المخبر المتخفى فى بالطو وجلباب ، أو المستتر وراء نظارة « ريبان » غامقة ذات إطار ذهبى . رقيب له ألف رأس ، وألف عين وألف ذراع ، رقيب يبعدنى عن نفسى وعن الناس ، وعن الأرض ، رقيب يجعل أول الجملة غير آخرها ، رقيب

من عيون الأصدقاء ـ الذين لم يعودوا أصدقاء ، ومن الزملاء الذين شاركونى الفكر يومًا ، ثم اختلفوا معى دون جدل . . وأصدروا علىّ أحكامهم . . بأننى قد «تغيرت»!!

« رقيبى ، هو ذلك البرجوازى المحافظ القديم ، الذى يحتل جزًا من أخلاقى ، ويمنعنى من ارتياد الآفاق الصادقة للمعانى والقيم والأخلاق ، رقيبى : مصرى ، وأوروبى ، دينى ، وثقافى ، جنسى ، وسياسى ، رقيبى يمنعنى من الكشف ومن الاتصال ، يمنع عنى حريتى ويحيلها إلى بضاعة معلبة تصرف على «البطاقة» .

(٨)

ولا يبخل علينا علاء الديب بأن يعطينا درسًا مخلصًا فى كيفية معالجة أمراضنا الاجتماعية حين يتحدث عن تجربته المبكرة فى شعبة الإخوان المسلمين فيروى فى بساطة شديدة قصة ما تزال تتكرر من حين لآخر فى مجتمع لم يصل التعليم فيه إلى الحد الكفيل بالقضاء على العصبية الناشئة عن التخلف سواء نشأت هذه العصبية فى عضو منتم للإخوان أو فى مواطن غير منتم لأى جماعة أو تنظيم ، وهو يروى هذه القصة الواقعية فى صفحة ٧٠ وما بعدها حيث يقول : «كان لى صديق غنى يسكن إلى جوارنا ويشترك معى فى « شعبة الإخوان » كان رياضيًا ، قويًا ، ملئ الجسم ، وقد أعطاه تفوقه الرياضى مركزًا متميزًا فى « الشعبة » فقد كان رئيسًا لفريق الكرة ، واحدًا من المعدودين فى المصارعة والملاكمة كانت تقواه ، وصلاته ، وآراؤه الدينية ، تتميز بالقوة والانضباط ، يكاد أن يكون عسكريًا فى مظهره ، ولكنه يتمتع بقلب طيب وعقل صغير منفعل . وفى جلسة من جلسات المناقشة ، التى كانت تقام بعد صلاة العشاء ، تحدث أحد الإخوان ـ دون أن يذكر اسمًا محددًا ـ عن ـ شقيقة أحد « الإخوان » المخلصين ، وقال إنها تذهب إلى مدرسة من المدارس الأجنبية ، وإنها كثيرًا ما تشاهد عائدة إلى بيتها بعد الغروب ، كما أن نوع الملابس التى ترتديها لا تليق بشقيقة « لأخ مسلم » . تلفت حولى ، فقد كنت أعرف أنه يقصد جارى هذا وأخته الجميلة التى كانت زيارتها لنا فى البيت تبعث كثيرًا من الحبور والبهجة ، فقد كانت صديقة لأخواتى البنات ، وكان أبى وأمى يعتبرانها نموذجًا للفتاة ذات المستقبل فهى تجمع بين التعليم الأجنبى حيث تتقن اللغات ـ سلاح العصر ـ وبين خفة الدم والشطارة . كانت أمى تحبها بنوع خاص ، وتدعو لها دائمًا بالتوفيق والنجاح » .

« رأيت وجه « الأخ » وقد استحال شاحبًا أصفر ، وارتعشت شفتاه . . وملامح وجهه ، احتمل بقية الجلسة فى صعوبة ، ثم انصرف مسرعًا ، دون أن ينتظر أن نعود معًا كما هى العادة ، فى السهرة ، وقد اجتمعت أسرتنا حول الراديو تسمع حفلاً لأم كلثوم فاجأنا صوت صراخ وبكاء قادم من بيت الجيران ، هرولت والدتى بملابس البيت إلى بيت الجيران ، وظل الصوت يعلو والصراخ يتصاعد ، وكأن هناك شخصًا يذبح . . ،عادت أمى باكية ، وقالت

إن صديقى أخذ يضرب أخته ضربًا مبرحًا ، وأنه أصاب فمها ، وشج رأسها ، وأنه يصر على أن تبقى فى البيت ، وأنه سيقتلها لو عادت إلى المدرسة . لقد كان هو الأخ الأكبر . وكان رب الأسرة قد توفى منذ سنوات . لقد كان هذا هو أول عدوان شرس يرتكب أمامى باسم الدين .

لكن الأيام كانت كفيلة بحل الأزمة . التاريخ لم يتوقف . انتصرت الفتاة . واستسلم «الأخ» لا أدرى كيف . لقد كانت هى حركة الحياة ، ولم يستطع أحد أن يوقفها .

سافرت الفتاة وحدها إلى أوروبا . وعادت طبيبة كبيرة . لها الآن عيادة ضخمة وأسرة سعيدة مفرحة ، أما الأخ فقد اختفى ، علمت فيما بعد أنه هاجر إلى أمريكا . وأنه يقيم هناك منذ سنوات بعيدة » .

(٩)

وفى صورة بديعة ورائعة يحكى لنا علاء الديب باقتدار الأديب المتمكن من قلمه ومن القدرة على تصوير التحولات الاجتماعية ، ها هو يصف الوضع بمنتهى الدقة والاقتدار وهو يصوغ فقرة من أهم الفقرات لتاريخنا العلمى والجامعى حين ندرس التأثيرات الاجتماعية التى أثرت فيه والتحولات التى صاغت كثيرًا من التقلبات التى ألمت به وها هو يحدثنا فيقول : « فى الجامعة كنت أشهد « تغيرًا تاريخيًا » . . فقد تلقيت علوم القانون فى كلية الحقوق على يد آخر جيل من الأساتذة الكبار ، شهدت كذلك مولد المدرسين الصغار الذين تسابقوا إلى طبع «الملازم » و « بيع » العلم كانت الحقوق قد بدأت تفقد صفتها الأساسية كمصدر للوزراء ، والسياسيين والكبراء ، وتتحول إلى معمل تفريخ للمحامين الصغار أو كتبة المحاكم . . كان الأساتذة الكبار يقابلون الأعداد الكبيرة التى تحتشد فى المدرجات بنوع غريب من الاستهتار والسخرية ، ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه . فقد كان حادث الاعتداء على مجلس الدولة ، وعلى «السنهورى باشا » عملاق القانون المصرى ، وصاحب أكبر مدونة قانونية قد ألقى ظلاً قاتمًا ثقيلاً على مستقبل القانون والقانونيين ، وكان المدرسون الصغار يسارعون إلى احتلال مواقع العمالقة ، فتظل كلماتهم صغيرة ، ويظل مكان العمالقة العالى خاليًا ، لم أكن أواظب على حضور المحاضرات إلا عندما يكون المحاضر ، واحدًا من هؤلاء الكبار ، الذين يملكون القدرة على تحويل مواد القانون ، المدنى أو التجارى أو الجنائى . . أو حتى قانون الإجراءات إلى قضايا عامة ، ترتبط بحياة المجتمع ، وتحيل كتل الطلاب المتزايدة كل يوم ، إلى مجموعة من الآذان الصاغية ، والعيون المتطلعة . . تتابع قدوة فى الفهم وقدوة فى الشرح . . وفى السلوك ، محاضرات المدرسين الصغار كانت تتحول إلى «سوق » للبيع والشراء ويتحول القانون إلى تحايل، أو لعب صغار أو محاولة لاستعراض الأستاذ لنفسه أمام البنات ، للدكتوراه التى حصل عليها من أمريكا ، أو للبدلة الجديدة . . أو العربة الجديدة أو التسريحة الجديدة . .

شاهدت فى تلك السنوات ، كيف تحول أستاذ الجامعة إلى موظف ، يتباهى أمام طلبته بعلاقة له مع ضابط كبير . . أو مسئول خطير فى الدولة . فى هـذه الأوقات كنت أهرب من كليـة الحقوق إلى مكتبة الجامعة القائمـة فى وسط كلية الآداب » .

(١٠)

وبنفس القدرة على التمييز التى بدأ بها هذا الكتاب منذ سطوره الأولى فإن علاء الديب يفاجئنا فى الفصل الثانى من كتابه بقدرته على تحديد العدو الذى يجابهه ، وهو يحكى لنا عن لوحة لفنان من أوروبا الشمالية هو « بروجل » فى هذه اللوحة المسماة « لعب أطفال » ساحة مدينة صغيرة تضم الآلاف من البشر بكافة صورهم من الميلاد إلى الموت إلى التشويه إلى الرقص والبكاء والبيت والحقل والتراب ، وعلاء الديب ينظر إلى هذه اللوحة ويقول : « أرى لوحة «بروجل » فى زحام حياتى ، فى يومى الضائع ، فى ضياع حياتى ، ضياع . . ولكنه غنى بالملاحم.

أقول لنفسى دائمًا : كل هذا التفتت يسعى إلى واحد . إنه ميلاد حركة .

ضياعى أنا . . ليس ضياعًا أوروبيًا .

لو أننى أستطيع أن أجد لنفسى عدوًا ، لكان هذا العدو ـ هو ـ تلك العبودية لأوروبا . ها أنذا . أقف أمام أوروبا عاريًا . هم يكسوننى ، يعلموننى نطقى ، وطعامى ، وشرابى ، وليس أمامى من سبيل ! قال لى صديقى ، وهو يمتدحنى : فى الحقيقة ، أنت واحد من القلائل الذين يشعرون بنبض الحياة الثقافية فى أوروبا . أبتسم أنا . ولم يدر هو أنه لمس جرحى العميق» .

ومرة ثالثة فإن علاءالديب يعلمنا بحسه النقدى الصادق كيف ننظر إلى سلبيتنا فى هذه الحياة وهو يتحدث بقدرة رفيعة من التمييز القائم على فهم الطرفين فهمًا عميقًا فيقول فى صفحة ٣٦ : « هناك نوعان من المؤامرة . المؤامرة التى تختص بها النيابة ، ويتولاها المحققون . ويكون القصد الجنائى فيها واضحًا ومحددًا ومواد الدستور والقانون يجعلان منها جريمة مؤكدة . ومؤامرة من نوع آخر ، هى المؤامرة العامة التى نشترك فيها جميعًا . المؤامرة التى يقدم عليها كل الرجال ، لكى يصعدوا ، أو يصلوا . . أو يحققوا أهدافًا ، يعتبرونها مشروعة : مثل النجاح . أو الانتصار فى معركة الحياة ، تلك المؤامرة التى نحيكها جميعًا ، كل صباح ، ونحن نتناول الإفطار ، والشاى باللبن ، المؤامرة السرية العادية التى نواجه بها الرؤساء فى العمل والزوجات فى الفراش ، المؤامرة اليومية السريعة ، التى نواجه بها الأصدقاء وهم يسقطون فى الطريق ، والزملاء ، ونحن ندوس على أعناقهم فى الطريق إلى مزيد ومزيد من النجاح أو مزيد من النقود من الجحيم . . أو الوهم الفارغ .

أعترف أننى طرف فى هذه المؤامرة . . لقد فرضت علىّ ووجدت نفسى منساقًا إليها ، ولا أستطيع ـ بالضبط ـ تحديد وقت تورطى » .

(١١)

ويصل علاء الديب فى ثنايا كتابه إلى حقيقة فلسفة التحول الذى حدث للثورة حين بدأت تتحول بعيدًا عن الجماهير إلى إطار مغلق على نفسه ، وهو يناقش هذا التحول فى ظل رؤية نقدية لموقف اليسار على عكس ما يحدث فى العادة من أقران علاء الديب الذين يناقشون هذا التحول فى ظل رؤية نقدية تستند إلى وجهة نظر يسارية ، وهكذا فإن علاء الديب يأخذ بأيدى المؤرخين ـ لا الأدباء فحسب إلى تفسير جديد ومنصف للحقيقة وإن لم يكن منصفًا للثورة أو لليسار ، وهو يقول فى ص ٧٧ : « لقد كانت « الثورة » فى ذلك الوقت « تتشكل » وتتحول إلى « نظام » . كان هذا التحول والتشكل يتمان بعيدًا عن الناس . وكان اليساريون ، يحاولون أن يشتركوا أو يساهموا فى هذا التحول ، ولكن التحول كان سريعًا قويًا ، يجرف فى سبيله كل شىء ، وكانوا هم فى أغلب الأحيان غارقين فى خلافات داخلية . قضايا التغير ، والارتباط بالناس ، كانت تتحول فى منشوراتهم إلى أكليشيهات وكلمات مرصوصة ، وكان الفعل اليومى المتصل المتصاعد ، يبدو بعيدًا ومستحيلاً ، فقد كانت أغلب حركاتهم ، « ردود أفعال » . وكانت الجرائد وخطب الزعماء تأخذ منهم المبادرة ، وتسرق «الشعارات » وتتركهم وكأنهم بقايا انحسر عنها الموج . . لقد تم بسرعة « تأميم » كلمة الثورة ، دون أن تعيش حرة قوية فى النفوس ، لا أعرف كلمة أكثر قدرة على إيقاظ نفس البشر من كلمة الثورة ، إنها تعنى القدرة على التغير ، والحماس ، ووضوح الهدف ، وامتلاك الوسائل للفعل والحرية فى الإقدام عليه . . ولكن سرعان ما تتحول الثورات إلى « أنظمة » و « أجهزة » و«مصالح » .

(١٢)

ولا أظننى مهما قرأت قد وصلت إلى أن أقرأ هذا الوصف المعجز فى تعبيريته عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وها هو علاء الديب بحسه الروائى والنقدى يختزل الموقف كله فى موقف أكثر عمقًا وأشد ، وكنا جميعا نحس به ولكن أحدًا منا لم يملك القدرة على هذا الربط العميق كما فعل علاء الديب فى صفحة ٨٤ من كتابه وهو يقول : « عندما دخل المهاجرون القادمون من القناة إلى القاهرة . . سكنت معنا الهزيمة واستوطنت . وتحولت إلى مرض مزمن ، سمعت بعد ذلك كلمة « السرطان » تتردد كثيرًا . لو أنهم أحسنوا تسمية هزيمة يونيو لقالوا عنها «سرطان» ، وسمعت شرائط الكاسيت المليئة بالسح والدح وخوار الرجال . الشوارع لم تعد تحتمل ، البيوت لم تعد تحتمل ، سكن الناس المقابر ، فى ضمير مثقل بالذنب والعجز كنت أذهب إلى هناك . أهبط من الشارع الكبير ، فأجد نفسى وسط جماعة من بورسعيد ، تسكن

مقابر القاهرة الشرقية . هناك يقدمون كل شيء حتى الضحك الذى يسقط قبل أن يصل إلى الأذن » .

وفى نهاية هذا الكتاب يصرخ علاء الديب ويجعلنا نصرخ معه بأنه لا يجد ـ ونحن كذلك ـ لا نجد الإنسان وهو يقول : « صار أغلب البشر المحيطين بى : حالات أو نماذج . أما الإنسان فقد أصبح نادرًا .

الإنسان الذى يدفئنى القرب منه ، أو يحركنى وجوده الأصيل .

هاجر أغلب الناس « الكويسين » إلى بلاد النفط : حيث فخ النقود ، أو إلى « أوروبا » حيث أكثر من فخ واحد . ولم يبق « على المداور إلا شر البقر » .

كلنا هنا الآن متهمون بالعجز ، بقلة « الشطارة » بقلة الحيلة ، أو بالتفكير الغبى فى الأرض ، والوطن فى مثل هذه المثاليات غير المجدية .

نعانى من تدهور كل شيء : الصنعة ، الحرفة ، الأمانة قيمة العمل وأكثر القيم . نعانى تدهورها ـ جميعًا ـ ونتدافع بالكلام عن وجودها . مدافعين خاسرين عن مواقع مغتصبة .

أيامنا فوق هذه الأرض ثقيلة . أقدام فلاح مصرى يخوض فى أراض صفراء جديدة ، لا يعرف أين تودى به . أريد أن أتماسك ، أن احتفظ بالحس والبصر والبصيرة . لا أريد أن أقترب كثيرًا من حافة المنحدر » .

(١٣)

ولكن علاء الديب كعادته يستطيع أن يصل إلى أقصى درجات الإبداع وهو يختم ما يكتبه فهو فى النهاية يتجاوز كل النظرات الضيقة التى خيمت على كثير من أدبائنا وههم يتناولون نهاية عهد السادات ، ولكن علاء الديب المخلص الوطنى الوفى ينظر للأمر برؤية صحيحة ويقول : « الذاكرة الحية هى العاصم الملاذ الوحيد للفرد . وللشعوب . كنا قد عشنا يوم الاحتفال ، وعيد الأضحى ، واغتيال الرئيس على المنصة . . فى يوم واحد . عشته فى شوارع القاهرة المرتبكة الخالية ، وقد جثم عليها غموض ثقيل ، سمعت فى الأذاعة والتلفزيون قراءات قرآنية مصرية حزينة تنعى لى البلد والرئيس : سقط قلبى فى كعب حذائى . صرت من يومها أخاف الاقتراب من حافة المنحدر » .

كل ما أستطيع أن أقوله بعد هذا كله إنه كتاب بديع يستحق أن تعاد قراءته ، ولكن الأهم أنه لابد لكل مكتبة صغرت أو كبرت أن تقتنيه .



الفصل السادس

عشت حياتى بين هؤلاء

مذكرات محمد أحمد فرغلى باشا

(١)

نجح فرغلى باشا فى أن يكتب للشباب كتابا ليس فيه غرور العظمة ولا اصطناع العظمة، إنما فيه تواضع ملموس، وخبرة هادئة، وتفاؤل لا ينتهى، وفيه مع ذلك ثقافة بينة، وتاريخ صادق، وتجربة ناضجة.

وإنى لأتمنى أن تكون هذه الكلمات التى وصفت بها هذا الكتاب محملة بكل الطاقات التعبيرية لتعبر للقراء عن موطن العظمة فى هذا الكتاب الذى أصدره رجل ما يزال يحتفظ من الزمن الماضى بطربوش الرأس، ومن الأمل فى المستقبل المشرق بالقرنفلة البيضاء التى يضعها فى عروة جاكتته.

هذا الكتاب يصدر للناس عن رجل تقدم به العمر حتى أصبح يروى الحوادث التى مرت به منذ أكثر من خمسين عاما وهو نجم المجتمع يومها، فلا يأسف على المكان الذى كان فيه، ولا المكانة التى وصلت شخصيته إليها، إنما تلمح فى حديثه رنة رضا، وسرور، وحبور، وتفاؤل رغم كل شىء، ومجاراة للزمان، وانتصارات على ما يجىء بالزمان.

وهذا رجل صعد المجد الاقتصادى من أوله، انتفع بأمجاد أبيه وبثروته، وأضاف إليهما طموحا ليس له حد، ولكنه كان طموحاً مركزاً، ولهذا نجح منذ مرحلة مبكرة فى تحقيق هدف

* نشر فى مجلة عالم الكتاب تحت عنوان «الذوبان فى الوطن».

هذا الطموح وتحويله إلى واقع حتى جعله أول مصدر مصرى كبير، وجعله رجل القطن ثم ملك القطن.

ومع هذا كله تبوأ فرغلى باشا [بحكم مكانته الاقتصادية التى أضاف إليها طموحا أدبياً] مكانة اجتماعية أرفع مما كانت تسمح به قواعد الاقتصاد وحدها، وقد دفعه هذا الطموح إلى الاستزادة من الثقافتين العامة و الشخصية وإلى مصاحبة العظماء وأولى الأمر، لهذا كله ظل فرغلى باشا يتبوأ مكانة ممتازة فى مجتمعاتنا المتعاقبة، مكانة رفيعة كانت تدفع به إلى موقع الوزارة فيتأبى لأن طموحه الواسع كان مُركز الهدف، ولهذا فهو لا ينخدع بالنجاحات التى تأتى حول النجاح الأصلى وإنما هو حريص على أن يحتفظ بالنجاح الأصلى ويضاعفه ويستمر معه!

(٢)

كان فرغلى باشا ولمدة أربعين عاما قريباً من مواقع إصدار القرارات، ومواقع تنفيذها، وعجلة الحياة تمضى بالناس، فإذا بعضهم ينتقل إلى حياة أخرى، وإذا بعضهم ينتقل فى الحياة إلى مواقع أخرى، بينما الرجل يلحظ الأحداث ويتأملها، ويحاول ألا يجعلها تطحنه حتى وإن بدا للناس كلهم أنها لابد فاعلة به ماهو أقسى من هذا، وتعلن الثورة التأميم بعد إجراءات اقتصادية أخرى لتبدأ سلسلة المصاعب التى يتعرض لها رجال الأعمال المصريون، فيموت بعضهم من فورهم، ويفقد آخرون توازنهم إلا هذا الرجل الذى ينتصر على نفسه فتدين له الدولة كلها بكل ما فيها من هيلمان ونفوذ.

وهو يحدثنا عن هذه المعانى فى كتابه بطريقة تلقائية حيث يقول : " أذكر يوما فى بداية الستينات بعد التأميم والحراسة اجتمعت فيه مع بناتى على الغداء مثلما تعودنا دائما. . وحضرت إحدى بناتى ومعها طفلتها المريضة جداً، وبدأت تشكو حالها وعجزها عن تقديم المعونة للطفلة المريضة وكنت أشعر بأنها محقة فى ذلك، فلم يكن من المتصور أن تتمكن من علاج طفلتها وكل ما تصرفه لها الحراسة كى يعيشوا منه ١٥٠ قرشا فى الشهر، وأمام إحساسى بألمها قلت لها إننى سوف أساعدها بقدر ما أستطيع، فسألتنى: بكم، وعليك أن تحسب السنوات القادمة وكلها سنوات ضنك؟ ولما لم أرد عليها رفعت رأسها نحو السماء والدموع فى عينيها، وقالت: ربنا يفعل بأولاده مثلما فعل بنا (وكانت تقصد بالطبع الرئيس عبدالناصر) ونهرتها قائلا: إن هذا لا يجوز، فأبناؤه ليس لهم ذنب فيما حدث، فأعادت الدعاء على أبنائه مرة أخرى، وشعرت بأن ما فعلته لا يليق بأخلاقنا، فقمت من مكانى وصفعتها على وجهها، فبكت وبكت أخواتها معها وكذلك فعلت زوجتى وشعرت بالألم يثقل صدرى ويعتصرنى ولم أملك إلا أن أقول لنفسى «منه لله».

وبعد أيام التقيت بعز العرب عبدالناصر شقيق الرئيس وكانت تربطنى به علاقة وطيدة

لطيبته، وتواضعه حيث بادرنى بقوله: تسلم إيدك يا باشا، ولم أفهم ما يقصده، فاستفسرت منه عما يعنيه فأوضح لى أنه يقصد موقفى من ابنتى فى المنزل». ! ! !»

هل يستطيع الإنسان بعد هذا أن يفهم أنه كان فى وسع رجل مثل هذا (الذى يستطيع أن يتحكم فى عواطفه إلى هذا الحد) أن يفشل؟؟

لقد نجح فرغلى باشا لأنه انتصر على نفسه، وواصل فرغلى باشا النجاح لأنه استطاع أن يذوب فى الوطن.

وكتاب فرغلى باشا هو خير دليل على نجاحه فى الذوبان فى الوطن، فهذا الكتاب الكبير لا يحوى من قصة فرغلى نفسه الكثير، وإنما هو يحكى تاريخ مصر فى الفترة التى عاشها (مع تمهيد بالطبع للفترة التى قبلها مباشرة) ويرتب هذا التاريخ على فصول أحكم ترتيبها، ثم هو يعمد إلى إلقاء الأضواء المناسبة على مكانه فى الأحداث التى تمضى فى هذا الوطن، فإذا كان الزمن ساعتها قد أوقفه وقفة ذات معنى فهو يوقفنا معا ذات الوقفة ويستعيد المقدمات والنتائج، أو المنابع والروافد، أو التفاصيل والدقائق حول هذه الوقفة، وهكذا تجد فرغلى باشا لا يختص حياته الشخصية ذاتها إلا بأول فصل حين يذكر لنا مكانته من عائلته ومكانة عائلته فى الإسكندرية ويطلق على هذا الفصل عنوان «بداية الرحلة»، ثم ينطلق الرجل فى الفصل التالى ليحكى أوضاع «مصر فى الربع الأول من القرن العشرين»، وهى الفترة التى مضى هو فيها إلى بواكير شبابه، وهكذا تتوالى عشرة فصول ممتازة تروى تاريخ مصر من وجهة نظر اقتصادى مثقف و مخضرم.

(٣)

لا يعتمد كتاب فرغلى باشا على الذاكرة فى تسجيل الأحداث، ولكن فرغلى يظل حتى فى كتابه هذا نموذجاً للتاجر الذى يمسك دفتر الحساب، وفى هذا الكتاب فصل لم يسبقه إليه أحد ـ حتى الآن ـ على حد علمى وقراءاتى، وهو ذلك الذى تحدث فيه عن المندوبين (المعتمدين) البريطانيين فى مصر منذ الاحتلال وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وفى صفحة ٥٢ وما بعدها تستطيع أن تجد معلومات منظمة ومرتبة لم يكن فى وسعك أن تجدها على هذا النحو من الترتيب الممتاز وتقرأ فقرات ممتازة تتحدث عن كرومر، وجورست، وكتشنر، وماكماهون، ووينجت، واللينبى، وجورج لويد، وبرسى لورين، ولامبسون (لورد كيلرن).

ويخرج قارئ هذا الكتاب بحصيلة ضخمة وافرة من الخبرة بالمسائل الاقتصادية التى أثرت فى حياة هذا الوطن منذ إنشاء بنك مصر ثم شركاته، ثم الدور الذى لعبته بورصة الإسكندرية، ثم الفساد المالى فى أواخر عهد الملك فاروق، ثم التمصير والتأميم فى عهد الثورة. . . وهكذا.

(٤)

ولكن كتاب فرغلى باشا فى كل هذا يبخل على قارئه بحكاية كثير مما بين السطور، وقد يكون فى هذا صادرا عن طبيعته الحذرة، أو عن تطبعه الدبلوماسى، ولكنه بلاشك قد فرط فى حق القارئ حين أهمل الحديث عن الجوانب الخفية للتطور الاقتصادى لهذا الوطن.

كان فى وسع فرغلى باشا أن يفيض فى الحديث عن تأسيس الشركات التى شارك فيها، وعن أزمات البلاد، وعن اقتصاد مصر، ومدى اعتماده على القطن وتصدير القطن، وعن العلاقة بين بريطانيا ومصر فى مجال الاقتصاد، وعن أزمة الثلاثينات ودور إسماعيل صدقى فى تجنيب مصر آثارها، وعن الحرب العالمية الثانية وما أحدثته فى الاقتصاد المصرى، وعن فترة ما بعد الحرب وأثرياء الحرب، وعن الثورة وما جرته على الاقتصاد المصرى.. ولكن فرغلى باشا يلمس كل هذه الأمور بعصاه المهندمة مسا رقيقا، ولا يفيض فى الحديث إلا عن القطاع العام والتأميم.

ومع هذا، فإن الرجل يتيح لنا فرصة ذهبية للكشف عن مواطن العظمة فى أولئك الذين كانت بأيديهم مقاليد الاقتصاد المصرى، وعلى الرغم من أن فرغلى باشا لا يطنب فى هذا الحديث فإنه معبر جدا فى إيجازه عن آراء واضحة وقوية ومنصفة فى طلعت حرب، وعبود، وصدقى، وأحمد عبدالوهاب، وحافظ عفيفى.. إلخ.

(٥)

ومع هذا فقد كان أملى كبيرا أن أقرأ لفرغلى باشا تفسيرات أعمق لما حدث فى أوائل الحرب العالمية حين اضطرت الحكومة طلعت حرب إلى الاستقالة من رئاسة مجلس إدارة بنك مصر وإلا سحبت ودائعها فى البنك.. كنت مشوقاً إلى أن أفهم الدوافع الحقيقية التى دفعت إلى هذا التصرف القاسى الذى اتخذته الحكومة المصرية وتولاه رجلان ـ لا تزال فى حلقى غصة منهما بسبب هذا الموقف وحده ـ هما على ماهر باشا وحسين سرى باشا.. أما إن يكتفى فرغلى باشا بأن يذكر انطباعه السريع بقوله «ولقد خامرنى شك فى أن على ماهر باشا كان وراء هذا القرار يدفعه إلى ذلك إبعاد حافظ عفيفى باشا عن منافسته فى المجال السياسى، إذ كان مرشحا لتولى رئاسة الوزارة»، فهذا ظلم للتفاصيل ولا نقول «ظلم للحقيقة».

ولعل فرغلى باشا حين ربط تاريخه كله بتاريخ وطنه فى الفترة التى عاشها قد نجح فعلا فى أن يعبر عن طبيعة ارتباطه بهذا الوطن، هذا الارتباط الذى جعله دائما وأبدا لا يفكر فى الانطلاق بنشاطه خارج حدوده حتى حين ضاقت عليه السبل، وسدت أمامه طرق الكسب المشروع!

ولم يكن الرجل إلا واحدا من كثيرين لم تزرع الوطنية فى قلوبهم فى المدارس ولا فى كتب التربية القومية، وإنما زرعها أنهم شبوا فى مجتمع مفتوح ضم من أبناء الجنسيات الأخرى من كانوا يعتزون بهويتهم فى الانتساب إلى وطنيات وقوميات أخرى، ولم يكن هؤلاء الآخرون فاشلين وإنما كانوا على درجات هائلة من النجاح، ربما لم يصلوا إليها بجهد واضح، وإنما عن طرق أخرى كتوارث الامتيازات، وقد كان لهذا الوضع أثره الإيجابى الواضح حين تأججت فى أمثال فرغلى باشا من النوابغ عواطف الانتماء الواضح لهذا الوطن، وهو الانتماء الذى لم يضعفه التشكيك فيه، ولم ينل منه التقليل من قدره، بل ولا تصويره على أنه الخلق المضاد.

(٦)

وقد لا يعنينا فى كثير أو قليل بعد هذا أن نشيد بدور هذا الرجل الإيجابى من الثورة ومن قادتها ومن تعاونه المستمر معهم واحدا وراء الآخر حتى آخر أيام الرئيس السادات حين كان اسمه أحد الأسماء البارزة فى قائمة مؤسسى الحزب الوطنى، فلعل فهمنا لشخصيته الذكية يبين لنا كيف كان فى استطاعته كرجل أعمال ناجح أن يحتفظ على الدوام بخيوط قوية مع الجميع.

وهو نفسه يصرح لنا بهذا المعنى فيقول: «إننى حينما أستعرض حياتى، أجد أن ما استخلصته منها كثير، ولكن أهم ما استخلصته كان مصداقا للحكمة القائلة: «بالمهارة لا بالقوة تسير السفينة» والمهارة لا تخلو بالطبع من القوة. . وكان علىّ أن أكون شديد المرونة، ألا أكون صلباً فأكسر، ولا أكون رخوا فتسهل إزاحتى».

ويضرب لنا فرغلى باشا المثل فى موضع آخر بقصة المليونير الفرنسى مارسيل بوساك ملك النسيج الذى عادى ديجول وبومبيدو وديستان فلم ينل فى النهاية إلا خراب البيت (ص ١٨٢).

ولكن فرغلى باشا يضرب لنا من ناحية أخرى أمثلة غاية فى الصرامة لمواقف قاسية وحاسمة لم يجد هو نفسه بدا من اتخاذها كموقفه من الملك فاروق حين طلب إليه أن يكف عن الرقص فى حضرته الملكية فإذا به يواصل الرقص، وكموقفه من إلياس إندراوس حين طلب منه رشوة للملك وللأوركسترا (الحاشية) فكان موقفه من أقوى المواقف، وكموقفه من النقراشى باشا حين دخل عليه فى جمع وهو رئيس للوزارة فلم يقم له احتراما لأنه رفض مقابلته من قبل وهو نائب لأحمد ماهر باشا.

(٧)

ومع هذا فإن مؤلف هذا الكتاب لا يزعم لنا أن فرغلى باشا ملاك أو بشر منزه عن الخطيئة، بل إن الرجل نفسه حين يروى قصة أزمة القطن فى ١٩٤٩ (التى تعرض لها مع على يحيى باشا)

لا يجد حرجا فى أن يروى كيف استطاع بطرق أو بأخرى أن يفلت من خسارة ملايين الجنيهات، وكيف استطاع على يحيى باشا أن يجعل الملك يؤثر على الحكومة بحيث يمارس ضغطا على الوزارة الوفدية القائمة لصالح فرغلى باشا ويحيى باشا فى مقابل ١٥٠ ألف جنيه للملك و١٠ آلاف جنيه للأوركسترا بمن فيه إندراوس.

وفى الحقيقة فقد أضاف فرغلى باشا إلى المصادر التاريخية شهادة مهمه له حول موقف كل من الملك وحاشيته وحكومة الوفد من قضية الفساد الكبرى الشهيرة بقضية الكورنر، والتى حدثت فى أثناء حكم الحكومة الوفدية الأخيرة «يناير ١٩٥٠ - يناير ١٩٥٢» وشهادة فرغلى باشا فى كتابه هذا واضحة وصريحة فى إدانة الملك والحاشية وتبرئة النحاس باشا والوفد، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نعتمد عليها اعتماداً كليا فى هذا الصدد فإن الضوء الذى تلقيه هذه الشهادة على الأحداث يعطى فهمنا لما جرى بعداً جديداً جداً لم يكن متوفراً قبل صدور كتاب فرغلى باشا الذى عبر فيه عن وجهة نظره بطريقة الرواية، أو قل إنه روى فيه الوقائع متأثرة بوجهة نظره، وها هو يقول بمنتهى الوضوح: "كانت الفترة من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٥٠ هى السنوات التى وصلت خلالها إلى قمة النجاح فى حياتى الاقتصادية والعامة، وأصبحت مساهماً فى عدد كبير من الشركات، وعضواً فى مجالس إدارات العديد من الشركات، والبنوك، وحصلت على لقبى «بك وباشا» ودخلت مجلس الشيوخ عضوا، وأطلقت على الصحف الأجنبية والمصرية لقب «ملك القطن» كما أن شركة «فرغلى» للأقطان والأعمال المالية توسعت فى أعمالها، وبدأت تحقق ربحاً سنوياً يصل إلى حوالى المليون جنيه، وتوطدت علاقتى مع كبار الساسة المصريين، وصناع القرار، وانتخبت رئيساً لبورصة القطن، ورئيساً لاتحاد المصدرين، عدة مرات وساهمت فى أعمال الكثير من الجمعيات الخيرية، وحصلت على عدد من الأوسمة».

«إلى أن كان عام ١٩٤٩ حيث اتفقت مع «على يحيى باشا» وآخرين على تكوين مجموعة شرائية، وتعاقدنا على شراء نصف مليون قنطار قطن، ومن المعروف أن هذا التعاقد يتم فى بورصة العقود قبل أن يوجد القطن فى الأسواق».

«وعندما يقوم صغار وكبار التجار ببيع أقطانهم إلى المصدرين فهم يفعلون ذلك ثقة منهم فى إمكان تدبير هذه الكميات عن طريق شرائها من المزارعين».

«بعد فترة اكتشف هؤلاء التجار أنهم لن يتمكنوا من تسليم الكميات التى تعاقدوا على بيعها لنا بالمواصفات المحددة فى العقود، وفى الوقت المحدد أيضاً، بدءوا يفكرون فى الخروج من المأزق، فقدموا شكوى إلى البورصة يطلبون إعفاءهم من التسليم بالشروط المحددة فى العقود، ونظرت البورصة فى الشكوى، وأقرت بضرورة تسليمهم الأقطان حسب ماجاء فى

العقود وعندما خسروا الجولة الأولى فى البورصة بدءوا جولة أخرى بأن قدموا شكوى للحكومة ونظرت الحكومة شكوى التجار وبعد مداولات ، واتصالات فى وزارة المالية ، أفتت الوزارة بإمكانية تسليم التجار أقطانا لاتطابق المواصفات المحددة فى العقود » .

« لم يكتف التجار ، ومعظمهم من جنسيات ليست مصرية بهذا الكسب الذى تحقق لهم فى جولتهم الثانية ، ففكروا فى جولة أخيرة أمام مجلس الدولة ، فرفعوا قضية طعنوا فيها بعدم شرعية المضاربات والمعاملات فى البورصة ، وكان واضحاً أن المجلس سوف يؤيد شكواهم» .

« بدا واضحاً أن خسارتنا سوف تصل إلى ملايين الجنيهات إذا أقر مجلس الدولة بحقهم فى الامتناع عن تسليم الأقطان المتعاقد عليها» .

« كانت الوزارة الموجودة فى ذلك الوقت وزارة وفدية برئاسة النحاس باشا ووزير المالية فيها هو « زكى عبد المتعال باشا » وحاولنا التفاهم معه حول الموضوع لكسب تأييده فى خلافنا مع التجار ، لكن وزير المالية أخذ موقفاً يميل نحو صالح التجار ، وأصر على هذا الموقف » .

« اتجه تفكيرنا إلى طريق آخر شعرنا أنه أيسر السبل لكسب المعركة مع التجار ، ورشح على يحيى باشا للقيام بهذه المهمة . سافر على يحيى باشا وعرض الأمر على إلياس أندراوس باشا » المستشار المالى للملك فاروق ، والذى وعده بعرض الأمر على جلالة الملك والرد عليه خلال ثلاثة أيام » .

« كان « أندراوس باشا » دقيقاً فى موعده ، اتصل بعد ثلاثة أيام بالضبط وأبلغ «على يحيى باشا » أن الملك على استعداد للتدخل لصالحنا على شرط أن ندفع للملك مبلغ ٢٥٠ألف جنيه ، وللأوركسترا « الحاشية » مبلغ٢٥ ألف جنيه وفوجئنا بالمطلب تماماً . وبدأت المساومات، والحسابات حول تخفيض المبلغ ، وبعد فترة من الأخذ والرد وصل المبلغ إلى ١٥٠ ألف جنيه للملك ، ١٠ آلاف جنيه للأوركسترا بمن فيهم أندراوس بالطبع كل ذلك لكى يمارس الملك سلطاته على الوزارة كى تقف موقفاً محايداً ومنصفاً ، وبعد أن تمت الصفقة واطمأن الملك لحصوله على المبلغ المحدد ، دعا مجلس الوزراء إلى غداء فى قصر عابدين ، وأثناء الغداء وجه الكلام إلى النحاس باشا قائلا : « أظن أنه لايرضيك يارفعة الرئيس أن يكون وزير ماليتك سبباً فى هدم ، وخراب بيوت مال مصرية نعتز جميعاً بها ، ومن الواجب أن نشجعها ، ونحافظ عليها ، تلك البيوت التى استطاعت بجهدها أن تنافس وتتفوق على بيوت مال أجنبية » . وأجابه النحاس باشا بأنه سوف يبحث الأمر مع وزير المالية . وفى اليوم التالى مباشرة علمت بتفاصيل هذا الحديث، كما صدر قرار وزير المالية « زكى عبد المتعال باشا» تراجع فيه عن قراره السابق. إلى هنا انتهت مشكلة الحكومة ، وبقيت مشكلة مجلس الدولة ، ولم يكن هناك أمل فى كسب هذه الجولة » .

« لم يكن باقياً على الموعد المحدد لتسليم الأقطان طبقاً للمواصفات المحددة فى العقود غير أيام قليلة ، ولو أمكننا تعطيل مجلس الدولة عن إصداره فتواه إلى أن يحين هذا الموعد لحلت المشكلة ، ورشحت أنا للقيام بهذا الدور » .

« كان رئيس مجلس الدولة فى ذلك الوقت هو السنهورى باشا وتقدمنا عن طريق محامينا ندفع بعدم حياد رئيس المجلس ، كوسيلة للتعطيل وكسب الوقت. كان علينا أن نتقدم بالمستندات التى تثبت صحة الدفع المقدم منا ، وتلكأنا فى تقديم تلك المستندات حتى حان الموعد المحدد فى العقود لتسليم الأقطان ، وأثبتت البورصة عدم تسليم التجار للأقطان ، كما أثبتت فى نفس الوقت قدرتنا على السداد ، وكسبنا الجولة . وبعد أيام صدرت فتوى مجلس الدولة وجاءت لصالح التجار ، ولكن بعد فوات الأوان . انتقلت بعد ذلك القضية إلى ساحة المحاكم ، وظلت مستمرة حوالى عشرين عاماً لنكسبها نحن فى النهاية وكانت من ضمن حجج المحكمة أن فتوى مجلس الدولة بعدم شرعية أعمال البورصة التى تتم يومياً فى ملايين الجنيهات المصرية تضر بالاقتصاد الوطنى ضرراً بالغاً » .

« انتهت هذه الأزمة عام ١٩٥٠ بعد ضجة إعلامية كبيرة على صفحات الصحف، وفى المنتديات العامة ، ولقد كسبت بعض الصحف نتيجة مساندتها لنا آلاف الجنيهات ، كما كسب المحامون مبالغ طائلة وسميت هذه العملية أيامها بعملية «الكورنر » .

(٨)

ومن اليسير على القارىء أو الباحث المتحيز ضد الوفد أن يقول إن فرغلى باشا يقول ما يقوله الآن بعد أن ساعده الوفد وهو يرد لهم الجميل ، ولكن الفقرات التالية تنبئنا بما هو أقرب إلى المعقولية من أن فرغلى كان يخوض معاركه التجارية من منطق رجل الأعمال وأنه أيضا يرويها من هذا المنطق لامن منطق التلونات السياسية ، ولنقرأ معا روايته عن الأزمة التالية التى واجهته فى هذه الفترة ، وهو لايجد حرجا فى روايته من أن يتهم أحد الوزراء الوفديين الكبار بل ويصل الأمر إلى أن حل العقدة الدرامية لايحدث إلا بالإقالة المفاجئة لحكومة الوفد ، وهذا هو نص عبارات فرغلى باشا : " لم يكن قد مضى عام ونصف على الأزمة السابقة التى سميت بعملية الكورنر ، حتى حدثت أزمة أخرى ، كادت تعصف بكل ماحققته من نجاح مالى ، وأذكر جيداً أن هذه الأزمة هى الوحيدة التى جعلتنى أبكى أمام زوجتى . اجتزت أزمة ١٩٤٩ متحالفاً مع عدد من كبار المصدرين ، أما هذه الأزمة فقد خضتها وحدى ضد مجموعة من المصدرين يساندهم ، ويتعاطف معهم أحد كبار وزراء الحكومة الوفدية . وعالم التجارة بلا قلب ، قد يتحالف معك زميل اليوم ، وغداً تجده متحالفاً مع غيرك ليدوسا عليك بالأقدام. والذى حدث أننى تعاقدت على بيع ٢٥٠,٠٠٠ قنطار من القطن بسعر القنطار ثمانية

جنيهات أى حوالى ٢ مليون جنيه ، وبعد أن تعاقدت على تلك الكمية الضخمة ، فوجئت بمجموعة الخبراء الرسمية فى البورصة ترفض القطن الذى تقدمت به بحجة أنه لايطابق المواصفات ، وطلبت مجموعة أخرى من الخبراء لتحكم بيننا ، ولكنى فوجئت باللجنة الثانية توافق على نفس الرأى الذى قالته اللجنة الأولى . وعرفت من أحد الخبراء ، وكانت تربطنى به صلة قرابة أن وراء رفض قطنى مجموعة من المصدرين يساندهم أحد الوزراء . وشعرت أن الضربة سوف تكون قاسية ، والخسارة فادحة ، اتصلت بأحد كبار الصحفيين ، وكان فى نفس الوقت صاحباً لدار صحفية ، وطلبت منه أن يكتب مقالا باسمى يتهم فيه مندوب الحكومة فى البورصة بأنه متحيز ومغرض ، وقال لى الصحفى الكبير إنه لامانع عنده أن يفعل ذلك لكن فى مقابل دفع مبلغ ٥٠٠٠ جنيه ، وعندما قلت له إن المبلغ ضخم قال لى « إن نشره لمثل هذا المقال قد يعرضه للسجن » . وافقت على دفع المبلغ ، واشترطت أن يظهر فى الصفحة الأولى تحت عنوان « إنى أتهم » وبنفس الألفاظ . وخرج المقال كما اتفقنا ، ولكنه لم يترك الأثر الذى توقعته . وبدأت أشعر أنى سوف أتحمل خسارة المليونين من الجنيهات ، ولم يكن ذلك بالنسبة لى أمراً سهلا » .

« قلت فى بداية هذه الذكريات إننى مؤمن بالحظ ، ذلك الذى يجعل حصانين توءمين أحدهما يشتريه مربى خيول ليشترك به فى السباق ، والآخر يشتريه «عربجى » فالأول يجد من العناية والاهتمام مايفوق فى أحيان كثيرة مايلقاه الإنسان أما الثانى فلا يجد من صاحبه إلا القسوة ، والشدة ، والأعمال العنيفة . ذلك الحظ هو الذى وقف بجانبى هذه المرة ، فبينما أنا فى حيرتى وحزنى ، إذا بحكومة الوفد تقال بسبب حريق القاهرة ، وتأتى وزارة جديدة ، ومندوب جديد للحكومة ويُقبل القطن ، وبدلا من خسارة ٢ مليون من الجنيهات حققت ربحاً » .

(٩)

أما إن فرغلى باشا كان وفيا لأصدقائه فأمر يتضح من غلاف الكتاب قبل أن تفتحه فهو يضع صور هؤلاء على الغلاف بعد أن أشار إليهم على سبيل الاجمالى فى العنوان ، وهذه بعض أمثلة لآراء فرغلى المهمة فى هذه الشخصيات اللامعة

(١) لم يُنصف أمين عثمان على سبيل المثال بمثل ما أنصفه به فرغلى فى هذا الكتاب ، ويكفيه أن أوضح وجه الحق (أو ذكر رواية أخرى على الأقل) فى قصة الزواج الكاثوليكى بين مصر وبريطانيا . . اقرأ صفحة ١١٧ ومنها قول أمين عثمان «إننا شعب دينه الإسلام ، وأنتم شعب بروتستانتى ، والعلاقة بيننا يجب أن تكون على الطريقة الكاثوليكية» . . وهكذا فلربما كانت «البلاغة» ذات المظهر الجميل سببا فى ضياع روح صاحبها .

(٢) وعلى الرغم من صداقة فرغلى للأستاذ هيكل فإنه لا يخفى إعجابه بشخصية على صبرى مع أنه يكشف لنا عن مظهر من مظاهر العداء المستحكم والكراهية الشديدة بين على صبرى وهيكل (قد تفسر لنا سرا من أسرار نجاح ١٥ مايو)وذلك عندما يقول : « وفى لقاء آخر مع على صبرى كان مكانه نادى سموحة حيث كان يذهب للعب الجولف ، دعوته لتناول القهوة وأثناء جلوسه معى لمح فى يدى مجلة فسألنى عما أقرؤه فقلت له : إنه مقال تحليلى ممتاز لرئيس تحرير الاكسبريس ، وناولته المجلة ، وبعد أن طالع المقال قال لى : إنه يتحدث بثقة العالم ببواطن الأمور مثل واحد عندنا فى مصر» (ص ١٩٣) .

وعلى الرغم من هذا فإن فرغلى لا يخفى اعجابه بشخصية على صبرى بل ويحدثنا فرغلى باشا فى كتابه عنه بإنصاف فيقول : " كان طموح على صبرى لا حدود له وكان دائما لا يقنع بالمنصب الذى يتولاه ، لقد كانت تنقصه الشعبية ، لكنه كان يستعيض عن ذلك بتشغيل مواهبه الأخرى ، وأهمها براعته الفائقة فى التخطيط والتنظيم ، ومقدرته الكبيرة على إقناع مستمعيه بآرائه وأفكاره . لقد مرت عليه فترات مشرقة ، كما اجتاز أزمات عصيبة ، كان أحيانا يضىء كالشهاب اللامع فى السماء السياسية المصرية ، وأحيانا أخرى كان يختفى تماماً من فوق المسرح ، لكنه كان دائماً يعرف كيف يعود ويبزغ نجمه من جديد» .

(٣) كما يكشف لنا فرغلى باشا بمنتهى الظرف عن العداء بين حسن صبرى باشا وحافظ عفيفى باشا فى أكثر من موضع منها (ص ٥٩) ، وفى صفحة (٦١) يحدثنا فرغلى باشا فيقول : «أما حسن صبرى باشا فكثيرا ما دارت بينى وبينه الأحاديث ، ومما أذكره له أنه قال لى إنه يكره بدلة التشريفات كراهية شديدة ، ويشعر بأنها مثل «البردعة» ، وعندما قلت ذلك لحافظ عفيفى باشا على سبيل التفكه رد علىّ قائلا : إنه يكرهها لأنه «حمار» .

(٤) ويلخص لنا فرغلى بحكمته رأيه فى محمد نجيب «ومن خلال لقاءاتى بهذا الرجل شعرت كم هو طيب القلب محب للدعابة ، لكنه لم يكن يملك مؤهلات قيادة ثورة تحيطها المؤامرات من خارجها وتضج بها من داخلها» (ص ٢١٤) .

(٥) وفى أولى عباراته فى الفصل الخاص بالرئيس السادات نجد حكما صادقا وثاقبا ، كذلك الذى أدلى به فى شأن الرئيس نجيب : «يمكن القول بمنتهى الموضوعية أن الرئيس محمد أنور السادات ـ رحمه الله ـ هو الذى جعل الثورة أكثر إنسانية وأكثر رحمة ، ولقد بدا ذلك واضحا منذ الأيام الأولى لحكمه» (ص ٢٢٩) . وآخر عبارات فرغلى باشا فى الحديث عن أنور السادات : «رحمه الله فقد كانت فترة حكمه فى معظمها هى فترة الرحمة» .

(٦) وفى كتابه الذى بين يدينا يحدثنا فرغلى باشا باعتزاز عن جمال سالم وهو يقدم لنا جانبا مضيئا من شخصيته فيقول : " لم يكن قد مضى على قيام الثورة غير سنوات قليلة حين

اتصل بى سكرتير السيد جمال سالم لمقابلته فى مكتبه بمبنى رئاسة الوزارة فى ذلك الوقت ، وتوجست خيفة من هذا اللقاء لأن المعلومات التى وصلتنى عن السيد جمال سالم لم تكن تبعث الطمأنينة فى النفوس ، حيث أشتهر بأنه كان عصبيا للغاية ، وكان من السهل عليه أن يفقد أعصابه ، كذلك لم يكن قد مضت على حادثة وقعت بينه وبين على الشمسى باشا غير أيام معدودة . كان على الشمس باشا يشغل منصب رئيس مجلس إدارة البنك الأهلى فى الوقت الذى كان جمال سالم يشغل منصب نائب رئيس الوزراء ، ونشب خلاف فى الرأى بينهما حول أمر يهم البنك ، وتمسك كل منهما برأيه ، ويبدو أن الشمسى باشا بحكم خبرته الطويلة عامل جمال سالم معاملة شعر منها الأخير بأنه يعامله معاملة الأستاذ للتلميذ ، فما كان من جمال سالم إلا أن ثار ثورة عارمة ، وطلب من الشمسى باشا مغادرة المكتب ، وقيل إنه ظل يطارده ضاربا إياه " بالشلوت " حتى أخرجه من المكتب ، ومن المعروف أن الشمسى باشا شغل منصب الوزارة قبل قيام الثورة بسنوات طويلة ، كما كان عضوا فى مجالس إدارات البنوك والعديد من الشركات . وعلى الرغم من هذا فقد صادف فرغلى باشا مقابلة حسنة من جمال سالم، وانعقدت بين الرجلين أواصر الصداقة ومضت الأمور بينهما فى سلام ووئام " .

(٧) كذلك يثنى فرغلى على خالد محى الدين و يصفه بإنه " يتمتع بصفات عديدة مثل الذكاء الشديد، والثقافة العالية، وأعتقد أنه كان من أوسع أعضاء مجلس قيادة الثورة ثقافة، يضاف إلى ذلك أنه بشوش دائم الابتسام متواضع، مجامل إلى أقصى حد ».

كنت أقول : لله فى خلقه شؤون ، عندما أذكر كيف اختلف مع زملائه ، وكيف فضل الانسحاب ، والاستقالة مبتعداً عن بريق المناصب إيماناً منه بالديمقراطية، كنت أقول لا بد أن هذا الرجل يتمسك بمبادىء يؤمن بها ، ويحترمها، وبالتالى يحترم نفسه .

وقد تختلف مع إنسان فيما يعتنقه من مبادىء اختلافاً جذرياً، لكنك قد تحترمه احتراماً شديداً بالرغم من ذلك .

وأعتقد أن السيد خالد محى الدين من بين هؤلاء الذين اختلفت معهم فى الرأى ولكنى لا أملك إلا احترامهم أعظم احترام» .

(٨) أما تقدير فرغلى باشا لصلاح سالم فلعله أول تقدير حقيقى نقرؤه فى كتب السياسة، وفرغلى باشا يوجه إلى عقولنا صدمة قوية حين يقول فى نهاية حديثه عنه : «ومازلت أعتقد حتى هذه اللحظة أن الله لو أطال عمر هذا الرجل، وبقى فى السلطة لتغير وجه الحياة السياسية فى مصر نحو الأفضل، ولما حدثت بعض الأخطاء التى عانينا منها فيما بعد» .

هكذا يبدو فرغلى باشا أكثر تعاطفاً مع صلاح سالم من كل من سجلوا آرائهم، وهو يعتقد أن صلاح سالم كان صادقاً فى حبه لعبد الناصر إلى الحد الذى جعله يستقيل من أجل أن

يبقى عبد الناصر !! وهو يقول بكل وضوح" شعرت من خلال لقاءاتى مع هذا الرجل أنه يحمل حباً ، واحتراما للرئيس عبد الناصر وبدأت فى هذا اللقاء الأول أشرح له كيف أن رجال المال ، والأعمال ينشدون الاستقرار ، والاطمئنان على هذا المستقبل ، وفى هذا الجو الثورى المحموم ، هناك إشاعات كثيرة تتردد عن تغيير وعدم الاستقرار . ثم لاحظ أننى صمت فجأة فسألنى : ما مضمون هذه الشائعات التى تقلقكم ، قل لى ؟وشعر أننى متردد فأخرج من مكتبه قرآنا ، وأقسم عليه أن كل ما أقوله مهما كان لن يؤثر على موقفه منى . حينئذ قلت بعد أن شعرت بصدق وعده : لقد سمعت مثلا أن هناك خلافات واسعة بين أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وأن أوضح هذه الخلافات بينك أنت شخصياً ، وبين عبد الناصر .

فقال الرجل بحماس صادق : هذا طبيعى أن نختلف ، لكن الذى يجب أن تعرفه جيداً أن اختلافى مع الرئيس عبد الناصر هو مجرد خلاف فى الرأى لا يمكن أن يدفعنى إلى الوقوف ضده، وأن هذا لن يحدث أبدا ، ويوم أشعر أن هذا الخلاف قد حال دون إمكانية التعاون بيننا فسوف أستقيل ، وهذا أقصى ما سوف أفعله .

ويقينا كان الرجل صادقاً بالفعل ، فيوم اختلف مع الرئيس عبد الناصر انسحب فى هدوء شديد. لم يمض على هذا اللقاء غير أسابيع قليلة حتى اتصل بى مدير مكتبه فى القاهرة، وقال لى إن السيد صلاح سالم يرغب فى مقابلتى "وسافرت فى اليوم التالى إلى القاهرة ، ومن الفندق اتصلت بمكتبه فأبلغنى مديره أن الوزير أصيب بوعكة صحية ، وأنه سوف يستقبلنى فى المنزل ، ومر مدير المكتب، واصطحبنى إلى منزل صلاح سالم فى العباسية، وكان المسكن بسيطاً للغاية ، وحراسته كانت على نفس القدر من البساطة، وأثناء الاستقبال أبلغنى أنه قد أبلغ نتيجة مقابلتى السابقة للرئيس عبد الناصر (أو جمال كما كان يقول)، وأن جمال يطلب منك أن تنقل إلى زملائك تأكيده بأن الثورة لن تلجأ إلى أى إجراءات دون أن يرجع إلينا، ويأخذ رأينا، وعلينا أن نطمئن " .

(٩) ومن أبرز شهادات فرغلى باشا فى هذا الكتاب شهادته للقيسونى فهو يشهد له بأنه " من الكفاءات المصرية النادرة، يتسم بالصراحة والوضوح، مفتوح العقل والقلب عند سماعه للآخرين، ومن أفضل من تحدثت معهم فى أمور الاقتصاد والإدارة ، لا يتحدث فى أى موضوع إلا إذا قام بدراسته دراسة وافية، ويجد المرء فى الحديث معه متعة لا حدود لها. التقيت به للمرة الأولى فى مكتبه سنة ١٩٥٤ بغرض إقناعه بالعمل على إعادة فتح بورصة القطن التى كانت مغلقة منذ عام ١٩٥١ على أثر ما حدث فيها من مضاربات. ولقد تكررت هذه اللقاءات، حيث كنت أذهب إليه بصفتى رئيساً لاتحاد المصدرين. كان على أن أقنعه بأهمية إعادة فتح البورصة ليتولى هو بعد ذلك إقناع الرئيس عبد الناصر وبالفعل وافق على افتتاح

البورصة ، ونظمت حملاً بالمنتزه دعوت لحضوره عدداً كبيراً من رجال المال والأعمال المصريين والأجانب، كذلك بعض كبار المسئولين عن الشئون الاقتصادية وعلى رأسهم الدكتور القيسونى » .

« وخلال الحفل ألقى رئيس بورصة ليفربول "لورد بارمل" كلمة أشاد فيها بكفاءة الدكتورعبد المنعم القيسونى الاقتصادية ، كما تحدث عن تفاؤله بمستقبل الاقتصاد المصرى ، وأشاد بقرار إعادة فتح بورصة الأقطان فى الإسكندرية التى كانت تعد من أهم ثلاث بورصات للقطن فى العالم ، ومن أقدمها جميعاً . وإنى لأذكر كيف أدهشنى ، وأخجلنى حين وقف يلقى كلمته ليقول : "إن أستاذى فى مجال القطن هو فرغلى الذى يتسم بفهمه العميق للواقع" .

« وفى ردى على كلمته الرقيقة قلت ، وكنت أعنى ما أقول : « إن الدكتور القيسونى يعد عبقرية مصرية فى مجال الاقتصاد ، وإنه يدير دفة الاقتصاد المصرى بطريقة تتسم بمهارة السحرة الذين يظهرون على المسرح » . وبعد افتتاح البورصة ، بدأت تلعب دوراً كبيراً فى بناء جسور الثقة بينى وبين الدكتور القيسونى ، حتى إنه ذات مرة أعطانى رقم تليفون لأتصل به فيه ، وقال لى « إن هذا الرقم لا يعرفه سوى الرئيس عبد الناصر » .

« ولم تقتصر علاقتى بالدكتور القيسونى على أمور البورصة قط ، بل لقد حرصت على إمداده بكم هائل من المعلومات عن أسواق القطن فى البلاد الشرقية الذين كنت أتعامل معها وكانت تثق بى» .

أذكر ذات مرة أنى ذهبت لمقابلته للحديث حول أمر هام يدور حول بعض ما دار بينى وبين السفير الروسى فى القاهرة ، وما كدت أصل إلى مكتبه حتى وجدته يتأهب للذهاب إلى مطار القاهرة لاستقبال أحد الوزراء الأجانب ، وعندما علم بأهمية الحديث الذى جئت من أجله عرض على أن أصحبه حتى المطار لنتحدث فى السيارة. وفى السيارة قلت له « لقد علمت من السفير الروسى أن بلاده على استعداد لتزويد مصر بالأسلحة وكل ما يتمناه الروس هو ألا يعلم الأمريكان بهذا الأمر ، وربما يكون من الأفضل أن تتم الصفقة عن طريق طرف ثالث ، وهوتشيكوسلوفاكيا الدولة الاشتراكية الأخرى التى تنتج السلاح . . والغريب أن دول المعسكر الاشتراكى ، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى لم تكن لديها ثقة فى الثورة فى بداية عهدها ، وكانوا ينظرون إلى قيادتها على أنها برجوازية تميل إلى الغرب بطبيعتها . والذى حدث بعد ذلك ، نتيجة لتطورات عديدة ، هو اتجاه الثورة للشرق ، والحصول على أول صفقة سلاح للجيش المصرى من تشيكولوفاكيا » .

« وفى مرة أخرى كان الدكتور القيسونى ضيفاً على عشاء أقمته على شرفه فى اتحاد المصدرين ، وبينما نحن جلوس فى جو يسوده المرح إذا بشخص يدخل ، ويترك له قصاصة من

الورق، وما إن قرأها الدكتور القيسونى حتى تغيرت ملامحه، ولاحظت ذلك حيث كنت أجلس بجواره على المائدة، واستفسرت منه عما يضايقه فقال لى (وكان تأميم القناة قد تم) : إن الإشارة تقول إنهم لاحظوا أن قطعاً من الأسطول الإنجليزى تقوم بمناورة خارج ميناء الإسكندرية » .

« حضرت جلسات كثيرة رأسها وزراء، وكنت ألاحظ فى كثير من الأحيان أن هناك أكثر من شخص يتحدثون فى آن واحد، وترتبك المناقشة، وتكثر الأحاديث الجانبية، وتتفرع المناقشات، لكننى لاحظت أن ثلاثة وزراء بالذات اتسموا بالحزم فى إدارة المناقشات هم الدكتور القيسونى، والمهندس سيد مرعى، والدكتور حامد السايح الذى اعتقد أنه كان من أكفأ وزراء الاقتصاد بعد الثورة » .

« كان الدكتور القيسونى بارعاً فى إدارة الجلسات التى يرأسها، كيف يدير الحوار بين الحاضرين، كيف يعطى الفرصة لكل متحدث لبعبر عن رأيه، وكيف يتناول هو طرف الحديث فى الوقت المناسب ليحسم المناقشة؟ . كان الدكتور القيسونى يحسن معاملة مرءوسيه إلى أقصى حد لكنه حين يشاهد خطأ فى سلوك واحد منهم، لم يكن يتوانى عن توجيه أشد اللوم له»

« بعد مشكلة التأميمات والحراسات، وفى الهوجة التى أعقبت هذه الأحاديث وجهت إلى تهمة تهريب أموال إلى الخارج، وأحلت للتحقيق، ولما كنت واثقاً من براءتى، ومن أننى لم أهرب مليما واحداً إلى خارج البلاد، فلقد توجهت للدكتور القيسونى، وشرحت له الأمر، وكان واثقاً من براءتى ومتأثراً لما أصابنى من ألم . . وفى هذه الجلسة طلبت منه مطلبين أن يشرف على التحقيق وكيل وزارة المالية لشئون النقد ، وأن يتم التحقيق فى إحدى قاعات البنك الأهلى، وليس فى شركتى أمام الموظفين كما كان مقررا » .

(١٠) ومع كل هذا الثناء على مَنْ عرفهم فإن فرغلى باشا لا يضيع الفرصة المتاحة فى انتقاد بعض الوزراء الذين ضايقوه فى بعض مراحل حياته الطويلة ومن هؤلاء على سبيل المثال الدكتور لبيب شقير . وفرغلى يحدثنا عن هذا العالم الجليل بتأفف واضح فيقول: " . . . . ومن الأحداث التى ضايقتنى وذهبت أقصها ذات مرة على الأستاذ هيكل، أن أحد الأصدقاء كان حاضراً فى اجتماع مع أحد الوزراء فى ذلك الوقت، وهو الدكتور لبيب شقير واقترح هذا الصديق على الوزير اقتراحا قال له فيه : " لماذا لا تستفيد بعلم وخبرة فرغلى فى مجال القطن عن طريق إعطائه وظيفة مناسبة، وبذلك تحقق هدفين : نستفيد بخبرته، ونعمل على إخراجه من ضائقته المالية التى نجمت عن التأميم والحراسة . فما كان من الدكتور لبيب شقير إلا أن رد عليه بقوله : « ياسيدى يبيع نجفة من بيته، ويعيش منها لمدة

سنة ». وعندما استمع الأستاذ هيكل لهذه الحكاية بدا على ملامحه أنها لم تعجبه، وبعد تفكير قال لى : « وهل تعتقد أن وزراءنا لا ينطقون بسخافات فى بعض الأحيان » .

(١٠)

ولقد يكون من الإنصاف أن نذكر بالتقدير ذلك الحس الذكى الذى تميز به فرغلى فى تناوله لتاريخنا من تلك الزاوية الضيقة التى رأى منها الاحداث والاشخاص :

(١) فنحن نقرأ لفرغلى باشا اندهاشه من تجربة صدقى باشا وحكمته وهو من المعجبين به : «وأتذكر يوما التقيت به على باخرة إيطالية وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان بين ما قاله لى ردا على سؤال وجهته إنه لو خير بين ناظر عزبة مشكوك فى ذمته لكنه كفء، وآخر أمين ومعدوم الكفاءة لفضل الأول على الثانى، وعندما أبديت دهشتى قال لى بثقة مبرراً اختياره «إن الأول سوف يفيدنى بكفاءته، ويسرقنى وحده، أما الثانى فسوف أفيد من أمانته وحده ويسرقنى كل من حوله، وعندما رأى الدهشة على وجهى قال لى: إنك صغير السن، وسوف تعلمك الأيام صحة ذلك» . (ص ٤٣). ومن الطريف أن فرغلى باشا لم يوضح لنا بعد ذلك هل آمن عندما كبر بنظرية صدقى باشا أم ظل على دهشته منها؟

(٢) كل ما نستطيع أن نجده من آثار بين السطور فى هذا الكتاب من حديث فرغلى عن طلعت حرب، كان من قبيل «وكما أن لكل عظيم أخطاء، فقد كان من أخطاء طلعت حرب أنه لا يحسن اختيار معاونيه، ومديريه فى أغلب الأحيان، كما أنه توسع بسرعة شديدة للدرجة التى تسببت للبنك فى أزمته الشهيرة» (ص ١١٥).

ولكن هذا لا ينفى ذرة من التقدير العميق الذى يكنه فرغلى لطلعت حرب رجل الاقتصاد المصرى الأول. ومع هذا فقد كان فى وسع فرغلى باشا أن يفصل الحديث فى شأن الاقتصاديين المصريين بطريقة تعكس ثقافته وخبرته التى أهلته ليعمل أستاذاً لإدارة الأعمال فى كلية التجارة فى عهد الثورة! ! ولكن يبدو أن طبيعة التاجر تغلبت على طبيعة الأستاذ!

(٣) ويكشف لنا فرغلى باشا عن أنه اقترح على الأستاذ هيكل أن يقترح على الرئيس السادات أن تلعب السيدة جيهان السادات فى حياة زوجها دورا عظيما كذلك الذى لعبته زوجة تشرشل فى حياة رئيس الوزراء العظيم، ويروى كيف أن الفكرة جاءته من حديث فى لندن مع أحد الأصدقاء الذين يعملون فى مجال المال والاقتصاد، وكان على معرفة جيدة بالأستاذ هيكل (وهى جملة اعتراضية مهمة) ص (١٩٤). ولسنا فى حاجة إلى أن نعلق بأن السيدة جيهان السادات كانت جاهزة لهذا الدور سواء أشار بذلك فرغلى أم لم يشر !

(٣) ومقارنته بين النقراشى وممدوح سالم لفتة ذكية وإن لم يوافق عليها كثيرون : «يوجد

بينهما شبه كبير فى الأسلوب، فكلاهما شغل منصب وزير الداخلية، وكلاهما شغل منصب رئيس الوزراء، وكلاهما من الإسكندرية، وكلاهما اشتهر بطهارة اليد، واللسان، والاستقامة، والشجاعة، ربما الفارق بينهما أن النقراشى باشا بدأ حياته مدرسا بينما ممدوح سالم بدأها ضابطا للبوليس، والنقراشى باشا كان متصلبا بينما ممدوح سالم كان أكثر منه مرونة» (ص ٢٢٤).

ومع هذا فإن هذه المقارنة فى حد ذاتها قد تتضمن إشارة ذات أهمية خاصة للذين لا يصدقون أن زعماء مصر فيما قبل الثورة وزعماء مصر فيما بعد الثورة كانوا كلهم مصريين ومن الممكن أن يكون هناك اتفاق وتماثل فى شخصياتهم. . ذلك أن بعضنا ـ أقصد الشباب ـ ما يزال تحت تأثير الظن القائل بوجود حاجز تام بين خصال هؤلاء وهؤلاء، فإن كان هؤلاء هم المثاليون الوطنيون فأولئك هم أفراد الإقطاع المرابى، ولو كان هؤلاء هم المتعلمون المصلحون فأولئك هم الجهلة الدكتاتوريون. . وها نحن نرى رجلا عاصر هؤلاء وهؤلاء ووجد بينهم أوجه شبه، لأن أو وكأن التاريخ يعيد نفسه فى وطن واحدا!

(١١)

ومن أيسر الأمور على الذين يطالعون هذا الكتاب أن يحكموا بأن فرغلى باشا لم يكن عصاميا، وكيف يكون عصاميا من كانت أول هدية كبيرة يحصل عليها هى سيارة «ستوديو بيكر» أهداها لى والدى مكافأة لى على نجاحى بتفوق فى البكالوريا» (ص ١٦)، أو كيف يكون عصاميا من قرر والده إرساله للسفر إلى إنجلترا للدراسة، ولكن الذى لاشك فيه أن العصامية ليست هى الابتداء من الصفر فحسب، ولكنها قد تتمثل كذلك فى بناء مجد فى مجال لم يكن للمرء به عهد ولا كان لقومه به خبرة من قبل. . ولهذا فإن عصامية فرغلى عصامية من طراز متميز، وانظر إلى ما يرويه عن نفسه وهو يقول: . «بدأت فى الإعداد لأول صفقة تصدير، ولما لم أكن أملك فى هذا المجال أية خبرة أو تجربة، فقد حققت خسارة تصل إلى ٤٠٠٠ جنيه، وعندما علم والدى بذلك قال لى إنه سعيد بهذه الخسارة لأن النجاح لو كان صادفنى مع أول تجربة لأصبت بالغرور، وكما يقولون فى الأمثال: «تجربة آلمتنى تجربة علمتنى» تعلمت من هذه التجربة درساً لن أنساه، وبعدها بدأت أدقق وأحسب بصورة أفضل» (ص ١٩).

(١٢)

أما إن هذا الكتاب ممتع فأمر لا سبيل إلى إنكاره، وأما إنه إضافة إلى المكتبة العربية فأمر لا يحتاج إلى إثبات، وأما سلاسة لغته ودقة بيانه فلابد لفرغلى باشا أن يفخر بهما حتى وإن شكر

فى بداية كتابه صديقه الوفى عادل أبو زهرة «الذى تفضل بمراجعة أسلوب الكتاب وتحسين لغته»، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن فرغلى باشا يذكر مرات عديدة فى كتابه عجزه عن الحديث بالفصحى مع أنه تلقى تعليماً ممتازاً، ولكنه فى «فكتوريا» حيث يتراجع الاهتمام بالعربية فصحى أو عامية، فإذا كانت مدرسة «فكتوريا» قد خرجت لمصر وللوطن العربى كثيراً من أعلام السياسة والاقتصاد حين كان أمر مصر بيد من يحكمهم خلفاء الملكة فكتوريا، فقد آن الأوان لأن توجد فى مصر مدارس حقيقية لا تقل عن فكتوريا، وبحيث لا يقل خريجوها عن خريجى فكتوريا، وبحيث يذكرنا قراء التاريخ فى منتصف القرن الحادى والعشرين وأواخره بالخير. فإن لم نكن فاعلين فلننتظر شيوع دعاوى بعض المتطرفين على أحد الجانبين بعمالة خريجى مثل هذه المدارس، ودعاوى المتطرفين على الجانب الآخر بفشل التعليم القومى.

وليس هذا التماسا للعذر لفرغلى باشا فى بعض الأخطاء النحوية الصارخة فى هذا الكتاب من قبيل قوله فى صفحة ١٣ «إننى حينما أستعرض حياتى، أجد أن ما استخلصته منها كثيراً» وليذهب خبر إن ليكون فى خبر كان!!! ومن قبيل قوله فى صفحة ٤٧ «وهذه كانت أخلاق السياسيون القدامى»، وفى صفحة ٦٢ «وبمرور الأسابيع من عمر الوزارة لم يعاد الدستور»، وفى صفحة ١٠٨ «وفى الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٤٤ يصدر مرسوماً ملكياً» حيث يرفع الفاعل بالألف المنونة.. إلخ مثل هذه الأخطاء التى لا يرضى فرغلى باشا الأنيق فى كل جزئياته عن وجودها فى ثنايا كتابه الأنيق.



الفصل السابع

فى الخمسين عرفت طريقى

للدكتور محمود الربيعى

(١)

نشر هذا الكتاب عام واحد وتسعين أى حين كان مؤلفه فى التاسعة والخمسين من عمره المديد بإذن الله ، ومعنى هذا أنه وقف فيما كتبه عند فترة زمنية مضت عليها ست سنوات تقريبا ، وهكذا نجح الدكتور الربيعى منذ اللحظة الأولى فى أن ينتصر بعض الانتصار على عوامل الضعف التى تهدد كتابة الترجمة الذاتية « أو التجربة الذاتية » حين يكتبها الإنسان وهو لايزال يعيشها فتكون المعاصرة نفسها بمثابة أكثر الحواجز كثافة وأقدرها على حجب الرؤية الصحيحة للواقع المعاصر .

وقد كتب الدكتور الربيعى فى هذا الكتاب بعض تجربته الشخصية منذ استطاع أن يعى ماحوله من الحياة والأحياء وإلى أن شارف الخمسين وأدرك كثيرا من حكمة الزمن الذى مر به ومر عليه وهو يجاهد فى سبيل أن يقدم أقصى ما يستطيعه من جهد فى كل الظروف .

لم يدع الدكتور الربيعى فيما كتبه فى هذا الكتاب أنه صاحب تجربة فريدة فى بابها، ولا أن الأحداث التى مرت به لم تمر بأحد غيره ، بل ربما كان العكس هو الصحيح ، فالربيعى دائما يحاول أن يجد « الصف » الذى كان فيه أو الذى انتمى إليه فى كل خطوة من خطوات حياته ، وربما لم يكن الصف واحدا فى كل الأحوال ، فقد تنقل الربيعى من تجربة إلى تجربة ، ولكننا مع هذا نجد أنفسنا أمام أستاذ للأدب وللنقد يؤمن بأنه كان فى كل أحواله جزءا من النسيج العام لهذا الشعب الذى أنجبه ، وفى اللحظات التى يعبر لنا الربيعى عن ضيقه من بعض

سلبيات المجتمع الذى يعيشه ، فإنه يفعل ذلك من دون أن يشير إلى أن هذه السلبيات تأتى فى إطار التدهور العام ، فهو يقول إن الوضع أصبح هكذا ولكنه كان فى الأصل أقرب إلى الحق أو العدل أو الخير أو الجمال . . وهكذا نرى الربيعى يعانى ولايتعالى ، بل لعله يظن نفسه مسئولا ضمن جيله عن صيرورة الأحوال إلى ما صارت عليه . . وهو شجاع إلى أقصى درجات الشجاعة فى الاعتراف بالخطأ حتى ولو لم يكن الخطأ شخصيا . . فهو يؤمن فى قرارة نفسه بمسئوليته إلى حد ما عن هذا القصور الذى أصبح يعترى حياتنا الأكاديمية والجامعية على سبيل المثال . . يؤمن الربيعى بهذه المسئولية حتى فى غياب السلطة من يده . . وهو يعترف بكل ذلك مع أنه لايعرف طريقا محددا كان عليه أن يسلكه من أجل إعلاء القيم ولم يسلكه . . وهكذا نراه فى كثير مما كتب فى هذا الكتاب أقرب مايكون بل لعله النموذج الواضح للرجل السوى والخلق السوى .

(٢)

ومع هذا كله فإن الربيعى يبذل قصارى جهده فى أن يشخص الأسباب الدفينة لكل مايراه من نتائج ظاهرة ، وهو يحاول أن يجد فيما رآه وعايشه وعاشره تفسيرا لكل ما يقلقه ، ولعله تحامل على نفسه وعلى قلمه فى هذا الصدد ، ولكن أنى لأستاذ الأدب والنقد المشغول بالبحث عن طريق جديد لدراسة أدبنا العربى أن ينجو من التفكير فى الأمور العامة بمثل هذا الحس المنتمى ؟ وأنى له أن يفصل حياته عن حياة المجتمع الذى عاشه فى هذا الوطن بما فى ذلك السنوات المتعاقبة من معيشته مغتربا عنه ؟! أومغتربا فيه ؟!

على هذا النحو أظن أنه يمكن لنا أن نتأمل هذا الكتاب فلا ننتظر منه أن يحدثنا عن النوادر أو عن الطرائف أو عن الخوارق ، وإنما نستطيع أن نقرأ فيه خلجات معبرة عن كثير من لواعج النفس البشرية فى لحظات الحياة التى تترى عليها ، نحن نقرأ لمؤلف قدير يعترف منذ البداية أنه قد عرف طريقه فى الخمسين ، ولكننا نقرأ فى هذا الكتاب كيف عرف هذا المؤلف طريقه ، وكيف تأخرت هذه المعرفة إلى هذا السن ؟ وهل كان من الممكن أن يعرف هذا المؤلف نفس الطريق وهو فى الأربعين ؟ وهل لوكان قد عرف الطريق نفسه فى الأربعين أكان فى هذا كسب لمجتمعه ؟ أم خسارة ؟ هل كان جهاده وكفاحه هما الإنجاز أم كانت معرفة الطريق فى حد ذاتها هى الإنجاز ؟

(٣)

لم أقرأ صفحة الإهداء التى تصدرت هذا الكتاب إلا عندما وجدتنى مضطرا إلى قراءتها فى أثناء قراءة الكتاب كله . . كنت كعادتى قد أجلت قراءة هذا الإهداء المطول الذى امتد

مساحة صفحة كاملة لأنى فى العادة لا أقرأ المقدمات ومافى حكمها إلا بعد أن أنتهى من الكتاب كله . . ولكنى فوجئت فى وسط هذا الكتاب بالمؤلف يحيل على الإهداء عندما تحدث عن تعلمه السباحة من قبل فى الترعة السوهاجية كما ذكر فى الإهداء . .

أكان لابد للمؤلف أن يحيل مثل هذه الإحالة ، أم تراه كان مضطرا إليها بحكم حرصه على ألايكرر شيئا فى هذا الكتاب ، فإذا به يأتى إلى موضع ممارسته السباحة فى بلاد الإنجليز فينبئنا أنه كان قد تعلم السباحة فى صباه . .

هل كان حديثه عن هذا الصبا أضيق من أن يتحدث عن ممارسته السباحة فإذا به يعود إلى صفحة الإهداء حين ذكرها عرضا ؟ أم إن المؤلف كان فى صباه مشغولا بمستقبله فإذا به لايلتفت إلى الجوانب البدنية فى تربية الشخصية إلا بعد ما جاء هذا التصوير الصادق على هذا النحو فى ثنايا حديث الدكتور الربيعى عن نفسه من دون أن يستوقفنا ليتحدث عن مراحل تطور تربيته . .

ولكأنما كان الدكتور الربيعى فى هذا الموقف شبيها بالذين يدخلون المستشفى للمرة الأولى وهم فى سن الستين وعند ذاك يسألهم الطبيب إن كانوا قد قاموا بقياس ضغط الدم أو أجروا رسم قلب من قبل فلا يذكرون أن ذلك قد تم إلا يوم دخولهم الجامعة أو التحاقهم بعمل ما على سبيل المثال . .

فهذا هو الدكتور الربيعى يكتب سيرة حياته الفكرية بكل الدقة ولكنه لايضيئ - سواء كان هذا عن عمد أم لم يكن - جوانب ثقافته الأخرى ، فهو لا يحدثنا عن هواياته إلا عندما تحل به أوقات الفراغ ، وهو لايصف لنا قدرته على إجادته أو عدم إجادته لإعداد الطعام أو إعداد المائدة على سبيل المثال . . إنما هو ماض فى طريقه يبحث عن هذا الطريق حتى عرف هذا الطريق فى الخمسين من عمره . .

وعلى هذا النحو لا يحدثنا إلا عندما يأتى الأوان عن موقفه من الموسيقى ، وهو يعترف بكل الصدق بكل محاولاته فى فهم الموسيقى الغربية ، وكيف انتهى به المطاف إلى أن يفيد منها كشىء جميل قبل النوم فحسب . .

ومع هذا فقد كان فى وسعه أن يتفاخر علينا بأنه كتب رسالته أو بعض كتبه على أنغام الموسيقى الصادرة من بتهوفن ، ولكنه يروى لنا هذا الذى حدث فى إطار ماحدث بالفعل ، لا لأنه قد التزم الصدق فى هذا الذى كتب فحسب، ولكن لأنه على حسب مايوحى لنا لايعرف إن كان قد أصاب اللذة أو قد حرم منها .

(٤)

يبدأ المؤلف كتابه بفصل عنوانه « فصول القرية الأربعة » وهو فى هذا الفصل يحاول أن يصور لنا الجو العام الذى نشأ فيه ، فإذا به مؤمن أشد الإيمان فى كل ماكتبه بأهمية عاملين لا ثالث لهما هما الطبيعة والمجتمع ، أما النفس فإنها تأتى فى المحل العاشر بعد الطبيعة والمجتمع . . هل نستطيع أن نندفع لنأخذ هذا على المؤلف . . . أم إن الأولى أن نشيد بقدرته على التصوير الصادق حين نظر إلى نفسه كواحد من كل و كفرد من مجموع ؟ وهل من الحتم أن يصور المرء فى التجربة الذاتية خلجات نفسه أم إنه يكفيه أن يعبر عن الواقع الذى عاشه مجتمعه الصغير ؟

هكذا وجدت نفسى وأنا مشغول بهذا التفكير قبل أن أبدأ الفصل الثانى من هذا الكتاب والذى جعل المؤلف عنوانه « البداية» وبدأ يتحدث فيه عن نفسه وقلت لنفسى أحدثها عن هذا الذى فعله هذا المؤلف القدير : لكأنما كانت الكاميرا تمسح المكان كله ثم إذا بها تركز على موضوع الحديث! أهو أستاذ الأدب يستغل خبرته فى كتابة خبرته ؟ قد يكون ! ! !

(٥)

يتحدث الينا الدكتور الربيعى بأقصى مايستطيعه من صدق عن فترة حياته الأولى ، وهو يستخلص ما يستطيع أن يستخلصه ليرسم صورة لبواكير حياته ولا نكاد نجد فى هذه البواكير أثرا امتد إلى مابعدها من مراحل حياته إلا ما يمكن لنا أن نسميه القدوة القريبة ، ها هو الدكتور الربيعى يحدثنا فيقول: «فى سنوات تعليمى الأولى لم أظهر تفوقا دراسيا ، بل كنت ألقى – على العكس من ذلك – تعنيفا من أساتذتى لميلى الواضح إلى اللعب ، وفى سنتى التعليمية الرابعة بدأ شىء جديد يغزو حياتى : كان لى ابن خالة يعمل مدرسا إلزاميا فى قرية مجاورة لقريتنا اسمها – نزة الدقيشية – يغدو إليها فى الصباح ، ويعود فى المساء إلى بيتهم ، وعلى الرغم من أن بيتهم – بيت خالتى ـ كان قريبا جدا من بيتنا ، وعلى الرغم من أن خالتى كانت شديدة العطف علىّ ، وأننى كنت كثير الذهاب إلى بيتها ، فإننى كنت قليل الاختلاط بابن خالتى هذا ، وذلك للفارق الكبير فى السن ، وانشغاله الدائم فى عمله ، ولكن ابن خالتى – واسمه الشيخ محمد على – برز فجأة فى حياتى ، فقربنى منه ، وسمح لى أن أرتاد معه مجلس زملائه فى المساء المبكر ، كما سمح لى أن أرتاد خزانة كتبه . وقد رأيت فى هذه الخزانة عجبا : الأهرام ، والمصور ، والاثنين ، والهلال ، بعضها مكدس على الأرض ، وبعضها معلق على حبال ممتدة بطول الحجرة ، ودخلت عالم القراءة من باب الصحافة ، وكان ذلك حوالى سنة ١٩٤٠ » .

« كنت آخذ شيئا فى المرة الواحدة - بإذن من ابن خالتى أو من خالتى إذا كان غائبا - أحمله إلى منزلنا لأقرأه وأعيده ، وأذكر جيدا عودتى فرحا من بيت خالتى فى كل مرة ، واضعا تحت إبطى المجلة أو الجريدة حتى إذا وصلت إلى منزلنا صعدت إلى السطوح ، واستلقيت على ظهرى . ورحلت - فى الصحيفة - إلى القاهرة ، مع أسماء المشاهير ، ومع الصور ومع الإعلانات المبوبة « ولم أفهم معنى العبارة فى ذلك الوقت » ومع أسماء دور العرض السينمائى ، وأسماء المشاهير ، وأسماء الأفلام .

وتأتى إلى ذهنى الآن أصداء من ذلك الماضى البعيد : قرأت فى صفحة السينما عنوان هذا الفيلم : « ارقصى ياحسناء أسبوعا ثانيا » فظننت أن هذا كله هو اسم الفيلم . ولم أدرك إلا بعد سنوات طويلة أن فيلم « ارقصى ياحسناء »كان يعرض فى أسبوعه الثانى . وقرأت قصيدة شوقى :

قف بروما وشاهد الأمر واشهد   أن للملك مالكا سبحانه

يعاد نشرها فى الأهرام بمناسبة سقوط روما فى يد الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ولم أفهم الشعر ، وإن سحرنى تنسيق الأبيات والأشطر ، وقرأت خبر اغتيال أحمد ماهر فى دار البرلمان « ولم أفهم معنى كلمة اغتيال بالضبط ، وإن فهمت بالطبع أنه قتل » وتابعت تشييع جنازته فى المصور فرأيت صور على ماهر والنقراشى والمراغى ومصطفى عبد الرازق ، وقرأت فى الهلال لطه حسين والعقاد وأحمد أمين ، وفكرى أباظة ، ولم أفهم معظم ما قرأت ، وقرأ علىّ ابن خالتى فى إعجاب كبير قصيدة بشارة الخورى :

أتت هند تشكو إلى أمها   فسبحان من جمع النيّرين

منشورة فى إطار جميل فى مجلة « الاثنين » وقرأت على ضوء القمر محاكمة محمود العيسوى قاتل أحمد ماهر ، وتعاطفت معه أشد التعاطف ، وحزنت جدا حين حكم عليه بالإعدام ، وصببت جام غضبى على النائب العام عبد الرحمن الطوبّر .

وأجريت فى هذه الفترة انتخابات عامة ، ورشح لها أحد أقارب الشيخ محمد وأقاربى ، فطلب إلى أن أترك المدرسة وانضم مؤقتا لكتابة أسماء الناخبين فى جداول الانتخابات . وقد أديت ذلك بحماسة بالغة . وترددت على المقر الانتخابى لمرشحنا نهارا وليلا ، وحين أعلنت النتيجة لغير صالحه حزنت حزنا شديدا ! . »

هكذا يلخص أستاذ الأدب كل الوقائع التاريخية الدرامية التى مرت ببلاده فى فترة من حياته ، ويوردها لنا على هذه الصورة من التتابع السريع شأن ما تفعل السينما فى بعض أفلامها حين تريد أن تنتقل من حقبة زمنية إلى أخرى بينما البطل هو البطل .

(٦)

وسرعان ما يواجه الربيعى نفسه وهو يقف على مفترق طرق بين التعليم المدنى والتعليم الازهرى وهو يصف لنا الموقف الذى وقفه قبل يوم هذا الامتحان الفاصل فيقول : « انتهيت من حفظ القرآن بحلول الصيف ، وأعطى سيدنا إشارة الأمان لأسرتى ، وأصبحت مؤهلا - من الناحية الشكلية - للالتحاق بالأزهر . ولكننى كنت أضمر فى أعماقى رغبة أخرى هى الالتحاق بمدرسة المعلمين الأولية . وكان مبعث هذه الرغبة إعجابى الذى لايحد بابن خالتى مدرس الإلزامى ، كنت أريد أن أقتفى خطواته : أتعلم كما تعلم ، وأعود إلى القرية لأشتغل بمهنته ذاتها ، وأنضم إلى مجلسه باعتبارى زميلا له ، تلك كانت أمنية الأمانى ، وكانت ثمة أمنية أخرى : أن أرتدى الزى الإفرنجى « البدلة والطربوش » زى التعليم المدنى ، وألا أسجن نفسى فى الزى الأزهرى « الكاكولا والعمامة » .

وكان يلزم للقبول بالمعلمين - كما يلزم للقبول بالأزهر - أن أجتاز امتحان مسابقة ، شفويا، وتحريريا . فلما ألححت على أمى وابن خالتى بدخول المعلمين - وكان امتحان مسابقتها يعقد أولا - اتفق معى على أن أذهب لأدائه فإذا اجتزته عدت، وصرفت النظر عن امتحان مسابقة الأزهر ، وإذا لم أجتزه بقيت لامتحان الأزهر ، وكان أقرب معهد دينى ، وأقرب مدرسة معلمين - على ذلك العهد - يقعان فى أسيوط وكان هذا الحل مقبولا عندى ، بل لم يكن ثمة حل آخر ، إذ إن التعليم العام الابتدائى كان مستبعدا منذ البداية »

ثم لايلبث المؤلف أن يحدثنا بعد صفحات عن خيبة أمله لفشله فى هذا الامتحان، وهو يعترف فى صراحة نادرة بمدى تغلغل هذه الخيبة من نفسه ، وهو مانعرفه جميعا من أنفسنا حين نجد الفشل فى بدايات حياتنا فتظل مرارته معنا طوال الوقت مع أننا قد نتحمل فيما بعد ما هو أقسى من هذا الفشل العابر ، يقول الدكتور الربيعى : « أديت امتحان المسابقة للقبول فى المعلمين بذهن شارد ، وكان الامتحان أصعب كثيرا مما قدرت ، فقد سئلت عن مسائل فى اللغة العربية ليس الحال والتمييز أصعبها ، وقد جاءت النتيجة مخيبة لأملى . ولا أذكر أننى حزنت فى حياتى حزنا كالذى حزنته ليلة ظهور النتيجة ورسوبى . وحين أسترجع ذلك الآن أقول لنفسى : إننى لو كنت نجحت فى ذلك الامتحان لانتهى بى الحال إلى أن أكون مدرسا إلزاميا، وأنا الآن أستاذ فى الجامعة ! ولكن حتى ذلك - والحق يقال - لا يجلب لى السلوى الكاملة ، فهل أستطيع أن أقطع أننى الآن أكثر سعادة من مدرس ابتدائى فى قريتى؟ »

هذه لقطة لا أحب أن يفوت القارىء مدى ما تحمله من شحنات قوية أحسبها تتجاوز بكثير المعانى التى أردت أن أنبه إليها فى مقدمة حديثى عن هذا الكتاب والمعانى الأخرى التى أشرت إليها منذ قليل قبل أن أنقل هذه الفقرة !!

وليس هذا هو كل الفشل المبكر فى حياة الدكتور الربيعى فهاهو بعد أسابيع قليلة يصيب تجربة قاسية أخرى ، يحاول هو وإن كان لايوافق نفسه تماما أن يرجع إليها السبب فى ابتعاده عن الصور الأولى من الفنون التشكيلية فيما بعد ذلك ، وهو يروى هذه القصة فيقول : « وأما الرسم فقد تمت القطيعة بينى وبينه فى مرحلة مبكرة جدا إثر القصة التالية لى معه : كان شقيقى الأكبر يشاركنى المبنى الدراسى ذاته ، ولم يكن يرى أننى محتاج إلى نقود فى جيبى طالما كان من المؤكد أنه سيلتقطنى إثر انتهاء الدروس . ولم أر أنا هذا - بدورى - غريبا ، ولا طلبت أن يكون معى نقود خاصة بى . وفى أحد الأيام الأولى لبدء الدراسة - وكنت قد اتخذت مقعدى فى الصفوف الأولى من الفصل الدراسى وبدوت فى جبتى الجديدة وعمامتى الجديدة وحذائى الجديد - فى أبهى نظام ، دخل محرم أفندى مدرس الرسم ، وأمر كل طالب أن يذهب « الآن » إلى مكتب الملاحظ على أفندى ويبتاع كراسة للرسم بخمسة قروش . وقد تدافع الطلاب خارجين من الفصل وعائدين إليه وبقيت فى مكانى . وحين استحثنى محرم أفندى على الذهاب لم أجد بدًا من أهمس له بالحقيقة ، ولكنه آثر آن يجعلها فضيحة علنية فقال بأعلى صوته : بقى ياأخى كل الوجاهة دى ولا فيش فى جيبك شلن ؟ ولم أسمع - ولم أر - كيف كان رد فعل الطلاب ؟ فقد أصبت بحالة من شلل الحواس . وحين رأيت أخى فى الفسحة انفجرت له فى البكاء ، وكلمته كلاما غاضبا مختلطا عن الموضوع ، وعن تقصيره فى حقى بتركى دون نقود خاصة . وقد أسرعت إلى حجرة على أفندى وابتعت الكراسة ، ولكن بعد فوات الأوان ، ولم أقبل بعد ذلك على الرسم قط باعتباره موضوعا دراسيا ، حقا إننى أحبه فنا ، وأقرأ عن مدارسه ، وأزور المتاحف ، ولكننى من الناحية العملية لا أستطيع ضبط خط ، أو رسم زاوية» !

(٧)

فاذا حدثنا الربيعى عن فترة شبابه فإننا نجدها تكاد تكون خلوا تماما من كل عواطف الحب التى تجيش بها صدور الشباب فى ذلك الوقت ، وكأن الربيعى شأن طبقته أو طائفته لاينظر إلى هذه العواطف إلا على أنها ذلك الشىء الذى لايستحق التسجيل ، بل ربما قضى أيامه دون أن يعتقد أن من واجبه أن يمارس طقوس الحب أو أن يستجيب فيحول بعض الإعجاب العابر إلى بعض حب يقود خطواته .

وحين تقوم ثورة ١٩٥٢ يكون الربيعى قد تعدى عامه العشرين ، وهو يحدثنا عن انطباع واحد من أبناء ذلك الجيل عن الثورة وقيامها ، فيأتى حديثه متشبعا بدفء الصدق وإن لم يكن فيه أى قدر متوقع من الحماس ، وبخاصة من شاب فى مثل هذا السن . . ولكن الربيعى كما نلمس حريص على الصدق وقادر عليه إلى أبعد الحدود وهو لذلك يقول : « ومع

ثورة سنة ١٩٥٢ تغيرت أوضاع كثيرة ، وقد فرحت بالثورة كما فرح بها الكثيرون من أبناء الشعب الكادحين ، ولكنها لم تغير من اهتماماتى الخاصة شيئا ، والحق أنه لم يكن لى اهتمام بالسياسة قط ، ولا انتميت إلى جماعة - فى حياتى - أو حزب . وكنت أرى الطلاب من شتى الجماعات والأحزاب يتشاجرون أيام الإضرابات ، كما كنت أرى زعماءهم يساقون إلى أقسام البوليس ، فأتعجب للوضع الغريب الذى يضعون أنفسهم فيه ، وأمضى فى سبيلى ، كنت أعتقد أن أشرف شىء فى هذه الدنيا أن نطلب العلم لذات العلم ، ومع أن الطريق - فى تلك الأيام - لم يكن واضحا تماما أمامى فإن ذلك لم ينقص من حماستى شيئا فعشت متفائلا ، أستريح حين أضيف الى معرفتى شيئا جديدا ، وأحزن على اليوم الذى يضيع هباء ، كنت أعمل كثيرا ، وأحلم كثيرا ، وأعيش حياة مادية بسيطة جدا ، ولم أضق مطلقا بحياتى التى هى أقرب إلى التقشف ، ولا أحسست مطلقا بالحرمان »

ولايكاد الربيعى يعترف بأنه طرأ تغير ما على حياته إلا فى فترة دراسته فى دار العلوم ، وهو لهذا حريص على أن يذكر لنا جوانب تجربته بمن فيها من أشخاص ، وهو حريص على أن يتحدث عن نجم النشاط الثقافى فاروق شوشة بعمق شديد ، وهو يبدى إعجابه بفكرة اتحاد الطلاب وبالنشاط الثقافى فى الكلية وخارجها وبمهرجان الشعر . . كما أنه أصبح الآن «حسب مايحدثنا » يرى الأسماء الكبيرة التى كان يراها فى المجلات وفى فهارس دار الكتب من أمثال إبراهيم اللبان ، وإبراهيم أنيس ، وعلى الجندى وعباس حسن ، وزكى المهندس ، وعمر الدسوقى ، ومحمود قاسم .

كذلك أصبح الربيعى مسحورا بنظام المعيدين . . وها هو يعترف أنه - مرة أخرى أصبح يقف فى مفترق الطريق . . وها هو يحاول أن يتذكر هذه الفترة بدقة وعمق فيقول « وبدأ القلق يجتاحنى . إن عالم النشاط الثقافى يتطلب التردد على الندوات ، وقضاء الوقت الطويل فى صحبة الزملاء ، على حين أن تحقيق التفوق الدراسى يقتضى العكوف على العمل ، وعدم تبديد الوقت . وكنت أجد نفسى مدفوعا إلى الأول برغبة طبيعية فى أن أرى أشخاص الشعراء والنقاد وأخالطهم ، وأخرج من محيط « الكتلة الطلابية المجهولة الملامح » كما أجد نفسى مدفوعا إلى الثانى برغبة شديدة فى أن أجد طريقى فى التفوق لأنه الوسيلة إلى تحقيق «المستحيل» عبور البحر إلى أوربا أو على الأقل طريق المعيدين ، هذا فاروق شوشة يختار الطريق الأول دون تردد ، وهذا أحمد مختار عمر يختار الطريق الثانى دون تردد ، أما أنا فلم أختر طريقى بحسم طيلة سنوات دراستى فى دار العلوم . ولا أدرى الآن - وقد أخذت من كل جانب بطرف - هل اتبعت الطريق الصحيح ؟ إننى - على سبيل القطع - لم أفعل شيئا يخالف طبيعتى ، ولا اعتقدت أننى ضيعت الوقت هباء فى أى لحظة من اللحظات » .

(٨)

لو كنا قراء أجانب أو كنا لانعرف الدكتور الربيعى فليس علينا أن نجهد أنفسنا لندرك أن الربيعى قد اختار الطريق الذى ينتهى به إلى سلك الجامعة ، وأنه التحق بالليسانس الممتازة وأنه حصل عليها ، ولكنه لايسافر من فوره إلى أوربا وإنما هو يبقى فى مصر إذ يقتصر تعيين أبناء دفعتهم كلها على اثنين فقط لا ينالان أكثر من التعيين فى وزارة التربية والتعليم ويكون نصيبه أن يعين فى الإسكندرية فى أواخر سبتمبر ، وها هو يعيش عبر سطوره تجربة الإسكندرية . . ثم تتاح له الفرصة للاستقالة والالتحاق بمنحة تفرغ للدراسات العليا فى كليته ، ثم يتاح له العمل فى إعداد رسالة للماجستير سيكون موضوعها إخراج ديوان القطامى وذلك بناء على اقتراح الأستاذ العظيم محمود شاكر الذى يفيض الدكتور الربيعى فى الثناء عليه وعلى علمه الغزيز وعلى شخصه النبيل .

ثم إذا هو يعين معيدا فى إبريل ١٩٦٠ ويرشح احتياطيا لبعثة النقد الأدبى الحديث إلى إنجلترا فى منتصف ذلك العام ، ويتقدم للبعثات وامتحان البعثات ويجتاز هذا الامتحان .

وهو يعبر لنا عن لحظات نشوته بالحصول على البعثة فى انفعال لم يفقد درجة الحماس حتى مع مرور السنين فيقول « كانت البعثة فى خيالى أكبر وأبعد من أن تتحقق ، وكان القلق على النتيجة – لذلك – إسرافا فى الأمل لا يجدر بى . لذا فإنه كان مذهلا ومفاجئا لى إلى أقصى حد أن أعلم – حين أعلنت النتيجة – أننى أصبحت مرشحا بصفة أصلية للبعثة فى إنجلترا . ولا أجد الآن سوى كلمتى «مذهل» و « مفاجىء » لأصف بهما شعورى ، ولكننى على يقين من أن شعورى آنذاك تجاوز الإحساس بالذهول والمفاجأة إلى مناطق أخرى يصعب علىّ الآن اقتناصها فى كلمات ، كنت سعيدا ، ومندهشا ، وبين مصدق ومكذب ، وحائرا ، ومضطربا ، وأشياء أخرى كثيرة ! تزاحمت الأحداث وتلاحقت ، نحيت فكرة الحصول على الماجستير من دار العلوم جانبا « وبقى عندى ديوان القطامى محققا ومدروسا حتى هذه اللحظة » ، وأسرعت بالزواج فى ٢٨ يوليو ١٩٦٠ ، وانغمرت فى الإعداد للسفر ، فحدد لى بالباخرة من بورسعيد فى ١٧ سبتمبر» .

(٩)

أما تجربته فى لندن فإن الدكتور الربيعى يعتبرها بمثابة التحول الكبير فى حياته ، وهو ينبئنا بهذا فى عنوان الفصل الذى بدأ به حديثه عن فترة البعثة ، وتحفل هذه الفترة بما هو أكثر من الامتنان لزميله الدكتور السعيد بدوى . . ويروى الربيعى تفاصيل الحياة فى لندن بكل مايستطيعه من دقة واستحضار للذاكرة ، فيحدثنا عن المسكن والتليفون والمياه الساخنة ومترو

الأنفاق وإدارة البعثات وميدان بيكاديلى ، ودكاكين لندن ، وتعدد الجنسيات ومدرسة الدراسات الشرقية والافريقية وجامعة لندن وحديقة فنسبرى . . وفى وسط هذا كله يلتفت الربيعى إلى داخل نفسه ويتساءل فى براءة فيقول : « ما أشبه جو « فنسبرى» بجو رحلتى فى الصباح الباكر من القرية الى الحقل ، تلك هى الطبيعة الشابة السخية ، الروائح ذاتها ، وفرحة الفؤاد البرىء ذاتها . هل أقول إننى بذهابى الى لندن عدت إلى جهينة ، وإن فصل القاهرة هو فصل الزيف ، والصنعة . والغربة ، والألم فى حياتى ؟ »

ويحكى الربيعى عن لقائه بأستاذه سارجنت وعن امتحان اللغة الإنجليزية الذى كان لابد له أن يجتازه وها هو يمر بلحظات حيرة قاسية. ويفيض الربيعى وله أن يفيض بالطبع فى الحديث عن تجربته القاسية فى تعلم اللغة الإنجليزية فى هذا السن المتقدم ، وكيف كان يعمل من أجل هذا الهدف ست عشرة ساعة يوميا ، وهو شبه معزول فى شمال لندن لايكاد يراه أحد . .

وهو لهذا لايجد حرجا فى أن يقول : « فى بداية عهدى بلندن سمعت معلومات ، أراها الآن مضللة ، وهى أنه بوسع الإنسان أن يحصِّل ما يشاء من أمور اللغة الإنجليزية فى مدة لاتتجاوز شهورا . ولما مرقت منى الشهور دون أن أحس بتحقيق تقدم ملحوظ اتهمت نفسى، وزادت أحزانى ، إننى بعد الشهور التى قضيتها متفرغا للعمل، وباذلا أقصى الطاقة ، لا أستطيع أن أتقدم فى قراءة صحيفة أو كتاب ، ولا أن أعقد محادثة فكرية مع الأستاذ ؟ وكيف ومتى أستطيع التعرف على ما فى الكتب ؟ وإذن فأى بئر عميقة وجدت نفسى فيها ؟ وكيف الخلاص ؟» .

وفيما بعد فإن الربيعى يتحدث بعبارات مليئة بالعاطفة الصادقة والتعبير المجيد عن خلجات النفس الطموحة، وهو يكاد يكرر هذا المعنى بأكثر من صورة من صور الوصف والتحليل التى يسعى من خلالها إلى كشف الغطاء عن محاولاته المستميتة فى تعلم اللغة ، وهو - بلاشك - يجيد التحدث عن هذه المعاناة وأثرها فى عقله الباطن ويكاد يجعلنا نندمج معه .

فى كل لحظة من لحظات معاناته إلى الحد الذى لا يستطيع أى مؤثر آخر أن يصل بنا إليه . انظر إليه مثلا وهو يقول « ظل صراعى مع اللغة الإنجليزية شغلى الشاغل ،كانت مدرستى المنزلية تطرى تقدمى ، وكانت مدرستى فى الجامعة - وهى إنجليزية جامعية بمعنى الكلمة - ترى أننى مثابر ، وأعد بالنجاح ، ولكننى على عكسهما كنت أحس أن الأمور ثابتة فى مكانها . كنت كالمريض الذى يتماثل ببطء للشفاء وتمضى أيامه متشابهة دون أن يحس بفارق يذكر فى صحته بين يوم وآخر وكانت أحلامى تخيل لى أننى سأجد نفسى - فى صباح اليوم التالى أتحدث الإنجليزية بطلاقة - كما يتحدث السعيد بدوى ، ولكن هذا الصباح كان يحمل لى دائما واقع الليلة الماضية كان لسانى ثقيلا ، وقلبى مفعما ، وذهنى مضطربا بالأفكار وكان الناس - وهم

معذورون – يتحدثون إلى بالقدر الذى أستطيع أن أعبر لهم عنه ، وكان ما أستطيع أن أعبر عنه سطحيا جدا ، كنت أجرب – فى صمت – أعمق المشاعر ، وأوضح الأفكار حتى إذا حاولت التعبير انحصر كل ذلك – بالضرورة – فى الكلمات القليلة البسيطة التى أعرفها ، فيأتى الكلام شبيها بكلام الأطفال . وكان هذا يؤلمنى إلى أقصى حد . كنت أتقدم نحو الثلاثين من عمرى ، وقد تخرجت فى الجامعة وتزوجت ، ولكن كل مايصلنى بالناس كلام حول « الجو » وحول اسمى ، وبلدى ، وموضوع دراستى . . الخ .

وكنت لا أحس بنفسى إلا حين أخلو إلى زوجتى ونتحدث ، أما فى الخارج – فى الشارع ، والكلية ، والمجلس البريطانى ، ومدرسة الحى – فأنا طفل كبير ! كنت أشعر على نحو ما بالمهانة ، وأقول لنفسى : لابد لهذه الحالة الغريبة من نهاية ! » .

وبعد صفحات يحدثنا الربيعى عن اللحظة التى تجلى له فيها الفارق بين مستواه الآن فى اللغه الإنجليزية ومستواه فيها فيما مضى ، وهو يحدثنا أنه ذهب إلى المطار لاستقبال السعيد بدوى وفى المطار التقطت صحيفة المساء « الايفننج ستاندارد » وقرأت له بصوت مسموع الخبر الرئيس . كان الكلام سهلا ، ولكن وجه السعيد أشرق بضوء سرور لا أنساه ماحييت . وقد أطرى تقدمى فى اللغة دون تحفظ فأدخل علىّ ذلك سعادة بالغة .

وربما كان الأمر لا يعدو دهشة السعيد للفارق بين حالتى الآن ، والحالة البائسة التى تركنى عليها فى اللغة الإنجليزية، ومع ذلك كان وجهه ينطق بود لم أخطئه ففاضت روحى بالسعادة ، وعرفت أننى وجدت فيه صديقا من نوع فريد كنت أسعى إلى لقائه دائما » .

وبعد صفحات أو بعد سنوات ، وحين تتقدم السنوات بالربيعى فى لندن ويصبح فى عامه الرابع فى إنجلترا يبدأ فى التحقق من أن فهم اللغة وفهم الأدب شيء صعب ، وأنه ليس كما يبدو لنا جميعا وهو يعترف بهذا المعنى المهم فيقول : « وتابعت دروس الأدب الإنجليزى ، مختارا هذه المرة دروسا يلقيها الأستاذ «ساذرلاند » عن أعلام الأدب الإنجليزى ، ومعيدا دروس « تحليل الشعر » وقد أدركت أن فهم أدب أمة أخرى أمر من أشق الأمور فقد يخيل للإنسان أحيانا أنه فهم مايقرأ لمجرد أنه يعرف معنى الكلمات والعبارات والواقع أنه بعيد جدا عن الفهم .

بل إننى لست أذهب بعيدا حين أقول إن فهم الأدب أمر من أشق الأمور حتى لو كان أدب الأمة التى ينتمى إليها الإنسان ، فكم من العرب يفهمون الأدب العربى حق الفهم؟ بل كم من المختصين يفهمون الأدب حق الفهم ؟ إننى أكتب هذا والألم يملأ قلبى ، ولكننى لا أستطيع أن أحجبه بحال من الأحوال » .

(١٠)

يعود الربيعى إلى وطنه وقد حاز درجة الدكتوراه وقد تغيرت كثير من مفاهيمه بالطبع عن العلم وعن البحث العلمى وعن الأدب وعن البحث الأدبى وعن الحياة نفسها ، وإذا به فى خضم الحياة العامة فى وطنه غير مستريح إلى كثير من مجريات الأمور فيها ، فهو ينتقد سطوة الاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت ولكنه يكاد يحتفظ بهذا الانتقاد بينه وبين نفسه ونحن نقرأ له قوله : « وأذكر أننا دعينا على عجل ذات يوم لنحضر جلسة فى فرع « الاتحاد الاشتراكى » فى الكلية ، واحتشد الأساتذة ، وجاءهم مندوب زائغ البصر من قسم قصر النيل ، وجلس رئيس حرس الكلية يسجل الاجتماع ، وتبارى الأساتذة فى الكلام ، ولم يرق لى ذلك قط ، وفى اجتماع تال لما كان يسمى بالمكتب التنفيذى لاحظت أن بعض المعيدين يغلظ القول للأساتذة وينادى - فى حسم مسألة من المسائل - بالتصويت كما تقضى قواعد «الديمقراطية» وحين أجرى التصويت رجحت الكفة التى تكتل فيها المعيدون فساد الهرج وامتزجت السياسة بالعلم على نحو سوقى وخطر » .

ولكن الربيعى يجد نفسه بعد قليل وقد تأذت مشاعره مما آل إليه الحال ، وهو يروى لنا قصة مهمة فى هذا الصدد فيقول : « وقد لاحظت أن بعض القائمين على أمر النحو فى دار العلوم - بعد الجيل الرائع الذى تتلمذنا عليه ، من أمثال أحمد زكى صفوت ، وعلى الجندى ، وعلى السباعى ، وعباس حسن وعطية الصوالحى - يدرس النحو بالعامية ، كما لاحظت أن الطلاب يقاومون الصيغة الصحيحة للدرس الجامعى ويصرون على وجود الكتاب الجامعى أو المذكرة ولكننى لم أعر ذلك اهتماما . وذات يوم استدعانى وكيل الكلية ، وكان فى الوقت ذاته مقررا للمكتب التنفيذى ، وسألنى عن السبب فى أننى لا أزود الطلاب بمذكرات مكتوبة فى الموضوع الدراسى فأجبته بأننى لا أعتقد فى ملاءمة ذلك من الناحية العلمية فقال لى إن إخوانى جميعا يفعلون ذلك ، فقلت له لعل لهم فى ذلك رأيا يخالف رأيى ، فطلب إلى أن أعيد التفكير فى الموضوع ، فسألته إن كان يتحدث إلى بصفته السياسية أو العلمية ، فأجابنى بأنه يتحدث بصفته السياسية ، فلما قلت له إن هذه مسألة أكاديمية بحتة ، ولا علاقة لها بالسياسة ، لم يوافقنى وأكد لى صلة الأمرين ! فقلت له : وإذن ما دور مجلس القسم ومجلس الكلية إذا كان الاتحاد الاشتراكى سيتدخل فى هذه النواحى ؟ فقال لى إنه لا تعارض بين الأمرين . ومضى يشرح لى فى إسهاب مابدا غامضا علىّ . كان هادئا ، وبدا شبه معتذر على حين كانت حدتى بادية . وقد ذكرنى بأنه فى موضع الأستاذية منى ، وهذا أمر لم أكن أنكره ، وأنه يقدر أننى - وقد عدت حديثا من أوروبا - لابد أن أشعر بالتباين بين أحوالنا وأحوالهم . واستطرد إلى شرح التغيرات التى حدثت فى المجتمع المصرى ، وصعوبة الحياة المادية ، وفقدان

الدوافع إلى التجويد العلمي، وبعد الشرح قلت له : لنفرض أن تفكيرى لم يهدنى إلى قبول الأسى لحالة الطلاب - كما يراها من وجهة نظره - ولا الخوف علىّ بأن أظهر بمظهر المخالف للتيار العام . »

« خرجت من هذه المقابلة مبلبل الخاطر ، وبقيت أياما لا أدرى ماذا أفعل . وخلال ذلك طلب منى رائد الشباب - وهو منصب فى الاتحاد الاشتراكى أيضا ، وكان من أساتذتى - أن أحضر نيابة عنه جلسة فى مبنى الاتحاد الاشتراكى فقبلت - من منطلق الخجل لا أكثر - وكان اجتماعا حافلا سمعنا فيه الأحاديث المعروفة التى كانت تتردد فى اجتماعات الطلبة العرب فى لندن . وفى طريق العودة سألت من كان معى عما إذا كان من الضرورى أن أعد مذكرات للطلاب فقال ببساطة أذهلتنى: بالطبع ، وإلا فكيف يحصلون المادة الدراسية ؟ أحزنتنى إجابته ، ولكنه كان صادقا مع نفسه . وقد أخذت بعد أيام أعد نقاط المذكرات فى المواد التى أقوم بتدريسها ، ولاأزال أعتقد أن هذا كان تنازلا منى ما كان يصح أن أفعله . لقد كان معناه قبول الأمر الواقع المتدهور بدلا من التصدى له ، ومحاولة العودة بالمحاضرة الجامعية إلى معناها الصحيح » .

ومع هذا فإن الربيعى يعترف فيما بعد صفحات بأن هذه المذكرات كانت « نواة » كتبه جميعا فيما بعد سنوات . وسوف نجد الربيعى يعود مرة أخرى إلى انتقاد الأحوال التى صارت إليها الحياة الجامعية فى مصر بعد أن يستقر فى مصر بعد إعارتيه إلى الجزائر والكويت .

فأما فيما بعد عودته من الجزائر فانه كان قد ترقى أستاذا مساعدا وهو فى إعارته للجزائر على نحو ما يروى لنا فى صفحة ١٦٢ : « وفى هذا العام رقيت أستاذا مساعدا فى دار العلوم وكان إنتاجى العلمى الذى تقدمت به كتابين هما « فى نقد الشعر ، الصوت المنفرد ، تسع مقالات نشر أربع منها فى مجلة المجلة ، وواحدة فى حوليات دار العلوم ، وأربع فى مجلة المجاهد الثقافى الجزائرية . وقد سررت أن علمت أن الأساتذة الذين كتبوا تقرير ترقيتى أثنوا على مجهودى العلمى .

وما إن تسلم الربيعى عمله فى القسم حتى توفى رئيس القسم فجأة ، وأصبح قائما بعمل رئيس القسم وهو يحكى تجربته حينئذ فيقول : . « وفجأة توفى رئيس القسم ، ووجدت نفسى - نتيجة لهذا الظرف المأسوى - قائما بأعماله . كنت قد وطنت نفسى على أن أعيش حياتى المحدودة ولكننى وجدتنى ، بحكم الظروف الجديدة مضطرا لأداء واجبات متعددة ، والاحتكاك بكثير من الناس ، واتخاذ قرارات ومواقف فى كثير من الأمور . وقد أصبحت بين يوم وليلة عضوا فى مجلس الكلية ، وعدد آخر من لجانه ، ومسئولا عن القسم فى مستوى

الليسانس والدراسات العليا . والذى جعل الأمر عسيرا حقا أنه تصادف أن لم يكن فى القسم عضو هيئة تدريس غيرى ، وقد مضيت فى العمل على سجيتى ، ولم يكن فى وسعى أن أفعل غير ذلك . وأنا على يقين الآن أن أسلوبى فى العمل لم يرض البعض ، ولكننى أحس حين أستعيد تلك الأيام أننى لست نادما على شىء . »

وبعد قليل يعود الربيعى إلى هذا الحديث ويذكر وجهة نظره فيما أصاب الدراسات العليا فى دار العلوم فيقول : « كنت قد واجهت بوفاة رئيس القسم المفاجئة سيلا من طلابه الذين يشرف عليهم . وعند أول اختبار لجديتهم فى العمل تهاوت الأكثرية ، وصمدت الأقلية . وكان مفاجأة لى أن بعض فلول الفئة المتهاوية ذهبوا إلى زميل فى كلية أخرى فقبلهم على الفور! وذلك على الرغم من معرفته الأكيدة بانتمائهم إلى القسم . وقد كشف لى هذا المسلك غياب جانب خطير من تقاليد « الإشراف العلمى » لدينا . وقلت لنفسى : أيمكن أن يحدث هذا فى جامعة من جامعات الدول المتحضرة ؟ وتذكرت حالات فى إنجلترا كان السؤال الأول الطبيعى فيها للطالب الذى يريد أن يغير مشرفه عن أسباب تركه ، ووجوب الحصول على موافقته ، شرط للقبول عند المشرف الجديد . واكتشفت أن قنوات البحث العلمى لدينا « مسدودة » وأن جو التوجس والحيل هو السائد .

وكان بعض طلابى فى الدراسات العليا يشتكى إلى من صعوبة التخرج على يدىّ ويقارنون بين حالتهم وحالة زملائهم الذين يمرون مرورا سهلا فى أقسام أخرى . ولكننى لم أتهاون قط فى هذه الناحية . كنت أعتقد أن التساهل أحد أسباب تخلف البحث العلمى لدينا ، وأننا محتاجون لنتغلب عليه إلى أخذ أنفسنا بمزيد من الشدة . وأعترف أننى لم أحقق فى هذا الجانب نتائج ترضينى . وإذ أتيحت لى المشاركة فى مناقشة بعض الرسائل تكشف لى مزيد من جوانب الانهيار فى مجال البحث العلمى »

وبعد فقرات يحرص الربيعى على أن يؤكد معنى آخر فيقول : « ولفت نظرى من ناحية أخرى انحياز المشرفين إلى حد التعصب إلى « تلاميذهم » وكان من الصعب أن تتم مناقشة صريحة واضحة لرسالة تترتب عليهانتيجة طبيعية صريحة واضحة . كان المشرف يعتقد كثيرا أن النتيجة فى وجهه وأن امتياز الطالب ، يعنى ، امتياز المشرف ، كانت هذه حال الأغلبية وبقيت أقلية عصمها الله ، ومع انهيار المستوى العلمى رخص ثمن التقديرات . فأصبح «ممتاز ، ومرتبة الشرف» .هما الأصل وأصبح «جيد جدا» . قليلا ، وأصبح جيد يثير الدهشة ، وأما مقبول فأصبح بندا معطلا فى اللوائح وأذكر الليلة التى منحت فيها رسالة تقدير « جيد » فى قسمنا فاعتبرت مذبحة حقيقية ، وترتب عليها ما ترتب ، كما أذكر الطالب الذى منح مرتبة الشرف الثانية . وكنت مشرفا عليه . فأبى أن يصافحنى بعد إعلان النتيجة » .

(١١)

ويحدثنا الربيعى فى هذا الكتاب عن رحلتين من رحلات الغربة قضاهما معارا بعيدا عن مصر كانت المرة الأولى فى الجزائر ، وكانت المرة الثانية فى الكويت .

أما الجزائر فقد عانى فيها كثيراً من المتاعب ، كانت المشكلات الطبية أبرز ما فيها ولم تكن الرعاية الصحية فى هذا القطر الشقيق على المستوى الذى يكفل تقديم خدمة تزيل الألم ، أو تعالج المرض إلى الحد الذى يجعله يقول « خرجت من تجربة مرض زوجتى بأن الخدمة الطبية متدنّية إلى أبعد حد فى الجزائر ، وأن على مثلنا ألا يمرض فيها ! وحين شكوت ذلك إلى زميل جزائرى لقيته فى ردهات كلية الآداب قال لى : ماذا تتوقع فى بلاد العالم الثالث؟ كانت العبارة صادقة إلى أقصى حد ، ومذهلة ، وكان ينتظرنا المزيد من مظاهر « العالم الثالث فى السنوات الأربع القادمة . وهذا هو ماحدث بالفعل فقد أصيبت ابنته بالحصبة ، وما إن تماثلت للشفاء منها حتى مرض ابنه هو الآخر بها . . . الخ ، ثم إذا هو أيضا يجتاز أزمة صحية فى الجزائر «ص ١٦٠» .

وفى الكتاب فقرات طويلة ينتقد فيها الربيعى كثيرا من مظاهر التخلف والروتين والبيروقراطية والغلظة التى صادفته فى الجزائر .

أما الكويت فانه يجعل عنوان الفصل الخاص بها « الكويت : العودة إلى الصحراء » ومع هذا فإنه يعالج أمورها بقدر أكبر من السلاسة عن تعامله مع الجزائر، وهو يجيد وصف جو حياته التى عاشها فى الكويت فيقول : «كنت قد جربت فى الصعيد ذلك الحر اللاسع المباشر الخالى من الرطوبة ، الذى يلفح الوجه فى قسوة «وأمانة » كما جربت فى إنجلترا البرد الخالص الذى لايخادع ولا يداجى ولكننى لم أكن قد جربت قط ذلك الحر الثقيل الوطأة المشبع بالماء الذى يجثم على النفس والذى يشعرك أنك تغوص فى أعماق يحتبس فيها النفس باطراد ، مما يشعر بالاقتراب من نهاية لا شك فيها » .

ومع أنه يبدى ارتياحه لتوازن عناصر الحياة فى الكويت « ص ١٨١ » فإنه لايمنع نفسه من أن ينتقد اتباع جامعة الكويت للنسق الأمريكى فى الساعات المعتمدة وبعد أن يشرح طبيعة النظام « ص ١٨١، ١٨٢ » يوجه انتقاداته الموضوعية إليها « ص ١٨٢ ، ١٨٣ » ولايجد أى حرج فى أن يوجه انتقاداته صريحة ومحددة إلى النظام والقائمين عليه من زملائه الأساتذة ! !

ويحدثنا الربيعى عن حياته فى الكويت ويصر على أن يذكر «أنه كان حريصا على أشياء كثيرة ضيقت مجال نشاطه إلى حد كبير ، فلم أخرج عن حدود الواجبات الجامعية سوى مرة واحدة لبيت فيها دعوة « رابطة الأدباء » إلى إلقاء محاضرة أعلنت فيها رأيى الذى أدين به –

بصراحة – فى معنى النقد الأدبى . ولم أكتب عن إنتاج أدبى كويتى قط ، ورأيت بعضهم يتهافت – دون حياء – على مدح أعمال لأدباء كويتيين أحياء بعضهم من أصحاب « السلطة » الأدبية ، كما رأيت بعض الكويتيين يستخدم من هم فى منزلة أساتذتهم فى أعمال لا تزيد كثيرا عن خدمة السكرتارية» .

وهو يلخص تجربته فى الكويت فى فقرة رائعة يقول فيها : « عدت فى الكويت إلى الصحراء، ولكن أية صحراء إنها صحراء المال المتدفق من الأرض ، والسلع المتدفقة من كل أرجاء الأرض والكويت تزخر بمشاعر المالك الحريص ، والمنتفع الطامع ، والقلة الضائعة التى تسعى – دون جدوى – لأداء مهمة حقيقية، وفى الكويت عرفت نمطا من الناس ، صلبا ، ميكانيكيا ، عارفا بطرق جمع المال والحفاظ عليه . يفصل نفسه عن كل شىء ولا يسمح لأفكاره ومشاعره أن تتحرك فضلا أن تجد طريقها إلى لسانه » .

(١٢)

قد لا أكون قادراً على أن اقف بالقارىء عند هذا الحد من قراءة كتاب الدكتور الربيعى ولكنى مع هذا لااستطيع أن أمضى إلى أبعد من هذا فقد تعرضت لمعظم ماتعرض له فى هذه المذكرات الشيقة ، ولكنى كنت أطمع أن تتناول هذه المذكرات أحداثاً مهمة كحرب يونيو ١٩٦٧ وحرب اكتوبر ١٩٧٣ ولكنى ظللت أبحث فى كتاب الدكتور الربيعى عن صدى هذه الزلازل فلا أجد أثراً ولاصدى ، ولا أدرى لماذا شغل الدكتور الربيعى نفسه بأمور كثيرة دون أن يعطى بعض وقته وبعض كتابه لهذا الهم القومى العام ؟



الفصل الثامن

ذكريات سبتمبرية

للدكتور ميلاد حنا

(١)

هذه فصول ستة كتبها أستاذ جامعى تحت تأثير ظروف قد تكون قاسية تماماً حين وقعت، ولكن تذكرها قد يزيد من قسوتها، وتأملها قد يزيد من مرارة الإحساس بالظلم الذى وقع على صاحبها فى حينها، وهى لهذا «أى الظروف» لا تفقد قسوتها بالتقادم، ولن تفقد قسوتها بعد ذلك بالتقادم إلا أن تتحول المشاعر الغاضبة الدفينة إلى سطور قد تكون معبرة، وقد تكون منفثة، وقد تكون متجنية، وقد تكون ظالمة، وقد تكون متأثرة بالهوى، حافلة بالألم، ولكنها فى كل الأحوال وعلى كل الأحوال سطور مضيئة مهما كان لون هذه الإضاءة، وأظن أن أحداً لا يجادل فى أنه: «أن تكون هناك إضاءة من أى لون وبأى لون خير من ألا يكون هناك إلا ظلام التعتيم»

كتب الدكتور ميلاد حنا هذه الفصول الستة يحكى بها بعض ما ظنه يكون ممتعاً لقرائه، وهو فى هذا لا يهمل جانب الحكمة، ولكنه بحكم ممارسة السياسة التى نمت عنده بدخوله السجن، أصبح فى تعامله مع الجمهور أكثر تفهماً لرغبة القراء الذين قد يفضلون أن يقرءوا شيئاً فيه الإمتاع على شيء آخر قد يفتقد هذا الإمتاع.

هذه نقطة ينبغى لنا أن نضعها نصب أعيننا قبل أن ننطلق فى إصدار أحكام قد تكون ظالمة فى تقديرنا لهذا الكتاب الذى يسهل على الناقد أن يهاجمه من زوايا كثيرة، إذا ما تمسك

* نشر فى مجلة عالم الكتاب تحت عنوان: «استرجاع التجربة».

بحرفيات العمل السياسى ، والفكر السياسى ، والكفاح السياسى وكل ما هو سياسى وفكرى ونضالى ! ! .

ولكن أناساً يكون فى وسعهم أن يتنازلوا بعض الشىء عن صياغات محكمة من أجل الانحياز للأيديولوجية التى يفرضها الالتزام الحزبى أو الفكرى أو الحرفى أو المهنى، هؤلاء سيكون فى وسعهم أن يتفهموا الإيجابيات التى فى كتاب ميلاد حنا . . .

فهذا الكتاب صورة من ميلاد حنا أستاذ الجامعة الذى ظل واقفاً فيها بين تلاميذه حتى حطمته الهزيمة التى هزت وطنه وتلاميذه وهزته معهم فبدأ ممارسة السياسة حتى وإن أصبح صديقًا لوزير الداخلية ! ثم وجد فى انتماءاته اليسارية ما دفعه إلى أن يكون عضواً فى حزب التجمع، ثم وجد فى أفكاره الناضجة ما يحول بينه وبين أن يكون عضواً من الأعضاء النمطيين، فإذا هو مثل حى فى مصر كلها لليسارى الذى يكون على يسار اليسار أحياناً وعلى يمين اليسار أحياناً أخرى، ولكنه لا يكون دائماً على نفس المقعد ولا فى نفس الاتجاه حتى وإن عانى من الرياح التى تتغير اتجاهاتها .

(٢)

من هذا المنطلق يمكن لنا أن نفهم ميلاد حنا وكتاب ميلاد حنا، وأن نبتعد عن الانفعال حين نعترض على بعض ما فى كتاب ميلاد حنا، وأن نهتم قبل هذا كله وبعد هذا كله بكل ما يريد ميلاد حنا أن يبثه فى وجدان القارئ الشاب .

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفهم لماذا صدر هذا الكتاب عن « دار المستقبل العربى» التى تنتمى إلى الأستاذ محمد فائق وزملائه من ضحايا ١٥ مايو ١٩٧١ ولم يصدر عن كتاب «الأهالى» أو كمطبوع من مطبوعات حزب التجمع الوطنى الوحدوى .

ثم إنه قد يكون لنا أن نفهم من هذا الكتاب بعض ما لم يكن عندنا كمسلمين مصريين من جوانب الثقافة الكنسية التى لا يتيسر لكل الناس معرفتها ، والقارئ لكتاب ميلاد حنا يجده لا يكف عن الاعتزاز بأنه زامل فى مرة واحدة ثمانية من الأساقفة ، وأربعاً وعشرين من الكهنة .

إذن ففى هذا الكتاب ما قد لا نجده فى غيره أبداً من الحديث عن الأساقفة حين يبتعدون عن صوامعهم ، وعن الكهنة حين يبتعدون عن الكهنوت ، ويبتعد عنهم الكهنوت، وقد أفاض ميلاد حنا فى مثل هذا الحديث بالمقارنة إلى حجم هذا الكتاب، ولكنه أوجز فى هذا الحديث بالنسبة إلى إرواء ظمأ المتعطشين إلى القراءة عن مثل هذه التجربة الإنسانية .

وفى حديثه عن الأساقفة وثقافتهم وسلوكهم ومناقشتهم تتضح فى سطور ميلاد حنا روح

الإنصاف بأكثر مما تتضح فى كتاباته عن أنور السادات، حتى إنه وهو ينتقد واحداً من هؤلاء يتحرج من ذكر اسمه ولكنه لا يتحرج من انتقاد فكره وتفكيره . . و لندع القارئ يتأمل معنا سطور ميلاد حنا فى هذا الجانب الهام، فهو يبدأ بالحديث عن الأسقف بنيامين، وسيأتى عنه حديث آخر بعد ذلك ثم يتحدث عن باقى الأساقفة الثمانية جميعاً فيقول : «أما باقى الأساقفة السبعة ـ فقد كانوا من أجيال تصغرنى سناً، ومن ثم كانت سعادتى بمعرفتهم غامرة. والطريف أن كان من بينهم أربعة مهندسين هم : الأنبا أبشوى ـ أسقف دمياط وهو مهندس كهربائى تخرج بامتياز فى كلية الهندسة بالإسكندرية، والأنبا فام أسقف طما وهو مهندس تعدين ومناجم من جامعة أسيوط، والأنبا بنيامين أسقف المنوفية وكان أصغر الأساقفة المعتقلين سناً، وهو مهندس كهرباء، تخرج فى هندسة القاهرة. والعجيب أن الأنبا بنيامين كان وثيق الصلة بالرئيس السادات، وواحداً من المقربين إليه . وقد روى لى الأنبا بنيامين كيف كان السادات يعلق صورة لهما بالحجم الطبيعى فى منزله بقرية ميت أبو الكوم، لكى ينفى لزائريه ـ وربما لنفسه ـ تعصبه الدينى . . وأنه محب للأقباط، وكثيراً ما كان يروى ذكرياته أثناء تعلمه فى مدرسة الأقباط الابتدائية القريبة من قريته » .

« عندئذ استفسرت عن سبب اعتقاله رغم هذه الصلة؟ أجابنى الأنبا بنيامين دون الإفصاح عن تفاصيل : لقد حاول السادات شرائى، حتى أصبح رجله داخل الكنيسة فى مواجهة البابا، وعندما أفهمته أن ولائى الأول لكنيستى وللجالس على عرشها، رغم صداقتنا الحميمة . . لم يعجبه ذلك . ولعلى لم أدهش كثيراً عندما لاحظت أن الأنبا بنيامين كان آخر من غادر المعتقل من الأساقفة» .

« كان الأنبا بنوه هو أكثرنا قبولاً للأوضاع داخل السجن! وكان لقبه الرسمى هو «خورى أبو سكوبس» وهى درجة كهنوتية فى سلم الرهبان تقل قليلاً عن درجة «الأسقفية» .

« كان رئيساً لأحد الأديرة المهجورة بمحافظة سوهاج، وقد تعود الرجل الإقامة فى الدير، وألف حياة الرهبان، وبعدها عن إيقاع الحياة المدنى، مما جعله راضياً بإقامته فى المعتقل، فقد اعتاد التقشف والانقطاع عن الطعام والكلام أيضاً!»

« على أن الأنبا ويصا أسقف البلينا كان أقربهم إلى قلوب المعتقلين من كهنة أو علمانيين، فهو الوحيد الذى نسى أنه أسقف وتعامل مع الجميع من كونه إنساناً ومعتقلاً فكان يخفف من آلام المتضايقين، وكان حزمه فى السيطرة على النظام وتوزيع الطعام أحد أسباب إقلال الخلافات . . ففى المعتقل تصبح الأعصاب مرهفة وتتضخم المشاكل الصغيرة .

« أما أسقف الأقصر الأنبا امونيوس فهو الوحيد الذى لم يفارقه إحساسه بأنه أسقف وأنه متميز حتى على زملائه الأساقفة طوال فترة الاعتقال، ولذلك عاش وحيداً معزولاً» .

(٣)

وربما كان لميلاد حنا بحكم أفكاره اليسارية تفسيره (الخاص) لظاهرة المد الدينى التى أخذت تظهر على السطح فى عهد الرئيس السادات، وعند ميلاد حنا يبدأ التدين (هكذا) بعد الهزيمة، وله فى ذلك تفسير سوف يقرؤه القارئ بعد قليل فى نص عباراته (ص ١٤ وص ١٥)، وهو من الذين يحملون عهد السادات أكثر مما يحتمله أى عهد، ولهذا فإن ميلاد حنا نفسه يتراجع بصفته الشخصية عن إلقاء التبعة على السادات، ولكنه يلجأ فى ذلك إلى نظرية أستاذ فلسفة مصرى معاصر، يقول ميلاد حنا: « وفى أحد لقاءاتى بشعراوى جمعة، دار الحوار حول ظاهرة الإقبال الجماهيرى ـ من المسلمين والأقباط ـ على «التبرك» بزيارة كنيسة السيدة العذراء بمنطقة الزيتون بمناسبة ظهورها، كذلك إقبال الآلاف من المصلين على صلاة الجمعة ـ فبعد أن ظلت هذه الصلاة قاصرة على البسطاء من الناس فوجئنا «بأصحاب السيارات» وحملة «الألقاب العلمية»، والكثير من شباب الجامعات من مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، يسارعون جميعاً لأداء هذه الفريضة. وهنا قال لى شعراوى جمعة «ثمة علاقة بين هذه الظاهرة وبين هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧. فالشعوب كالأفراد، تتجه جميعها إلى السماء والغيب فى لحظات الضعف والهزيمة».

« ولقد ظل هذا المد الدينى فى ازدياد حتى نهاية حكم عبد الناصر دون أن يتجاوز مرحلة التدين، وقد ساعد فى ذلك تلك العلاقة الحميمة بينه وبين البابا كيرلس. أما فى عهد السادات فقد انتقلت مرحلة التدين تلك إلى مرحلة تعصب، ومنها إلى احتكاك وعنف حتى بلغت ذروتها فى أحداث الفتنة الطائفية.. فكانت إحدى الطرق المؤدية إلى سبتمبر! ولا أظن أن السادات كان يقصد بممارساته إحداث فتنة طائفية فى البلاد على هذا النحو، أو أنها سوف تقوده إلى هذه النهاية المؤلمة.. ولكن كما يقول المفكر د. مراد وهبة أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس «إن منطق المذهب أقوى من مقاصد صاحب المذهب».

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن ميلاد حنا يسارع إلى تفسير ظاهرة التطرف انطلاقاً من الاعتقاد بظاهرة التدين فى ظل اهتمام الزعامة بالتدين ليس إلا.. وهو تفكير يجد كثيراً من التشجيع عند كثير من مثقفينا، ولكنه للأسف لا يقود إلى إمكانية تحليل واضح للأحداث أو النتائج فهو للأسف الشديد يلجأ إلى تفسيرات ضعيفة المنطق لكى ينفى عن شعب متدين صفة من صفاته، وهذا مما يؤسف له على كل حال، كما أنه يخلط بين الدين والتطرف ويضعهما فى سلة واحدة وهو يفعل هذا لا كما يفعل الاجانب ولكن كما يفعل السياح !!.

(٤)

ويحدثنا ميلاد حنا فى اقتضاب (ص ١٢) عما يعتقد أنه يمثل بدء ممارسته للسياسة فيقول:

«كنت قد آثرت الاهتمام بالجامعة وببيتى ، عشت «مراقبا» طوال حقبتى الخمسينات والستينات، حتى جاءت هزيمة يونيو كالصاعقة، نسيت إثر وقوعها رداء الأستاذية وانخرطت فى صفوف الطلاب محاورا ومناقشا، كما تعرفت على الكثيرين من زعماء الحركة الوطنية من شباب تلك الحقبة. وفى عام ١٩٦٩ ـ كان نشاطى السياسى قد اتخذ أشكالاً أكثر وضوحاً وأكثر تحديداً بين الطلاب، مما دفع بجهات الأمن إلى طلب القبض على وفصلى من الجامعة ـ بل تجاوز الطلب حد وضعى تحت الحراسة! وما إن اقترب القرار من دائرة التنفيذ حتى تمكن أحد أصدقائى من ترتيب لقاء بينى وبين السيد شعرواى جمعة وزير الداخلية آنذاك. وبدلاً من فصلى أو وضعى تحت الحراسة تصادقنا، وأصبحنا نلتقى بين الحين والحين، لا لمناقشة ما يجرى داخل الجامعة فحسب، ولكن لنتدارس كل ما يدور حولنا فى المجتمع والمنطقة معاً . . . » وهكذا يقدم لنا ميلاد حنا مايمكن اعتباره فى نظر اعدائه بمثابة اعتراف خطير ومبكر »!! .

(٥)

وبعد صفحات يحدثنا ميلاد حنا عن دور سياسى آخر أتيح له أن يقوم به مع أحداث الطلبة فى أوائل عام ١٩٧٢ فيقول : «ففى بداية عام ١٩٧٢ ـ أعلن الطلاب إضرابهم العام عن الدراسة، وبدلا من الحوار معهم، تم اعتقال قادتهم وأغلقت الجامعات أبوابها فلجأت أمهات الطلاب المعتقلين إلى نقابة المهندسين » .

« فى تلك السنوات، كانت نواة «جبهة وطنية» قد تشكلت ـ دون اتفاق أو إعداد ـ داخل مجلس نقابة المهندسين بقيادة المهندس عبد الخالق الشناوى وزير الرى الأسبق، والذى أصبح فيما بعد أمين صندوق حزب الوفد الجديد ومع د. عبد الرزاق عبد الفتاح رئيس جامعة حلوان، ورئيس لجنة الصناعة والطاقة فى حزب الوفد الجديد، وكذلك المرحوم المهندس عبد العظيم أبو العطا وزير الرى والزراعة ورئيس حزب مصر الاشتراكى الذى حاول الاستمرار بالحزب بعد أن «هرول» أعضاؤه إلى حزب السادات الجديد المسمى «بالوطنى الديمقراطى» . . [نلاحظ هنا الخلط التاريخى الذى يجيده ميلاد حنا فنحن مانزال فى سنة ١٩٧٢ ولكنه يقدم أحداثاً وقعت بعد ١٩٧٨] وراحت هذه الجبهة تعمل على الإفراج عن هؤلاء الطلاب، وتفتح أبواب النقابة لكل الأمهات، معلنة التعاطف معهن، مما أثار السادات، وراح يهدد بإغلاق النقابة!

« ومما أثار غضبى فى تلك الفترة، أننى كنت أعرف الكثيرين من هؤلاء الطلاب المعتقلين معرفة شخصية، وخاصة فى كلية الهندسة جامعة عين شمس، وأذكر أن أحد زملائى من

أعضاء مجلس النقابة ، جاء إلى منزلى وطلب منى مغادرة منزلى فوراً ، لأن لديه معلومات مؤكدة عن «قرار» اتخذته السلطات بالقبض علىّ ، إلا أننى تمسكت بالبقاء فى منزلى ولم يحدث شىء ، والطريف أيضا أن هذا الزميل أصبح وزيرا لوزارة هزيلة فيما بعد! [لانعرف ماهو وجه الطرافة فى هذا إلا أن يكون ميلاد حنا يمنى نفسه بالوزارة . . وبألا تكون هزيلة] .

« وعندما حاولت معرفة أسباب «هذا القرار» ـ علمت أن أجهزة الأمن قد أحست أن قرار اعتقالى قد يثير مشاعر الطلاب ، فضلا عن أن الأمور كانت تسير فى اتجاه «لم الموضوع» ، وليس إثارته ، وأن هناك نية لفتح الجامعة ، وبدء الدراسة خلال أيام . . » .

(٦)

ويقفز ميلاد حنا سبع سنوات كاملة ليحدثنا عن موقفه من نظام السادات فى ١٩٧٩ حين بدأ السادات ـ على حد تعبيره ـ يستثمر أحداث أفغانستان للتقرب من الأمريكيين. وميلاد حنا مع كل الاحترام ليساريته يجرح بالأفكار التى تتضمنها سطوره القليلة فى هذا الموضوع من كتابه (ص ١٨ وص ١٩) كل شعور قومى عند مواطنيه أو أغلب مواطنيه ، وقد كان فى وسع ميلاد حنا أن يختار مدخلاً آخر لموضوع أحداث ١٩٧١ ، والفتنة الطائفية التى أعقبتها ، وكتابه الذى ألفه على عجل ليرد به الخطر الذى استشعره ، ومع هذا فنحن نقرأ له قوله : «بمجرد وقوع أحداث أفغانستان فى أواخر عام ١٩٧٩ ، أراد السادات ـ كعادته ـ أن يستثمر الأحداث للتقرب من الأمريكيين وفصائل الرجعية العالمية ، وبذلك يكسب مواقع جديدة أكثر نجومية ولمعاناً!.

فقام بفتح أبواب مصر أمام «المجاهدين الأفغان ، وراح يمدهم بالمال والسلاح اللذين حصل عليهما بمقتضى «صفقة كبرى»! . وانخرط الكثير من الشباب المصرى فى صفوف المتطوعين لتدريبهم فى الصحراء قرب القاهرة وغيرها من الأماكن تحت رعاية الدولة» .

« وكان من الطبيعى أن يكون شباب الجماعات الدينية فى مقدمة المتطوعين لمناصرة مجاهدى أفغانستان ، ومن الطبيعى أيضا أن تضم هذه الصفوف بعض العناقيد المثمرة فى تنظيم الجهاد ، ومن ثم نشأت الصلة بين هذه الجماعات وبين أجهزة الأمن المصرية والعالمية . وقبلها بقليل كانت زيارة القدس ، وتوقيع معاهدة كامب ديفيد ، وتم الصلح المنفرد مع إسرائيل ، وظن السادات أن سياسة التصعيد ضد القوى العقلانية واليسارية سوف يكون لها مردودها الإيجابى ، ولكنها أدت إلى أسوأ النتائج عليه وعلى نظامه» .

هكذا يبدو أن ميلاد حنا يفقد عن عمد بل وبقصد واصرار أسلوب العالم أو الباحث

ويلجأ إلى الاستطرادات وهو يتحدث فى موضوع واحد، ولكن لا بأس من متابعة سطوره التى يحكى فيها عن تجربة سياسية هامة فيقول : «وفى ١٤ مايو ١٩٨٠ ـ ألقى السادات خطابه الشهير، والذى اعتبره المراقبون ذروة المأساة فى موضوع الصراع الطائفى! ولعل تاريخ وعمق وفاعلية الوحدة الوطنية فى مصر هو الذى حال دون تفجر «الصراعات الطائفية» عقب هذا الخطاب، فقد أكد السادات على «إسلام الدولة» و«إسلام الحاكم»، «وليعلم الجميع أننى رئيس مسلم لأكبر بلد مسلمة»، والذى قد يفسر فى هذا المناخ بأن لا مكان لغير المسلمين فى مجتمعهم. . ولكن الله سلم! سلم مصر من كل سوء. فسارعت بالرد على ذلك، وقمت بإعداد ونشر كتابى «نعم أقباط ولكن مصريون»، وكان من بين الأسباب التى دفعت بى إلى سجون السادات ـ كما سيتضح فيما بعد!».

وللأسف فإن «فيما بعد» هذه لم تتضح تماماً فى هذا الكتاب وربما كان ميلاد حنا يقصد أنها ستتضح فيما بعد هذا الكتاب.

(٧)

ويبدو أن كل ما فى هذا الكتاب من سياسة ليس إلا انعكاسا وانفعالا، وليس فى وسع ميلاد حنا ولم يكن فى رغبته مثلاً أن يقول إنه كان صاحب نيات للحث أو كما يقول التعبير الإنجليزى لإشعال الابتداء Initiation، وإنما هو فى كل ما يروى ينطلق من انفعال صادق، وحس صادق، وروح صادقة، أو هكذا كان يبيح لنفسه أن يفعل حين تضطرم الأحداث من حوله، والعبارة السياسية التقريرية الوحيدة فى هذا الكتاب كله هى تلك التى ترد عرضا حين يقول ميلاد حنا: « إن أحد أخطاء السادات هو أنه قد تعامل مع موضوع الفتنة الطائفية من منطلق مفاهيم رجال الأمن وليس بمفاهيم سياسية، أى أن تكون من خلال الحوار والإقناع والتحرك الشعبى، وقد أفهموه أن المسائل يمكن السيطرة عليها بإجراءات أمنية وكان أن وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه. ودفع السادات نفسه الثمن »

وهذه العبارة نفسها بما فيها من فكر ليست من بنات أفكار ميلاد حنا الذى لم يمتعنا فى كتابه بأفكاره السياسية، وظل كما هو الآن فى الحياة العامة: أستاذ جامعى فى كلية الهندسة (أى قريب التخصص من الإسكان) له آراء فى الإصلاح (ولا يعرف الناس جوهر هذه الآراء، وإن عرفوا أنها أفكار بيروقراطية فحسب) قريب من الحكم وإن لم يكن مشاركا فيه.

لست أريد أن أتهم هذا الرجل بالغموض لأنه واضح فعلاً، ولكن بأقل مما ينبغى الوضوح، وبأقل مما يطلب منه من الوضوح، خاصة إذا أتيحت له الفرصة فى كتاب فيه صفحات بيضاء كثيرة جداً لضرورة الفن الإخراجى المكلف!!

(٨)

وفى هذا الكتاب لا ينجو ميلاد حنا من الإثارة الصحفية فى عناوين الفصول على الأقل ، وليس أدل على ذلك من أن نأخذ عناوين أى فصل من الفصول الستة لنتأملها ، وليكن ذلك عناوين الفصل الثانى (وهى أخف العناوين إثارة تقريبا) ولكنها مع ذلك تقول :

-«زواج ابنتى» مؤامرة لضرب الوحدة الوطنية .
-السوس العظيم والدود الأعظم .
-لاتدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير
-التفسيرات الاجتماعية للكتاب ، تعوق الإفراج
-عزل الأسقف . . معركة ديمقراطية
- الكلبشات . . أساور من ذهب فى يدى الأسقف

ويعبر ميلاد حنا فى هذا الكتاب بطريقة غير واعية عن انبهار عجيب بشخصية أنور السادات حين يقول مثلا : « وفى تقديرى أن السادات عقب توليه سلطة البلاد ، انطلق من عقدة حياته وهى «مناطحة» شخصية جمال عبدالناصر. فقد رغب فى أن يكون له نفس الأثر وذات الشهرة فى العالمين العربى والغربى . ولما كانت الظروف الموضوعية فى مصر تحول دون الاستمرار والمضى فى طريق «التحول الاشتراكى» فقد وجد السادات نفسه يسير فى اتجاه مضاد تماما ، ولاشك أنه حقق ذلك بذكاء واقتدار نادرين ـ قلما يتكرر فى التاريخ ـ فقد جاء «انقلاب» السادات بنفس الدولة ، وبنفس الرجال . . بل وبنفس التنظيم السياسى . . أليس هذا غريبا ويدعو للتأمل والفحص !! »

ولكن ميلاد حنا على الرغم من هذا الانبهار يظل غير مهتم للأسف بالتأمل والفحص فى هذه الناحية ، لأن الكتاب يتحدث عن ذكريات سبتمبرية ، قدر لها أن تكون أسبابها غير ذلك تماماً فهو كتاب للنيل من السادات لا لتجميده ولا للحكم عليه بموضوعية !! .

وفى عبارة أخرى غير واعية أيضا يقول ميلاد حنا فى صفحة (١٦) : «جاءت حرب أكتوبر بمثابة مياه «المطهر» التى غسلت أخطاء السادات» . ومن الطريف أن ميلاد حنا شأنه شأن كثيرين لا يعتقد فى حدوث أخطاء للسادات إلا بعد هذا المطهر !! فكيف يكون المطهر قبل الذنوب والخطايا ؟

(٩)

ومن أهم التجارب التى يلقى هذا الكتاب الـمُعبر الضوء عليها تجربة ميلاد حنا مع الأساقفة ورجال الكهنوت ، فقد اضطر هؤلاء جميعاً أن يجتمعوا ـ لقتل الملل ـ فى حوار دينى

طيب حول بعض نصوص الكتاب المقدس، ويحدثنا ميلاد حنا عن تجربته فى هذا المجال الذى كان قد بعد به العهد عنه فيقول: « وعلى الرغم من أننى لم أعد خبيرا فى هذه المسائل . . إلا أن الجميع كانوا يلحون على سماعى ـ ربما للتعرف على قدر إيمانى . ولم أكن أرى النص الدينى بمعزل عن المفاهيم الاجتماعية والإنسانية كما وجدت تحليلاتى فى مجملها منحازة للفقراء . وما إن سمعنى أحد الأساقفة المتزمتين حتى صاح قائلا: لن أسمح ـ بعد اليوم ـ بأى دروس للكتاب المقدس ما لم يتم عزل «ميلاد حنا» عن المناقشة لأننى ـ كما يقول ـ أحاول أن أدخلهم فى السياسة من الباب الخلفى. وأخبر الرجل الجميع بقوله: إذا أردتم التعجيل بالإفراج عنكم . . فعليكم أن تتجنبوا إقحام الدين فى السياسة . وهنا تدخل أحد الآباء الكهنة ـ محتجا على هذا الأسقف ـ وقال له إننا نستمتع بمداخلات د. ميلاد لما تعطيه من منظورات ورؤى جديدة، نحن لا نراها كرجال دين، فنحن نركز على الرؤية الروحية بينما هو يربط ذلك بالمجتمع » . [وبودى لو عرفت لو كان هناك وجود لهذا الأب] .

ويستطرد ميلاد حنا فيقول : كما تضامن معى الأستاذ رشدى السيسى ـ وكان أكبرنا سنا إذ تجاوز السادسة والسبعين ـ صائحا: كيف نعزل ميلاد حنا وهو زميل يشاركنا القيد والسجن، وكيف ننسى مواقفه فى التصدى للضباط من أجلنا، إننى أعرف عائلته قبل أن أعرفه فهو من أسرة متدينة لها مكانتها. . !! وازداد الحوار سخونة فقال كاهن شاب: لا ينبغى أن نخضع لسيطرة الأسقف. وهنا صاح الأسقف: إن تعبيراتك أيها الكاهن تخرج على حدود اللياقة. . ومن ثم فأنت محروم! واشتعل المناخ. . وخيم هدوء عجيب وحذر يكاد يشل الجميع! وغلى الدم فى رأسى، فوقفت فى طاقة الباب المصمت وقلت بصوت مرتفع: ليس هذا من حقك أيها الأسقف! فأنت هنا لست أسقفا. . وأنا لست أستاذا جامعيا، نحن هنا جميعا مواطنون، وقد خلفنا وراءنا رتبنا ومفاهيمنا. . فليس من المعقول أن يكون الحوار بيننا على هذا النحو، ومن ثم فإن قيادتك لهذه المجموعة ـ بحكم أقدميتك ـ قد انتهت عند باب السجن! واقترحت انتخاب أسقف آخر لقيادة حلقات دروس الكتاب المقدس وبالفعل حاز اقتراحى قبولا جماعيا. . وتم انتخاب أسقف آخر بينما ظل الأسقف المعترض على مداخلاتى حبيسا فى زنزانته. فقد عزل نفسه عن الجميع دون كلمة. . أو تعليق. . أو حتى احتجاج! »

ولعل القراء فهموا كما فهمت أن هذا هو الأسقف «بنيامين» عينه، فميلاد حنا ليس من أصحاب القدرات الخاصة فى التمويه بالعبارات ولكن بودى أن أنتهز الفرصة لأسأل القارىء هل حقا قال أحد رجال الدين إن ميلاد حنا بمداخلاته يعطى الأمور منظورات أو رؤى جديدة لايراها رجال الدين الذين يركزون على الرؤية الروحية بينما يربط ميلاد حنا هذا بالمجتمع ؟ هل حقا وجد رجل دين يقول هذا أم إن ميلاد حنا يعبر لنا عن رأيه فى نفسه كما

يتمنى !! وهل حقا تخلى الأساقفة عن دورهم لهذه القيادة الجديدة الواعية ؟ أم أنهم ترفعوا عن الخوض فى مثل هذه المناقشات السفطسائية ؟

(١٠)

ومع كل هذا لا يخلو كتاب ميلاد حنا من طرائف تعكس ما يجرى فى حياتنا المصرية كل يوم، وحين يرويها لنا ميلاد حنا يتضح لنا كم يمكن أن يكون بسيطاً ذلك الرجل العالم، وكم هو بعيد عن النرجسية، وكم هو صادق الحس.

فى صفحة ٢٥ يحدثنا ميلاد حنا عن ساعة دخوله المعتقل فيقول: « فى غرفة مأمور سجن المرج - وكان قد تقرر احتجاز الأقباط فقط فيه - رأيت كاهناً فى زيه الأسود، ولم أكن أعرفه حتى ذلك الوقت. . ولكن عرفت فيما بعد أنه القس بيشوى يسىّ راعى كنيسة مارجرجس بمصر الجديدة. وكم تألمت عندما رأيت أحد ضباط مباحث أمن الدولة يفتش الكاهن ويجبره على خلع ملابسه الكهنوتية، حتى يتمكن من تفتيش ملابسه الداخلية!

قلت للضابط فى حزم: عيب ياحضرة الضابط. . استعمل الرقة فى معاملة الكهنة.

[جذع] الضابط وشحب وجهه وظن أننى ضابط مثله ولكن برتبة أكبر، فقد خدعه مشهد المأمور بملابسه الرسمية واقفا خلفى. وبدون تفكير، فوجئت بالضابط يقول «حاضر ياأفندم».

واعتدل الكاهن وأفرغ ما فى جيوبه من أوراق ونقود وأقلام حبر. ولم أكن أعلم حتى ذلك الوقت أن هذا إجراء تقليدى عند استقبال السجين وقبل دخوله إلى محراب السجن!

انتهى الضابط من تسجيل «مضبوطات» الكاهن فى محضر رسمى، وطلب منى التنحى جانبا، على أن أظل واقفا.

سأل الضابط: هل هناك معتقل ثان؟

قلت: نعم. . أنا ذلك الثانى اسمى ميلاد حنا.

و(جذع) الضابط للمرة الثانية، فقد أدرك أنه - كرجل أمن - ما كان ينبغى أن يقع فى هذا «المطب»، ثم كانت ابتسامة مكبوتة تعلو وجوه رجاله ومساعديه »

وفى موضع تال يحدثنا ميلاد حنا عن القصة التى جعل لها عنوانا مثيرا فى عناوين الفصل: «زواج ابنتى: مؤامرة لضرب الوحدة الوطنية» فيقول: «تقدمت فى هدوء وأفرغت ما فى جيوبى من أوراق أخذ يفتشها بدقة، ولاحظت أن ثمة ورقة صغيرة قد استولت على اهتمامه، وعندما تأملها بين يديه، تأكدت أنها جديرة بهذا الاهتمام! فقد كانت الورقة تضم بعض أسماء

الأقباط، ومن بينهم اسم كاهن معروف وياله من توقيت! ظن الضابط أنه وقع على أسماء زعماء «الفتنة الطائفية»، وراح يسترد أنفاسه، ويسجل فى محضره الأسماء بعناية. وابتسمت فى حزن، واستدعت ذاكرتى ظروف وملابسات هذه القصاصة وتركها فى جيبى طوال هذا الوقت. ففى يوم ٢٣ يوليو ١٩٨١، كان متفقا على أن يكون هذا اليوم، هو يوم حفل إكليل ابنتى الكبرى مشيرة، وكان [خاطبها] د. مدحت غبريال قد جاء من كندا فى إجازة قصيرة لإتمام إجراءات الزفاف.

وفى هذا اليوم لم نجد وقتا متاحا فى جدول مراسيم الكنيسة إلا بين السادسة والسابعة مساء، وعلى الفور أدركت أن هذا الوقت يتزامن مع وقت الإفطار فى رمضان، ومن ثم لن يتمكن كثير من المسلمين من تلبية الدعوة، فسارعت إلى كنيسة «مار مرقص» بشارع كليوباترا بمصر الجديدة حيث تتم عادة احتفالات الصلاة وإتمام مراسيم الزفاف، محاولا تأخير الموعد إلا أننى فوجئت بأن كافة المواعيد قد تم حجزها، فحاولت للمرة الأخيرة استبدال هذا الموعد مع آخرين قد اختاروا موعدا متأخرا بين الثامنة والتاسعة مساء. ولأننى لا أعرف أسماء هؤلاء الذين حجزوا، فقد قمت بتدوين أسمائهم على غلاف أحد الخطابات، وكذلك أسماء الكهنة الذين سوف يتولون إتمام المراسيم بهدف الاتصال بهم، وإقناعهم بتبادل الأوقات، حتى لا يتعارض موعدى مع موعد الإفطار فى رمضان.

تلك هى قصة «المظروف» الذى راح الضابط الشاب يتعامل معها «كوثيقة إدانة». كتمت ذكرياتى. . ولم أحاول تفسير الأمر».

ومع هذا فإن ميلاد حنا حتى الآن لم يجهد نفسه المتواضعة ليقدم لنا تفسيراً لبقاء ورقة فى جيب سترته طوال هذه المدة، وكأنه لا يريد أن ينفى عن نفسه صفة إهمال لا تعيبه كثيرا. . ترى لو كانت هذه الحادثة فى قلم صحفى مصرى كبير هل كان يتركها من غير أن يذكر أنه لم يرتد تلك الجاكتة منذ ذلك اليوم، وأنه لم يتعود أن يرتب له حاجياته أى شخص آخر، وأنه عاد يوم الكنيسة مرهقا فلم يعن بتمزيق القصاصات التى لا حاجة له بها. . هذا هو الفن الذى يستطيع ناقد التجربة الذاتية أن يبحث عنه حين يقرأ مثل هذه الروايات صدقت أو لم تصدق.

(١١)

وميلاد حنا حريص بشدة على أن يظهر للقارئ خلفيات ثقافة دينية مسيحية، فكل هوامش الكتاب مع أنها قليلة ليست إلا لهذا الغرض، فى صفحة ٢٧ يشرح لنا أن العلمانيين فى الكنيسة مصطلح قديم يطلق على كل من لا يحمل أية رتبة كنسية ولا علاقة له بمفهوم العلمانية المتداول هذه الأيام. . وهكذا، كما يعرف لنا الفلايات، ويتحدث عن طبقات

الكهنوت . . وهكذا وليس من التجنى أن نقول إن هذا الحرص الشديد من ميلاد حنا على هذا الالتصاق بالكهنوت قد لا يوحى الا بالنقيض التام.

(١٢)

على أن من أروع العبارات البيانية فى هذا الكتاب تلك العبارات التى تتناول وصف اللحظات التى سبقت الإفراج، وسنقتطف منها بعد قليل بعض ما يصور الموقف، ولكن هناك عبارات أخرى لا تقل عنها فى قوتها التعبرية، وهى عبارات ميلاد حنا فى وصف صلاة المسيحيين على الأنبا صموئيل وكيف أنهيت مبكراً على ما نحو ما يذكره فى روايته حيث يقول : «كان الأساقفة قد علموا بوفاة الأنبا صموئيل، حيث كان لصيقا بالسادات حتى فى المنصة فمات معه (ولا يجد ميلاد حنا حرجا من تكرار مثل هذه الأقوال وهو الرجل العلمانى الجامعى، كما أن صمويل لم يكن لصيقا بالسادات لا فى المنصة ولا قبلها).

كان ثمة حزن حقيقى يعلو وجوه بعض الأساقفة والكهنة . . بينما كان هناك من يرى أن هذه نهاية حتمية «للتآمر والخديعة»! (ولا يعلق ميلاد حنا على مثل هذه الرؤية رغم أنه قد لا يوافق عليها).

وفى اليوم التالى . . طلب الأساقفة من مأمور السجن السماح بإقامة صلاة جنائزية على روح الأنبا صموئيل، فوعد باستئذان وزارة الداخلية.

وفى يوم ١٣ أكتوبر وافقت الوزارة على الصلاة! (هكذا يتأخر السماح بأداء بعض الشعائر الدينية).

ووقفنا جميعا ـ فى الممر الضيق بين الزنازين ـ ولعلها المرة الأولى التى يرى فيها بعضنا البعض عن قرب ـ ووجها لوجه! ولأول مرة تظهر العمائم السوداء الكبيرة على رءوس الآباء الأساقفة والتى تميزهم عن الكهنة بعمائمهم الأصغر حجما ـ فقد تخلى كل من الأساقفة والكهنة ـ طوال أيام الاعتقال ـ عن زيهم الكهنوتى ـ مكتفين بالجلباب الأبيض، والطاقية البيضاء. لحظة ـ نسينا خلالها ـ أننا فى السجن ـ فقد انتظمنا فى صفوف متراصة. وعلى منضدة بسيطة ـ يغطيها مفرش أبيض ـ وضعنا الشموع والكتب المقدسة، والعجيب أنها ذات الكتب التى أرسلها إلينا الأنبا صموئيل إلى السجن قبل رحيله فى الصفوف الأولى، وقف الأساقفة الثمانية وفق أقدميتهم التى يعرفونها، أما الكهنة فراحوا يقدمون بعضهم إلى بعض وفق أعمارهم. كان عدد الأساقفة ثمانية والكهنة ٢٤ . .

وكذلك عدد العلمانيين أيضا. بدأت الصلاة الجنائزية ـ وحاول بعض الأساقفة والكهنة إضفاء مزيد من الألحان الكنسية والصلوات التى لا تتلى إلا «لعلية القوم» والاحتفالات

الجنائزية للأساقفة والكهنة. وبينما نحن واقفون مكتوفى الأيدى، ومغمضى الأعين، دخل مأمور السجن وربت على كتفى هامسا: «استسمحك فى أن تطلب من الآباء إنهاء الصلاة فى أسرع وقت»!

قلت له: عقب انتهاء الصلاة سوف ندخل زنازيننا دون مقاومة.

أجابنى مسرعا: لا أقصد هذا.

قلت: ماذا تقصد؟

قال: أنت لا تدرى ماذا يدور خارج السجن وحوله، نحن محاصرون بالدبابات، ليس ذلك بسبب الخوف أن تهربوا.. بل الخوف كل الخوف أن يحدث هجوم على السجن من الجماعات الإسلامية فتصابوا بأذى.

وأضاف المأمور: إن هناك أحداثا دامية فى مدينة أسيوط، ونحن لا نخاف منكم.. ولكن نخاف عليكم أن تقعوا رهينة فى أيدى هذه الجماعات للضغط على الحكومة، ومساومتها!

وفى هدوء: نقلت الرسالة دون تفاصيل.. وعدنا إلى الزنازين، ونحن فى قلق حقيقى.. ليس على حياتنا.. ولكن على مستقبل بلدنا كله!».

(١٣)

ومع كل هذا، فإن المرء لا يستطيع أن يترك الحديث عن كتاب ميلاد حنا من دون أن يتناول فكرة إيمانه ببركات البابا شنودة، فميلاد حنا يروى قصة الأنبا صموئيل مع شىء من التحرج فى رواية وجهات النظر التى تتهمه، التحرج الخفيف الذى لايمنعه إلا من الاستزادة فى الكلام، كما يقول العامة، ولايمنعه من وضع علامات التعجب، وبعد فقرات قليلة يظهر لنا ميلاد حنا إيمانه العميق بهذه البركات، وهو يروى قصة صحفى معروف وبالاسم الكامل (ص ٥٦، و٥٧) يقول: «أحد الظرفاء قال: إن لعنة البابا شنودة ـ مثل لعنة الفراعنة ـ قد أصابت السادات، فجاء تعليق ساخر آخر بأنها قد أصابت الأنبا صموئيل نفسه لأنه سمح لنفسه بأن يأخذ اختصاصات البابا وهو على قيد الحياة.

وفى هذا المجال فإن قصة طلعت يونان مازالت تروى إذ كان سكرتيراً صحفيا وإعلاميا بمكتب د. كمال استينو وقت أن كان وزيرا للتموين، لكنه تمكن من «التسلق» حتى أصبح محررا مرموقا بجريدة «الأهرام» واتخذ موقفا معاديا للبابا شنودة. عقب قرار السادات بعزل البابا، كتب طلعت يونان مقالا رئيسيا بالأهرام غالبا يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٨١ يبرر للسادات قراره ويلوم البابا بأنه يساهم فى إشعال الفتنة الطائفية.

كان نعى وفاة طلعت يونان فى ذات العدد وفى الصفحة الأخيرة من الأهرام. وجد أهله

صعوبة فى أن تقبل أى كنيسة الصلاة على جثمانه. وهكذا تداعمت أسطورة أن أعداء البابا شنودة تصيبهم لعنة السماء».

ومن المؤسف أن يختم ميلاد حنا هذه القصة بمثل هذه العبارة، فطلعت يونان قد توفى قبل الأنبا صموئيل كما هو معروف، بل وكما هو وارد فى فقرة ميلاد حنا التى مازالت بين يدىّ القارئ. إلا إذا كان يقصد أن الأسطورة تدعمت بموت الأنبا صموئيل.. ومع كل احترامنا للأساطير فى جميع الديانات الأرضية والسماوية فقد كنا نعتقد أن ميلاد حنا يسعد حين يوجه قلمه إلى قيمة أخرى غير «تدعيم الأساطير»!

(١٤)

ماذا إذن عن عبارات ميلاد حنا فى وصف لحظة الخروج من السجن، وهى العبارات التى وعدنا القارئ أننا سوف نعود إليها بعد قليل، فى هذه العبارات سوف يجد القارئ معنيين كبيرين يتعانقان، معنى الخروج بكل ما يحمله من تحرير وتحرر وعودة إلى الحياة الطبيعية، وإلقاء للظلال على الأسباب التى دفعت به إلى السجن.. ومعنى آخر أكبر وأهم وهو ثقته بالرئيس الجديد، فلندع القارئ يستمتع بقلم ميلاد حنا وهو يصف هذه اللحظات فيقول: «توجهت إلى مكتب قائد السجن.. وأنا فى حالة من الإعياء التام. وعندما حاول بعض الجنود منعى من الدخول.. صرخت فيهم، فأفسحوا الطريق على الفور. وقلت له بصوت مبحوح: لابد أن أذهب إلى مستشفى قصر العينى.. وإلا فإننى سوف أموت كما مات عبدالعظيم أبو العطا.

فأجابنى فى مودة واقتضاب: اذهب واجمع أمتعتك.. وانتظر.

ولم أفهم ما يعنيه قائد السجن.. وفوجئت باستدعاء بعضنا.. وفى عربتى ميكروباس، حملتانا خارج الملحق ورحنا ننتظر داخل سور السجن الكبير.

قلت للضابط الشاب: هل سنتوجه جميعا إلى قصر العينى؟

أجابنى فى ابتسامة حانية: أنا مكلف بأن تكونوا فى قصر العروبة قبل الواحدة ظهرا.

فقلت له: إذن اسمح لى بالعودة لزنزانتى.. وارتداء بدلتى. فقام الضابط بمنعى فى رفق قائلا: ليس لدينا وقت!

وهكذا وجدت نفسى بهذه الملابس العجيبة - جلباب وعباءة من الصوف الأبيض - فى مكتب رئيس الجمهورية بقصر العروبة.

وهكذا وجدنا - أكثر من ثلاثين شخصا - أذكر منهم فؤاد سراج الدين، محمد حسنين

هيكل، فتحى رضوان، محمد فايق، والراحلين عبدالفتاح حسن، وقبارى عبدالله، ومن السيدات: د. نوال السعداوى، والكاتبة الصحفية صافيناز كاظم.

وبإعلان قدوم رئيس الجمهورية وقفنا جميعا، وقدم كل منا نفسه للرئيس، لأن أمناء القصر الجمهورى لم يعرفونا!

وبينما كنت أصافح رئيس الجمهورية، لاحظ الأربطة القطنية فى يدى فانزعج قائلا: إيه الحكاية.

فقلت له: شقاوة.. لعب كرة.

فقال متعاطفا: إن كان حد مسك بسوء.. أرجوك تقولى وأنا أتصرف.

قلت: شكرا لتعاطفك.. ولكنه خطأ فى لعب الكرة.

كانت هذه أول لمسة بيننا.. أحدثت تفاعلا إنسانيا، فالأفراد كالمواد الكيميائية، إما أن [تتفق] فتكون العلاقة بها مودة، وإما أن تتنافر إنسانيا.. فيكون النفور وربما الصدام أو الضمور».

(١٥)

على أنه لا ينبغى لى أن أحرم القارىء من الاطلاع على عبارات أخرى تصور جوا نفسياً مختلفا وهى تصف الجو الذى عاشه صاحب التجربة فى لحظة تحرر لم تتم، أقصد وصف ميلاد حنا لما حدث فى يوم ١٤ أكتوبر ١٩٨١ حين فوجئ هو والمحبوسون معه بالرحيل فظنوا أنه الإفراج، ولكنه لم يكن إلا الانتقال إلى معتقل جديد فى وادى النطرون، وللقارئ أن يرجع إلى فقرات هذه التجربة فى صفحتى ٥٨ و٥٩.

و لابد أن نوفى ميلاد حنا حقه كأديب وكاتب، أو كصاحب قلم يعبر عن تجربة حين يجيد وصف الشعور بالحنين القاسى إلى قطرة أو نسمة من الحرية فيقول وهو يصف نفسه والمجموعة فى اللورى:

«دُفعنا إلى اللورى دفعا، فإذا به صندوق مصمت مظلم فيها عدا فتحات قليلة للتهوية عليها شبك ضيق. انحشرنا داخل اللورى حشرا حتى صرنا كعلبة السردين، يحاول كل منا أن يجد لقدمه موقعا بين الأمتعة المتناثرة، أو يجد لكفه [مكان] يعلق نفسه فيه، فقد كنا جميعا نتعرض للسقوط كلما حاول اللورى إبطاء السرعة أو الوقوف، ولكننا كنا على أى حال سعداء، فقد كانت أكتافنا متلاصقة وشعرنا لوهله أننا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

كنا ننظر إلى المارة من خلال الفتحات الضيقة المتاحة، وكانت التعليقات المثيرة على منظر

البشر من النساء والأطفال والرجال الجالسين على المقهى يلعبون الطاولة أو الكوتشينة أو يدخنون الشيشة.

كلها مناظر عادية ومتكررة ولكن الحرمان من هذه الأشياء البسيطة يجعلك تفتقدها.

وكما يقال [بأن] الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، كذلك الحرية والحياة العادية البسيطة لا يشعر بأهميتها إلا كل من حرم منها.».

هل تكمن فى هذه العبارة كل فلسفة هذا الكتاب، وجهد المؤلف فيه، إن كان الأمر كذلك فقد نجح ميلاد حنا فى بعض ما ضاع منه لأجله وقته الثمين.

(١٦)

وإذا كان هذا الكتاب قد كتب بقلم رجل من الطائفة الأقل عددا، وهو قد عانى السجن تحت ظلال اتهامه بمحاولة العبث بالوحدة الوطنية، وإذا كان هذا الرجل قد بذل بعد ذلك جهده فى وضع هذا الكتاب، وحضر بالطبع كثيرا من المناقشات والمجادلات حول هذا الموضوع: موضوع الوحدة الوطنية والفتنة الطائفية فلم لا يحدثنا الرجل عن آرائه هو فى هذا المجال؟ هذا هو السؤال الذى ظن ميلاد حنا أن ليس من حقه أن يتحدث عن مثل هذا الموضوع الجوهرى بينما هو على هامش هذا الموضوع ذكريات سبتمبرية..

بل إن ميلاد حنا لم يقف عند مرحلة الظن وإنما تعداها إلى اليقين، ولم يقدم لنا نصاً صريحاً فى هذا الموضوع إلا فى صفحتى (٦٢ و٦٣) حين تطرق إلى موضوع العلاقة بين الكنيسة والدولة وبدون أن يتعمق معنا الموضوع بأكثر من حديث سياسى صحفى سريع، لابد مع ذلك أن ننقله للقارىء حيث يقول: «إن موضوع العلاقة بين الدولة والكنيسة موضوع حساس ولكنه واجب المناقشة، فكل من الدولة والكنيسة من أقدم - إن لم يكونا هما بالفعل أقدم - المؤسسات فى مصر، فتاريخ كل منهما يعود إلى ما يزيد على نحو ألفى سنة. فى سابق الزمان كانت العلاقات هلامية غير مقننة. ومرت القرون بسلام أحيانا وبصعوبات أخرى. لا توجد قنوات شرعية تحدد هذه العلاقة، إلا العلاقة الشخصية بين رئيس الدولة ورئيس الكنيسة. أيام عبد الناصر كانت الأمور هادئة وتسير الأحوال فى يسر..

أيام السادات تفجرت الأزمات ولكن الله سلم. ويحاول مبارك أن يبنى دولة المؤسسات ومن ثم لابد من وجود قنوات.. قناة خلفية اسمها وزارة الهجرة لكنها قناة غير شرعية وغير مقنعة وغير طبيعية.. قنوات وزارة الداخلية.. تحكمها العقلية البوليسية. أعتقد أن خير القنوات هى القنوات السياسية والتشريعية.

ومن هنا أرى أن تكون لجنة الشئون الدينية فى مجلس الشعب لجنة قومية لا يقتصر دورها على مسائل وزارة الأوقاف، ولكن على كل ما يتعلق فعلا بالشئون الدينية الإسلامية والمسيحية على حد سواء. لعلى خرجت دون قصد عن قضايا «ذكريات سبتمبرية». . . وهكذا يجد القارئ صورة مكبرة لقدرة ميلاد حنا على اختزال القضايا الخطيرة بحلول بيروقراطية لا تقدم ولا تؤخر!

(١٧)

على أن هناك فقرتين أو ثلاث فقرات من هذا الكتاب لابد لقارئى التاريخ أن يطلعوا عليها، حتى لمجرد الاطلاع لا للقراءة، هذه الفقرات تصور أربعة من أعلام السياسة المصرية وقد أصبحوا معتلقين فى السجن، وهاهو ميلاد حنا يذهب وافداً عليهم لينضم إلى السياسيين بعد أن كان فى أول اعتقاله مع المسيحيين، فلنتأمل اختلاف ردود الأفعال من زعيم إلى آخر: «وفى «الملحق العظيم» التقيت بصديقى القديم محمود القاضى ـ الذى بادرنى بقوله بعد الترحيب إنه لم يتصور قط أنه سيصبح معتقلا فى سجون السادات. . وما يحز فى نفسه تلك الأعمال والمواقف الخاصة به فى مجلس الشعب، والتى كان ينبغى أن تكون موضع التقدير والتكريم. . ولكنها الأقدار!

وقد ظل القاضى يتحدث بهذه اللهجة المريرة، مما أدى إلى تدهور حالته الصحية، ووفاته فى العام التالى لخروجه من المعتقل!

ويأتى لقائى بزملائى الاشتراكيين حارا. . ومؤثرا. فها هو صديقى د. إسماعيل صبرى عبد الله (وكان وزيرا للتخطيط فى أوائل السبعينيات)، وهاهو د. فؤاد مرسى الذى وافق على أن يشغل منصب وزير التموين أثناء حكم السادات.

كان الصديقان على معرفة كبيرة بعالم السجون، وكثيرا ما أسديا النصح والتعامل مع الإدارة ورجال السجن، وقد استمدا معرفتهما من خلال السنوات الطويلة التى قضياها فى سجن الواحات من ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٤، مما أكسبهما قوة وصلابة.

كذلك الرجل الشجاع د. محمد أحمد خلف الله بشعر رأسه الأبيض الفضى، ووجهه الأسمر المشع بهالات القديسين فى جلبابه الأبيض ومسبحته القصيرة، وقد أحسست بأن الرجل قد وطد العزم على الإقامة لسنوات طويلة، وكان يردد أنها ضريبة العمل الوطنى. . لا محالة»!

وعلى نفس النمط نقرأ لميلاد حنا عبارات أخرى تفيض بمعانى التفكير الهادئ والمقارنات

الوطنية حين يروى مؤلف هذا الكتاب ردود الفعل المختلفة عند المعتقلين وهم يعودون من تحقيقيات المدعى العام الاشتراكى (ص ٨٦ وص ٨٧) فيقول : « كان البعض يعود متهللا، لأنه استطاع أن يقلب الدفة، ويتولى هو الأسئلة بدلا من الإجابة! ولاشك أن الأستاذ فتحى رضوان بلغ قمته فى القدرة على الاسترسال والتحدث فى حضرة ذلك المدعى الاشتراكى. فكلما عاد إلينا يروح يروى ما حدث، وكيف سرد لهم تاريخه السياسى وأنه قد توقف عند عام ١٩٣٦. وفى مرة ثانية توقف عند عام ١٩٥٢. وهكذا ظل يروح ويجىء لأيام طويلة، ونحن نتعجله فى الانتهاء من هذا التحقيق، و «الإقلال» من استعراض العضلات التاريخية القانونية! فقد قيل لنا إن الإفراج عنا لن يتحقق إلا عقب انتهاء المدعى الاشتراكى من تحقيقاته، ورغم ذلك أصر «المناضلون القدماء» على إثبات مواقفهم التاريخية فى أوراق التحقيق، كما لو كان فى ذلك إبراء لهم أمام التاريخ! أما محمد حسنين هيكل ـ فكان يكتفى عند عودته بإلقاء بعض العبارات المقتضبة على غرار «التصريحات الصحفية»، دونما إغراق فى شرح تفاصيل التحقيق معه فى مكتب المدعى الاشتراكى.

ويبدو أن التعليمات لدى مكتب المدعى الاشتراكى، كانت تقضى بعدم التعجل فى الانتهاء من التحقيقات، والعمل على إطالتها أطول فترة ممكنة، حتى يكون فى ذلك مبرر لاستمرار الاعتقال!

وكذلك يروى الدكتور ميلاد حنا فى كتابه " ذكريات سبتمبرية " قصة اعتقال المهندس عبد العظيم أبو العطا فيقول : " ففى صباح يوم الخميس ٣ سبتمبر وبمجرد أن سمع نبأ اعتقالى (أى اعتقال ميلاد حنا)، ذهب إلى زوجتى وقال لها : "كيف يقبضون على ميلاد بسبب الفتنة الطائفية؟ "

وأضاف لها "إننى مستعد أن أشهد أنه رجل وطنى - ولا يعرف التعصب الدينى، إنه واحد من أهم دعاة الوحدة الوطنية منذ شبابه ".

ثم قال لزوجتى : إنى ذاهب لوزير الداخلية- فهو صديقى- وأقول له إن القبض على ميلاد حنا خطأ كبير!

وفى مساء ٤ سبتمبر- ذهب مرة ثانية الى زوجتى- ولاحظت أنه كان "مكسور الخاطر" وقال لها "يبدو أن الموضوع أكبر مما تصورت . . . وأعتقد أنهم سيعتقلوننى قبل الصباح ".

وراح عبد العظيم يوصى زوجتى بالاهتمام بزوجته " ميمى "!

وخرج من منزلى وكانت آخر الزيارات!

وفى فجر يوم السبت ٥ سبتمبر تم القبض عليه بالفعل- وجاء إلى طره، ولم يكن يدرى شيئا عما تخفيه له أقداره داخل السجن!

فبعد أن كان الرجل واحدا من ألمع وزراء الرى فى بلادنا مثله مثل عثمان محرم وحسين سرى وعبد القوى أحمد وعبد الخالق الشناوى- فوجئ بنفسه متهما فى سجون السادات .

لقد عرفت عبد العظيم فى عام ١٩٤٦ أثناء عملى فى كلية الهندسة -جامعة الأسكندرية- حيث تخرجت فى جامعة القاهرة ،ثم عينت معيداً فى كلية الهندسة بالاسكندرية، فور أن استقلت عن أن تكون " ملحقا " أو فرعاً لهندسة القاهرة .

وفى أحداث الحركة الوطنية للطلاب إبان فترة مقاومة إتفاقية صدقى- بيفن عام ١٩٤٦ تصادقنا، وإستمرت و إستمرت صداقتنا حتى فارق الحياة "

وفى موضع آخر يروى ميلاد حنا قصة رحيل المهندس عبد العظيم أبو العطا وكيف كانت فى نظره عاملاً هاماً فى انفراج الأزمة السياسية فى بداية عهد الرئيس مبارك: "ويبدو أن التعليمات لدى مكتب المدعى الإشتراكى، كانت تقضى بعدم التعجل فى الإنتهاء من التحقيقات، والعمل على إطالتها أطول فترة ممكنة، حتى يكون فى ذلك مبررا لاستمرار الاعتقال! ولم يفسد ذلك المخطط إلا رحيل عبد العظيم أبو العطا، الذى حرك شجون الرئيس مبارك، عندما أدرك مغزى موت أبو العطا- فقرر الافراج عنا دون إبطاء، ودون استكمال لتحقيقات المدعى الإشتراكى وقد جاء قرار رئيس الجمهورية بمثابة نزع الفتيل من القنبلة السياسية التى أوشكت على الانفجار بعد اغتيال السادات مباشرة!

وتم تنفيذ القرار على نحو مفاجئ للجميع ، ودون أدنى تمهيد! " .

(١٨)

ولكن ماذا عن ميلاد حنا نفسه، كيف يصف الرجل ساعات التحقيق وشعوره تجاه التحقيق، هذا هو ما يحدثنا عنه ميلاد حنا حين يتهم سلطات التحقيق بعبارات واضحة بأنها كانت تتعمد اصطياد الدلائل على مشاركتهم فى تهمة الفتنة الطائفية ويعبر ميلاد حنا عن هذا بعبارات صريحة تتضمن ما يمكن أن يكون قذفا فى حق المحققين وذلك حيث يقول: «وقد شعرت أثناء التحقيق، أن المحقق يحاول أن يثير موضوعات شتى حتى يتعرف على شخصيتى فى كافة جوانبها، وقد صرح لى فى «دردشة» بعيدا عن التحقيق بأنه يقرأ كل ما لديه من تحريات ومعلومات وتسجيلات قامت بها أجهزة الأمن ثم يعد خطة من الأسئلة استنادا إلى تلك البيانات، فإذا وقع المتهم فى أحد «المطبات» المعدة له.. كان ذلك معيار نجاح التحقيق! وقد تكشف لى ـ من تتالى أسئلة المحقق ـ أن الخطة المرسومة التى اتفقوا عليها هى «تقنين» الفتنة الطائفية التى صنعها السادات، وأرادوا أن يصدقها! فهو ـ المحقق ـ يحاول طوال الوقت الإمساك بدليل واحد على «الاشتراك» أو «الإعداد» أو «التحضير» للفتنة

المزعومة، ولولا اغتيال السادات لما توقف تنفيذ هذا المخطط. ولأننى كنت مدركا بأبعاد هذا المخطط ومخاطره على مصر ووحدة شعبها وقد قاومته طويلا أثناء وجود السادات، وكتبت فى ذلك أكثر من مرة، فمنذ عام ١٩٧٥ وأنا أرفع شعار «حتى لا تتلبنن مصر»، لإدراكى أن الصراع الطائفى الذى بدأ فى لبنان عام ١٩٧٥ (ولم يتوقف حتى الآن) كان مرسوما له أن يمتد ـ وبصورة مختلفة ـ ليشمل كافة البلدان العربية!»

وميلاد حنا يتلمس لنفسه ولنا العذر فى هذا الذى يفيض فيه لأنه منذ اللحظة الأولى لجلسته أمام المحقق قد أدرك المغزى فيقول: « وأمام أحد شباب المستشارين وجدت نفسى جالسا لأسأل ولكن كان ودودا ورقيقا وحاسما أيضا!

بادرنى المحقق الشاب بقوله: «احك لنا عن تاريخ حياتك» !

أدهشنى السؤال.. وأدركت على الفور «الفخ المنصوب» تحت عبارة «التحقيق السياسى»! وهو سؤال متفق على توجيهه لكل معتقل! » .

(١٩)

أما اللغة العربية فى هذا الكتاب فهى مظلومة إلى حد بعيد، ولا أستطيع أن أقول أكثرمن أنه يعز على الأنسان أن يقرأ لهذا الاستاذ الجامعى كل هذه الأخطاء فى الهمزات وفى عدم التفريق بين الهاء والتاء فى آخر الكلمة.. والدكتور ميلاد حنا غير واع بوظائف بعض ما يسمى بأدوات الربط كفاء العطف أو السببية، وهكذا تقف كثير من معانى هذا الكتاب دون القمة لا لشىء إلا لافتقادها الصياغة اللغوية المثلى، واللغة تعبير عن الفكر، ولكن لغة ميلاد حنا لم تجار فكره تماما، وميلاد حنا نفسه لم يزعم غير هذا مع أنه لم يذكر هذا الفكرة ولو من قبيل الاعتذار بأنه أراد الصورة الانفعالية ذاتها دون رتوش .

وهناك ألفاظ يصر ميلاد حنا على كتابتها بطريقة غريبة مثل تلك العبارة: " وما إن انتهت الأحداث بنهاية السادات حتى «أكفوا» جميعا على الخبر «ماجور» ولم نعد نسمع بمصطلح «ثورة سبتمبر» إلى الأبد!

أما إن يصر ميلاد حنا أكثر من مرة على كتابة الفعل جزع بالذال فهذه طامة كبرى لا يشفع فيها أى عذر.

وميلاد حنا لا يفرق أبدا بين الأفعال التى تتعدى بنفسها إلى المفعول وتلك التى تتعدى بحرف الجر، ولهذا فهو مثلا فى الحديث عن الأنبا بنوه يقول: إعتاد بالتقشف.

وبالإضافة إلى هذه الأخطاء اللغوية الكثيرة والمتكررة.. نجد خطأ لابد أن يحسب على

التأليف حتى لو كان قد حدث فى التجهيزات الفنية للكتاب حين نجد هامشا عن الأنبا بينيامين كان المفروض أن يكون مثلا فى صفحة (٣٧) عقب الحديث عن أمراضه، فإذا به فى ص ٣٩ عند حديث آخر تماما مختلف جملة وتفصيلا عما قد يكون الهامش موضوعا له.

أما الأخطاء المطبعية فلا تخلو منها فقرة فى الكتاب كله ، وأحياناً لايخلو منها سطر.

ولأنى أعرف أن الدكتور ميلاد قد يعتذر عنها بأنها أخطاء مطبعية لاتغير المعنى فإنى سأذكر له مثلا واحداً طريفا لهذه الأخطاء يغير المعنى بل ويجلب الاتهام بالجناية ، ذلك أنه كان يتحدث عن الاستاذ هيكل كان يأتيه مالذ وطاب من الطعام من بيته وأنه عرف لأول مرة فى حياته أن الحمام قد يكون محشوا بالمكسرات .. ولكن الخطأ المطبعى جعل الحمام محشوا بالمسكرات.. وربما لا يعرف الدكتور ميلاد أن المسكرات هى الأصل الذى تقاس عليه عقوبة المخدرات فى الشريعة!!

كتب للمؤلف

١ ـ الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً ،
(الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب العربى عام ١٩٧٨) .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، الطبعة الثانية ، دار الشروق ، ١٩٩٧

٢ ـ مشرّفة بين الذرة والذروة ،
[نال عنه المؤلف جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم عام ١٩٨٢]
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية ، دار الشروق ، ١٩٩٧

٣ ـ كلمات القرآن التى لا نستعملها (دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية) ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤
الطبعة الثانية ، دار الشروق ، ١٩٩٧

٤ ـ يرحمهم الله (كلمات فى تأبين صلاح عبد الصبور وزكى عبد القادر
وبدر الدين أبو غازى وفهمى عبد اللطيف ويحيى المشد)
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٥ ـ من بين سطور حياتنا الأدبية (دراسات أدبية)
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٦ ـ الدكتور أحمد زكى ، حياته ، وفكره ، وأدبه .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤
الطبعة الثانية ، دار الشروق ، ١٩٩٧

٧ ـ مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٨ ـ سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، ١٩٨٤ .

٩ ـ الدكتور على باشا إبراهيم ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

١٠ ـ الحلول الجزئية هى الأجدى أحيانا . . مستقبلنا فى مصر ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
الطبعة الثانية : مستقبلنا فى مصر دراسة فى الإعلام والبيئة والتنمية والمستقبليات ،
دار الشروق ، ١٩٩٧

١١ ـ التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة ،
الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

١٢ ـ الدكتور سليمان عزمى ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .

١٣ ـ الدكتور نجيب محفوظ ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ ، الطبعة الثانية ، دار الشروق ، ١٩٩٧

١٤ ـ دليل الخبرات الطبية القومية مع مقدمة وافية عن تاريخ وحاضر مؤسسات التعليم الطبى المصرية ـ مركز الإعلام والنشر الطبى ، الجمعية المصرية للأطباء الشبان ، ١٩٨٧ .

١٥ ـ الصحة والطب والعلاج فى مصر ،
مطبوعة جامعة الزقازيق ، الجامعة والمجتمع ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧ .

١٦ ـ توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية ، المكتبة الثقافية ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ .

١٧ ـ رحلات شاب مسلم ،
دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، الطبعة الثانية ، دار الشروق ، ١٩٩٦

١٨ ـ الببليوجرافيا القومية للطب المصرى ، الجزء الأول والثانى ١٩٨٩ ،
الجزء الثالث والرابع ١٩٩٠ ، الأجزاء من الخامس وحتى الثامن ١٩٩١ .
الأكاديمية الطبية العسكرية ، وزارة الدفاع ، القاهرة .

١٩ ـ منهج أدباء التنوير فى كتابة تاريخ الأمة الإسلامية ،
الطبعة الأولى : رابطة الجامعات الإسلامية ، الرباط ، ١٩٩٠ .
الطبعة الثانية : أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى ، دار الشروق ، ١٩٩٥ .

٢٠ ـ مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢] : تعريف وفهرسة وتوثيق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

٢١ ـ أوراق القلب (رسائل وجدانية) ، دار الشروق ، ١٩٩٥ .

٢٢ ـ شمس الأصيل فى أمريكا (من أدب الرحلات) ، دار الشروق ، ١٩٩٥ .

٢٣ ـ مذكرات وزراء الثورة [دراسة تشريحية تاريخية نقدية لمذكرات كمال حسن على وسيد مرعى وعبد الجليل العمرى وثروت عكاشة وإسماعيل فهمى وعثمان أحمد عثمان وضياء الدين داود وأحمد خليفة وعبد الوهاب البرلسى وحسن أبو باشا] ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٢٤ ـ المحافظون (قوائم كاملة ، وفهارس تفصيلية وأبجدية ، ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء الإدارة المحلية فى ١٩٦٠ وحتى الآن) ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٢٥ ـ مذكرات المرأة المصرية [دراسة تحليلية تاريخية نقدية لمذكرات بنت الشاطئ وجيهان السادات ولطيفة الزيات وزينب الغزالى وإنجى أفلاطون واعتدال ممتاز وإقبال بركة ونوال السعداوى وسلوى العنانى وثريا رشدى] ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٢٦ ـ الوزراء ، ورؤساؤهم ، ونواب رؤسائهم ، ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم (١٩٥٢ـ١٩٩٦)، دار الشروق ، ١٩٩٦ .

٢٧ ـ مذكرات الضباط الأحرار [مدارسة تاريخية نقدية لمذكرات محمد نجيب ، وعبد اللطيف بغدادى ، وخالد محيى الدين ، وعبد المنعم عبد الرءوف ، وجمال منصور ، وعبد الفتاح أبو الفضل ، وحسين حمودة] ، دار الشروق ، ١٩٩٦ .

٢٨ ـ البنيان الوزارى لمصر فى عهد الثورة [١٨٧٨ ـ ١٩٩٦] فهارس تاريخية وكمية وتفصيلية. لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية (منذ ١٨٧٨) ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة (١٩٥٢ ـ ١٩٩٦) ، دار الشروق ، ١٩٩٦ .

٢٩ ـ فن كتابة التجربة الذاتية [مذكرات الهواة والمحترفين ، وقراءة فى مذكرات جمال ماضى أبو العزايم ، وحامد طاهر ، وسمير صادق ، وعبد الله عبد البارى ، وعلاء الديب ، وفرغلى باشا ، ومحمود الربيعى ، وميلاد حنا] ، دار الشروق ، ١٩٩٧ .

٣٠ ـ قادة الشرطة والحكومة المصرية فى عهد الثورة ، دار الشروق ، ١٩٩٧ .

فهـرس

رقم الايداع : ٩٧/٨٧٨٥
I.S.B.N. 977 - 09 - 0389 - 2

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)